مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها
حلمى مراد



روبرت هتشنز

بيلا دونا

BELLA DONNA

أشهر قصة عالمية تجرى وقائعها فى مصر!

لمؤلف "حديقة الله"

روبرت هيتشنز

بيلاّ دونّا



BELLA DONNA

BY

ROBERT HICHENS

٢٠٠ صفحة

الثمن ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الرابع والعشرون

بيللا دونا

تأليف : روبرت هيتشنز

ترجمة : شمس الدين الغريانى

الادارة : عمارة الجندول ــ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ــ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن واحد وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر ٠٠ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها ٠

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا وأستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى ٠

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه ٠ واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما ٠

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ٠ وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر والثانى والعشرون ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) ٠

الخضراء » ٠٠ ثم أعقبتها قصته الثالثة « نداء الدم » ٠٠ وفى سن الحادية والأربعين أصدر « حديقة الله » ، (التى أخرجت بعد ذلك فى شريط سينمائى ملون مثلته « جريتا جاربو » مع « شارل بوابيه ») ٠٠ وفى سن الخامسة والأربعين أصدر « هيتشنز » قصته هذه « بيللا دونا » ، التى أقدم لك ترجمتها « الكاملة » فيما يلى ٠

وقد أحدث صدور هذه القصة ـ فى عام ١٩٠٩ ـ ضجة كبرى جعلت اسم مصر يتردد خلال السنوات التالية على كل لسان ٠٠ فتقاطر السائحون لزيارتها ، من كافة أقطار العالم ، بحيث صارت هذه الزيارة « موضة » العصر التى يتنافس عليها القادرون ، ونساء الطبقة المترفة اللواتى يحلمن بعاشق أسمر من طراز « البارودى » ـ بطل القصة ـ يتداعين بين ذراعيه القويتين ، تحت سماء مصر المرصعة بالنجوم !

٠٠ ولعل من العجيب أن ينقضى على صدور هذه القصة العالمية ـ الوحيدة من نوعها ، التى تصور مصر ومعالمها فى مئات الصفحات ! ـ ينقضى عليها نحو نصف قرن ، تترجم خلاله الى كثير من اللغات ، ويقرأها الناس فى كثير من أقطار العالم ٠٠ ولا تحرم منها غير لغة وأهل البلد الذى كرست لوصفه ، والذى تجرى وقائعها على أرضه ٠٠ وأعنى بهذا البلد : مصر ! ٠٠ لذلك تعتز « مطبوعات كتابى » بأن أتيحت لها اليوم فرصة نفض أكفان النسيان عن القصة ، وتقديمها لقراء العربية ، فى مصر وجاراتها الشقيقة ، لأول مرة فيما أعلم ٠٠

لا ينبغى أن نسلك مسلك النعامة !

◆ بقيت كلمة لابد منها : فانك ستلحظ فى سياق القصة بعض «وخزات» تمس الشعور القومى فينا ـ نحن المصريين ، والشرقيين عامة ـ على ان هذه الوخزات فى رأيى أدعى الى أن تترجم وتنشر فى بلادنا كما هى ، اذ لن يجدينا أن نخفيها عن أنفسنا ، فى الوقت الذى يقرأها فيه الناس فى شتى أركان الأرض، والا كنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال كى لا يراها الغير !٠٠ بل ان هذه الوخزات تفتح أعيننا على حقائق هامة : فهى توضح لنا كيف يرانا أهل الغرب ، وبأى أسلوب يكتبون عنا ، وبأى منطق يفكرون فينا ، وبأى منظار من التحامل الواضح ينظرون الينا ٠٠ وهى كلها حقائق ينبغى أن نتدبرها جيدا ، ونعد لكل سلاح منها ، السلاح الذى يفله !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

قصة عن مصر

قرأها العالم كله ٠٠ ما عدا مصر !

عزيزى القارىء ٠٠

◆ فى العدد العاشر من « كتابى » قدمت لك تلخيصا لقصة « حديقة الله » ، التى كتبها « روبرت هيتشنز » عام ١٩٠٥ فى اطار من جو بلاد (الجزائر) ذات السحر الشرقى الرائع ٠٠ وذكرت لك فى مقدمة ذلك التلخيص ان قصص « هيتشنز » تتميز على وجه العموم بطابع الجو « الشرقى » الغامض الذى يخلب لب الغربيين منذ أقدم العصور حتى اليوم ! ٠٠ وقد أشرت فى تلك المقدمة اشارة « خاطفة » الى ان للمؤلف قصة أخرى لا تقل فى روعتها - ان لم تزد - عن « حديقة الله » ، هى قصة « بيللا دونا » ، التى تجرى وقائعها فى مصر !

واذا كنت قد قرأت قصة محاكمة السيدة « مرجريت فهمى » ، قاتلة المرحوم على فهمى كامل ، التى نشرتها لك فى ذلك العدد ذاته من « كتابى » ، فلعلك تذكر عبارة وردت خلالها على لسان محامى المتهمة « سير مارشال هول » فى مرافعته البليغة ، وقد جاء فيها قوله يخاطب المحلفين : « انكم تذكرون جميعا ولا شك تلك القصة الخلابة التى كتبها « روبرت هيتشنز » وأطلق عليها « بيللا دونا » ، وتذكرون المنظر الختامى فيها ، الذى تخرج فيه المرأة من أبواب الحديقة الى الليل الحالك فى صحراء مصر ٠٠ » ٠٠ ثم قارن المحامى البارع بين ذلك المنظر من القصة ، وموقف بطلتها ، وبين موقف موكلته المتهمة فى الجناية الكبرى ٠٠

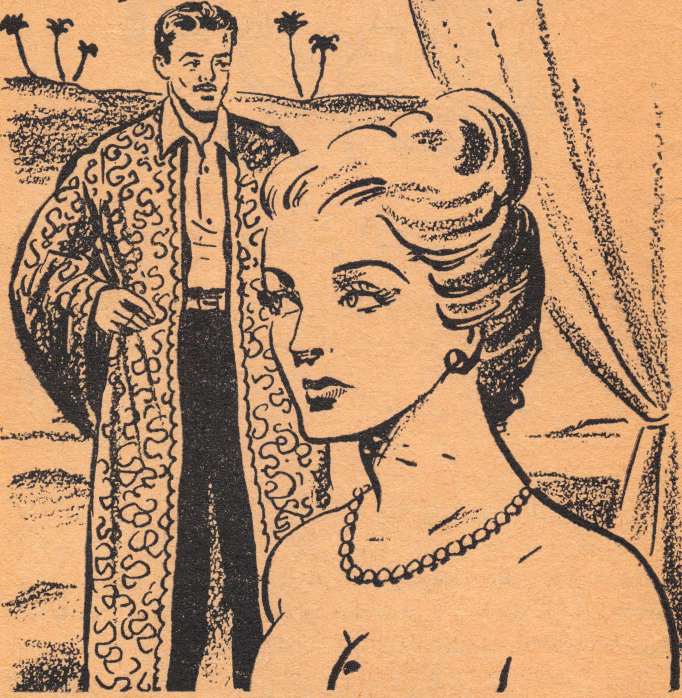
ولا شك ان اشارة المحامى ذائع الصيت فى مرافعته التى تحدث عنها العالم وقتئذ ، الى قصة « بيللا دونا » ، بهذه اللهجة وهذه العبارات - بعد صدور القصة بأربعة عشر عاما ! - لتدل على مبلغ الرواج والشهرة اللذين أحرزتهما القصة ، والمكانة التى بلغتها فى المحافل الأدبية وعند الرأى العام ، بحيث توسم المحامى فى المحلفين جميعا أن يكونوا قد قرأوها ، وعلق بأذهانهم ذلك المشهد الأخير منها الذى تحدث عنه !

القصة التى جلبت لمصر طوفانا من السائحات الحالمات بالحب !

◆ وقد ولد المؤلف « روبرت سمايث هيتشنز » فى بلدة (سبلد هرست) بانجلترا فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٤ ٠٠ وبعد ان أنفق سنوات فى دراسة الموسيقى - استعدادا لاحترافها - ألفى نفسه ميالا الى الانسياق فى اتجاه آخر ، هو الصحافة ! ٠٠ وقد كتب أولى قصصه الطويلة فى سن السابعة عشرة ٠ وفى سن التاسعة والعشرين كتب قصته الثانية ، الساخرة ، « القرنفلة

بيلا دونا

للروائى الكبير "روبرت هيتشنز"، مؤلف "حديقة الله"



تتضمن هذه الطبعة الترجمة الكاملة الأمينة للقصة كما كتبها مؤلفها ، دون اى تصرف أو اختصار لأى سطر او لفظ فيها !

المترجم



الفصل الاول

◆ **شق** الدكتور « ماير ايزاكسون » طريقه فى الحياة بشكل لا يتاح الا ليهودى عصرى يقيم فى لندن ، وبسرعة تثير العجب والحيرة . فقد لاح أنه اندفع الى قمة النجاح اندفاع الرصاصة الى الهدف .. وبعد أن كان خامل الصيت ، اذا به بغتة فى ذروة المجد والشهرة . وما قدر لأحـد أن يشهد خطواته نحو هذه الغاية ، وانما أصبح اسمه فجأة على كل لسان .. واذا كل انسان يتحدث عنه ، ويفيض فى الكلام عن حالات الشفاء التى تمت على يديه ، وينصح كل انسان غيره أن يذهب لزيارته !.. **ولسبب خفى أخذ اسمه ـ وهو اسم لا ينساه المرء اذا ما سمعه مرة ـ ينفذ الى الأحاديث التى تدور فى «الصالونات» الراقية بلندن ، فاذا بالنساء السليمات الصحة ـ ممن لم يزرنه من قبل ـ يتوعكن فجأة ، ويشعرن بالحاجة الى مشورة طبية عاجلة !..** وأصبح السؤال الدائم على الأفواه : « أين يقيم ؟.. فى هارلى ستريت طبعا؟ » . ولكنه لم يكن يقيم فى شارع (هارلى) ، فما هو بالذى يغمر اسمه فى ذلك الخضم من اللافتات النحاسية لزملائه الأطباء..

ومن ثم كان السائلون يدهشون ويصابون بما يشبه خيبة الأمل عندما كانوا يسمعون انه يقيم في ميدان (كليفلاند) بحى (سان جيمس) ، حيث تقع داره المنعزلة ، المؤثثة بأفخر الرياش

وحلقت الشائعات بجناحيها تذيع انه موفور الثراء ، لا يمارس الطب الا لأن ملكاته الذهنية كانت تحبب اليه هواية دراسة الأمراض ، وانه أوتى موهبة خارقة فى تشخيص العلل ، لا يملك أن يغفل استخدامها ، كما ان به شغفا ونهما الى الدراسة الانسانية ٠٠ ومن ذا الذى تواتيه الفرص لدراسة الانسان مثل ما تواتى الطبيب والقس ؟!٠٠ وكان المرضى الذين استشاروه يتحدثون – فى حرارة ! – عن عينيه النفاذتين ، وعن قوة ملاحظته ، وعن الأثر البالغ الذى تتركه فى النفس شخصيته الجارفة ٠٠ وأصبح التعليق الشائع عن الدكتور ماير ايزاكسون أنه « **فريد لا يماثله أحد قط !** » ، فكانت هذه العبارة أعظم اطراء تداولته الأفواه فى لندن ٠٠ مدينة الببغاوات والقرود !

وكانت سنه موضع جدل ، وكذلك كان أصله ! ولقد قدر الناس أنه فى « نحو الأربعين » ، وهى سن مأمونة رزينة ، تتيح له من الشباب ما يبشر بآمال غير محدودة ، وما يوحى برجاء كبير فيما ينتظر أن يأتيه من جلائل الأعمال ٠٠ كما أنها تتيح له من النضوج ما يجعل النتائج التى أحرزها رائعة مدهشة ، ان لم تكن فذة خارقة ٠٠ أجل ، لا بد أنه فى « نحو الأربعين » ! ٠٠ **وأصله ؟!٠٠ ان اسم «ماير» يذكر السامع بألمانيا ، أما «ايزاكسون» فيذكر المغرقين فى الخيال باسرائيل الضائعة !٠٠ وقد قال بعض الناس عنه انه « يبدو كما لو كان قادما من الشرق » ، فعقب أحد السفهاء على ذلك بقوله « شرق لندن » ! (وهو الحى الذى يقطنه الفقراء وحثالة القوم فى العاصمة الانجليزية)**

ولعله كان فى طبيب ميدان (كليفلاند) مايوحى بهذا أو ذاك ٠٠ فمن المحقق انك لو سرت موغلا فى (بريك لين) ـأو الدروب الضيقة المؤدية اليه ـ فى شرق لندن (ايست اند) ، لالتقيت برجال من طرازه : متوسطى الطول ، نحاف الأبدان، ذوى شعر كثيف مجعد ، وشفاه مقوسة ، وأنوف واسعة ، ووجنات بارزة العظام ، وعيون سوداء يروعك منها بريقهـا الوحشى ٠٠ رجال تدرك لأول وهلة أنهم ليسوا من الانجليز فى شيء !٠٠ ولقد كان الدكتور ماير ايزاكسون شبيها بهؤلاء الرجال ، ومع ذلك فقد كان فيه شيء يبعده عنهم كل البعد ٠٠ كان ذا حيوية غزيرة دافقة ـ تكاد تزيد على المألوف اذا ما اختلط بالانجليز ـ ولكنه لم يكن يبدو قط جشعا ،أونهماينشد فريسة !٠٠ وقد يتصور المرء أن هذا الرجل خليق بأن يأتى أمرا غير عادى أو شاذا ، ولكن المرء لا يتصور البتة أنه يقوى على ارتكاب أية خسة أو دناءة ٠ بل لقد كان ينبعث من عينيه أحيانا بريق ينم عن سمو خلقى من النادر أن تجده فيمن يقيمون فى (بريك لين) أو حواليه ٠٠ وكانت يداه النحيلتان العصبيتان ، سمراوين ، تذكرانك بأيدى علاة القـوم من المصريين ! ٠٠ وكان ـ مثل الكثيرين من بنى جنسه ـ فنانا بطبعه ، يجرى مع الدماء فى عروقه حب غريزى لأسـمى ما وصل اليه الانسان من الابداع فى الخلق ، فكان شديد الاهتمام بالجميل من الأشياء ، قادرا على التمييز بين الغث والسمين ، لا يروقه ما يأتى فى المرتبة الثانية وانما يشتد حماسه وتقديره لما يكون فى المرتبة الأولى من التحف٠٠ وماكان يمل قط من ادمان النظر الى الصور الجميلة والتماثيل العظيمة والزجاج النفيس القديم والنقوش الدقيقة والجواهر الثمينة ، كما كان بطبعه شديد التأثر ببدائع فن البناء والعمارة ٠ أما الموسيقى فقد كان شغوفا بها الى حد التطرف شأن الكثيرين من اليهود

ويقال عن رجال اليهود ان بهم دائما بعضا من صفات الأنوثة الحقة ، لا التأنث أو التشبه بالنساء ٠٠ وقد كان لدى الدكتور ماير ايزاكسون شيء من ذلك ، اذ كان كالنساء فى سرعة البديهة وصدق الالهام ، وفى حرارة الميل نحو الشيء أو النفور منه !٠٠ وكان يفهم النساء بغريزته كما يفهمن بعضهن بعضا ، وكثيرا ماكان يعرف الشيء عنهن دون أن يدرى كيف عرفه ٠٠ ومن حسن الحظ أن مثل هذه المقدرة على فهم النساء كانت نادرة بين الرجال ، ومن ثم كان الدكتور «ماير ايزاكسون» يسير فى الضياء ، حيث كان معظم الرجال يتخبطون فى الظلمات ! ولكنه لم يكن متزوجا ٠٠ وقد يرى الكثيرون ان العزوبة تنقص من قدر الطبيب ، وتقف فى سبيل مستقبله ٠٠ الا أن الدكتور «ماير ايزاكسون» لم يجد الأمر كذلك بالنسبة اليه ، فمع أنه لم يكن اخصائيا فى الأمراض العصبية ، الا ان حجرة الانتظار بعيادته كانت ملأى دواما بالمرضى الى درجة ما كانت لتدع مجالا لمزيد ، لو انه كان متزوجا ٠٠ بل لعلها كانت اذ ذاك تغدو أقل ازدحاما !٠٠ وماكان الطبيب ليحفل بالتفكير فى عزوبته أو زواجه ٠٠ كل الذى كان يدريه هو أنه أصبح — على حين غرة — « موضة » اليوم فى لندن ، وظل محتفظا بهذه المكانة ! ٠٠ كذلك لم يكن فى طباعه غرابة أو شذوذ يستهوى النساء ٠٠ فهو لم يبهر مجتمعهن بغلظة مفتعلة ، ولا فتن هذا المجتمع برقة سخيفة مصطنعة ، وانما كان يظهر دائما بمظهر طبيعى ، ويبدو ذكيا ، يقظا ، بالغ الاهتمام بالشخص الذى يجالسه ٠ ومن المحقق انه كان رجلا اجتماعيا ٠٠ فكثيرا ما كان يرى فى صالات الموسيقى ، ودار الأوبرا ، ومآدب العشاء ، وحفلات الاستقبال ، بل انه كان يغشى أحيانا حفلات الرقص الكبيرة ٠٠ كما كان يمتطى جواده — فى الصباح المبكر — فى جولة بالمتنزه ، ويقيم مأدبة عشاء كل أسبوع فى ميدان (كليفلاند)

٠٠ وكان الناس يحبون الذهاب الى منزله ، وتلبية دعواته ، ليقينهم من أنهم لن يسأموا ولن يضجروا ، ولن يتناولوا طعاما مسموما !٠٠ ولم يكن الرجال أقل تقديرا له من النساء ، على الرغم مما كانوا يجدونه فيه من آثار (بريكلين) وشرق لندن!٠٠ **فان استقامته ، ومهارته ، وطيبته البادية للعيان ، كانت لا تلبث ان تقضى على ماكان يثيره مظهره لدى الانجليز ، المفطورين على النفور من الأجانب !٠٠ ولم يكن يبغضه أحد الا أن يكون من أعداء اليهود الألداء !**

وعلى هذا النحو استقرت حياة الدكتور ماير ايزاكسون ، كأطيب ما تستقر حياة انسان ، حتى حسبه الكثيرون واحدا من السعداء فى هذا العالم !

★ ★ ★

◆ **وفى** صباح يوم من شهريونيو، يمم الطبيب شطر ميدان كليفلاند عائدا من نزهته الصباحية ، وحيدا لا يرافقه أحد ٠٠ وكان الجواد الأدهم النشيط الذى امتطاه ، والذى لم يكن يقل فى حيويته الدافقة عن صاحبه ، قد دار دورته ركضا فى منعرجات المتنزه ، ثم مضى يسير خببا نحو قصر (باكنجهام) وهو يتشمم الهواء الراكد بخياشيمه الحساسة ٠٠وكانت النذر توحى بأن اليوم سيكون حارا ، مما بعث فى نفس الطبيب ميلا الى التلبد والكسل ٠ وأحس فجأة بوطأة العمل عليه واسترقاقه اياه ، اذ انه لن يلبث ان يصل الى ميدان كليفلاند ـ بعد دقائق ـ فلا يكاد يستحم ويتناول قدحا من القهوة ويلقى نظرة سريعة على صحيفتى «التايمس» و «الديلى ميل» ، حتى يبدأ زحف الموكب الذى يظل حتى المساء متلاحقا على عيادته ! ٠٠ وتنهد الطبيب ثم جذب عنان جواده ليبطىء فى سيره ، اذ كان فى ذلك اليوم نافرا كل النفور من الالتقاء بهذا الموكب من المرضى ، رغم انه كان يجلب اليه نفعا جديدا

فى كل يوم !

وكان الطبيب ـ بوجه عام ـ رجلا حاد الذكاء ٠ ولم تكن به حاجة الى التظاهر بالحرارة والاهتمام ، فهما صفتان أصيلتان فيه ٠ وكان يهوى البحث والاستقصاء ، فوجد فى مهنتـــه ما يمكنه من اشباع هوايته ٠ وكان قاصدوه ـ بصفة عامة ـ من علية القوم ، فكان خادمه اليهودى يدخلهم عليه واحدا بعد الآخر ، كلا بدوره ، خليطا من الناس أحاطت بهم شباك الحياة المدنية الحديثة ٠٠ فكان الطبيب يحب أن ينفرد بهم فى حجرته الهادئة ، فينقب فى كل منهم عن الروابط الخفية التى تجمع بين الجسد والعقل فى الانسان ، ويرقب قوة جذب الروح للجسد أو الجسد للروح ٠٠ ولكنه كان فى ذلك اليوم راغبا عن العمل ٠٠ وكان فى أعماق نفسه شىء ما ، يخفيه عادة نشاطه المتدفق ٠٠ شىء يجعله يتـــوق الى الجلوس فى الشمس المشرقة ليسبح فى الخيال ســاعات متتابعة ، تاركا الأقدار جميعا تمضى فى هدوء ، أو بغير اكتراث ، بين يدى الله !٠٠ وكان يقول لنفسه : « **سوف أحصل على أجازة يوما ما ٠٠ أجازة طويلة ! وسأمضى بعيدا عن هنا ٠٠ الى الأرض التى أحس حقا انها وطنى ٠٠ الى حيث أشعر اننى فى مـــكانى الطبيعى !** » ٠٠ وفيما كان يفكر فى ذلك ، رفع عينيـــه ، فاستقرت أنظاره على جدران القصر الملكى الداكنة ، وعلى الأسوار المذهبة التى تفصل القصر عن الطريق العام،والحراس الذين كانوا يقومون بنوبتهم ، نضرى الوجوه ، مرهفى الحس واليقظة ، وهم يتطلعون الى لندن بتلك العيون الهادئة ٠٠ البريطانية !٠٠ وعاد يردد فى نفسه : «فى مكانى الطبيعى!»٠ وعندئذ انبعثت الابتسامة الى عينيه وشفتيه معا ، وبدا له انه يرى لندن كما لو كانت مسرحية هائلة ٠٠ أو مشهدا يستطيع أى طالب صغير أن يستوعبه فى لمحة واحدة !

ترى هل كان الكسل هو مايتوق اليه حقا ؟٠٠ لقد تبدلت

رغبته فجأة ، دون أن يدرى لهذا التبدل سببا ، فاذا به يجد فى نفسه رغبة فى ان يخوض أحداثا جساما ، رهيبة ، مروعة ٠٠ أحداثا غير مألوفة ، تحوى من العنف ما يرفع الرجل المنغمس فيها فوق مستوى سائر الرجال !٠٠ لقد استيقظ العنصر الأجنبى فى نفسه ، وربما أيقظه من غفوته هذا الهواء الساكن الى حد لم يعهده من قبل ، فاذا لندن تبدو له مدينة تافهة ٠٠ مدينة لا يمكن فيها لرجل من طرازه أن يسبح فى الخيال أو يركن الى العمل بكل ما فيه من تخاذل ، أو بكل ما فيه من قوة ونشاط !٠٠ **وراح يتخيل - كما يفعل الأطفال الأذكياء أحيانا - بلدا بعيدا نائيا من تلك البلدان التى تنشر فيها أساطير الحب طياتها اللامعة ، حيث يمكن أن يجد الحافز الذى يحتاج اليه لبعث قواه الكامنة جميعا الى ممارسة أقصى نشاطها ٠٠ تلك القوى التى يحس ان استخدامها كفيل بأن يكمل حياته !**

وضغط على جنبى جواده بركبتيه ، ففهم الحيوان رغبته ، وانطلق يركض حثيثا ٠٠ ومر سريعا أمام حديقة قصر (ستافورد) ، ثم استدار الى اليسار أمام قصر (سان جيمس) ، ثم قصر (مارلبرو) ، وما لبث أن بلغ باب منزله ٠٠ وفيما كان يمضى الى الداخل ، قال لخادمه : « أرجو أن تحضر لى المفكرة والقهوة بعد عشرين دقيقة يا هنرى ! »

★ ★ ★

◆ **وبعد** نصف ساعة ، كان يجلس فى مقعد مريح فى حجرة جلوس بالطابق العلوى ، يرشف قهوته ، وقد استقرت الصحف بالقرب منه ، لم تمس ٠٠ وعلى ركبته كانت المفكرة مفتوحة ، تحوى أسماء المرضى الذين كان على موعد معهم فى ذلك اليوم ٠٠ وأخذ يتطلع الى الأسماء ، عسى ان يجد بينها واحدا يثير اهتمامه !٠٠ كان مريضه الأول رجلا يمر بعيادته

كلما كان في طريقه الى حي المال والأعمال ٠٠ وتلت ذلك أسماء ثلاث نساء ، ثم اسم غلام كان قادما مع أمه ، وهي سيدة ذات عقل قلق مضطرب ٠٠ وكان الطبيب قد تلقى منها أكداسا من الخطابات !٠٠ وبهذا ينتهي عمله فى فترة الصباح ٠ وقلب صفحة أخرى من المفكرة ليرى مواعيده فى فترة بعد الظهر ٠٠ ثم أخذ يتلوها مغمغما : « الساعة الثانية ، مسز ليزير ٠ الثانية والنصف ، مس منديس ٠ الثالثة ، أسقف جريستون ٠ الثالثة والنصف ، ليدى كارل ٠ الرابعة ، مدام دى ليس ٠ الرابعة والنصف ، مسز هارنجباى ٠ الخامسة ، سير هنرى جريب ٠ الخامسة والنصف ، مسز تشبستو » ٠٠ وكان هذا آخر اسماء المرضى بقائمة اليوم ، فقد كان عمل الدكتور ماير ايزاكسون ينتهي فى السادسة ، أو هكذا كان يفترض ، ولو انه غالبا ما كان يمنح بعض مرضاه أكثر من نصف الساعة المقرر ، فكان بذلك يطيل من ساعات عمله ٠٠ ولكنه ماكان يقبل فى منزله أحدا يأتي لاستشارة طبية بعدالمريض الذى يحدد له الساعة الخامسة والنصف ٠٠ ومن ثم فقد كانت مسز تشبستو آخر المرضى الذين كان عليه أن يفحصهم فى ذلك اليوم ٠٠

وجلس ساكنا برهة ، والمفكرة مفتوحة فوق ركبته ، وهو ينظر الى اسمها ٠٠ كان اسما معروفا له حق المعرفة ٠٠ اسما ذائع الصيت فى دنيا الناطقين بالانجليزية عامة ٠٠ فقد كانت مسز تشبستو احدى روائع الحسن والجمال ، ولكنها كانت توشك على الأفول ٠ وبعد اذ طال يوم مجدها وأمعن فى الطول ، أصبح يبدو وقد جنحت شمسه للمغيب ، وخبا ضياؤه ٠٠ كانت قد جاوزت الأربعين ، وان زعمت انها فى الثامنة والثلاثين ٠٠ اجل ، كانت فوق الأربعين حقا !٠٠ ويقول البعض ان الطيبة والصلاح يحفظان على النساء نضرتهن ٠٠ وقد جربت مسز تشبستو قدرا عظيما من

وسائل الاحتفاظ بنضارتها ، الا أنها أغفلت هذه الوسيلة !٠٠ وكانت الخطوة بين البذخ والتقشف هي الخطوة الوحيدة التى لم تتخذها قط فى حياتها ، رغم انها اتخذت كثيرا من الخطوات التى كان بعضها ـ لسوء الحظ ـ غـير موفق ٠٠ وكانت فتاة طيبة المنبت ، تنحدر من والدين أرستقراطيين ، ولكنهما كانا مفلسين مبذرين ٠٠ فأما والدها « أفرارد بيج » ـ وهو أحد أبناء اللورد تشيام ـ فقد اتخذ لنفسه مقرا مختارا فى محكمة التفاليس ! ٠٠ وأما والدتها ، فكانت بالمثل شديدة الاسراف فى المال ، تقول كلما جاء ذكره : « اننا نرزق المال لننفقه ، لا لندخره ونكتنزه ! » ٠٠ لذلك كان اكتنازها المال من القلة بحيث اضطر زوجها الى نشر اعلان فى الصحف الكبرى يقرر فيه انه لن يكون مسئولا عن ديونها !٠٠ وكان قد انقضى عهد طويل مذ كان مسئولا عن ديونه هو ، ومع ذلك فقد نم هذا الاعلان عن شيء من الكرامة والاعتزاز ، شـأن الرجل الأمين الذى يعلن فى صراحة عن حقيقة مركزه !

والأرجح أن حياة مسز تشبستو تأثرت بمتاعب والديها المالية ٠٠ فقد تعلمت منذ الصغر ان تفزع من الفقر ، وعرفت كيف يباع أثاث المرء وفاء لديونه ، مرتين ، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ٠ ولعل ذلك هو الذى أدى بها الى أن تختار ان تبيع نفسها فيما بعد !٠٠ ومهما يكن من أمر فانها لم تكد تبلغ الحادية والعشرين من عمرها ، حتى «بيعت» الى مستر « وود هاوس تشبستو » ، وهو تاجر خمور ثرى ، لم تكن تشعر نحوه بأى ميل أو هوى ٠٠ ونالت بوصفها مسز تشبستو شهرة ذائعة فى المجتمع اللندنى ، كاحدى ربات الجمال البارع ، وأطلق الناس عليها اسم « بيلا دونا » ٠٠ أى « ست الحسن» ! ٠٠ ونشرت صورها ، وكثرت الكتابة عنها ، ولهج بذكرها علية القوم ، حتى ذاع صيتها فى أنحاء العالم كما يمكن أن تذيع شهرة امرأة لا فضل لها ولا ميزة سوى الجمال والحسن،

دون عمل مجيد تأتيه !

وما لبثت ان غدت بطلة قضية طلاق كبرى .. **فقد نسي مستر تشبستو ان من الواجبات المحتومة للزوج العصرى ان يغمض عينه عن النزوات العارضة لزوجة محبوبة تنال اعجاب الناس عامة ، فأذاع فجأة بعض الحقائق البشعة ، وبذلك دمر سمعة مسز تشبستو تدميرا ، وربح قضية الطلاق ، كما قضى له بتعويض جسيم من رجل متزوج من رجال المجتمع المعروفين .. واضطرت زوجة الرجل الى طلب الطلاق منه بدورها . وهكذا قضي على مسز تشبستو اجتماعيا ، قضاء مبرما !**
وعندئذ بدأت المرحلة الجديدة فى حياتها .. مرحلة تختلف كل الاختلاف عما سبقها . ولم تكن اذ ذاك قد جاوزت السادسة والعشرين من عمرها ، كما انها كانت فى ذروة جمالها وبهائها .. واعتقد الناس جميعا ان الرجل الذى كان سببا فى دمارها لن يلبث أن يتزوج منها بأسرع وقت ممكن . ولكنه لسوء الحظ قضى نحبه قبل أن يصبح الحكم نهائيا .. وهكذا أودعت مسز تشبستو مستقبلها بين يدى الأقدار ، التى قلبت لها ظهر المجن ، فاذا بها ــ وهى فى أوج شهرتها وذروة جمالهاوميعة صباها وشبابها ــ قد دمرت حياتها وتركت وحيدة ، مضطرة الى ان تدبر لنفسها وسائل العيش فى هذا العالم . واذ ذاك برزت بين صفاتها وأخلاقها خلة غير حميدة .. فقد راحت تذكى حبها للمال ، ورغبتها الجياشة فى المادى من الأشياء !.. ولم يظهر هذا الجشع الا بعد ان غدت فقيرة وحيدة .. ولعله كان كامنا فى نفسها دوآما ، ولكنها كانت تخفيه .. أما وقد أصبحت فى غير حاجة الى اخفاء نهمها وجشعها ، فانها أظهرتهما وراحت ترتب حياتها لاشباعهما وارضائهما !

ولقد استطاعت اشباعهما حقا ! أو انها ــ على الأقل ــ قضت سنين عدة تهدىء من سورتهما . واحتفظت بشهرتها الذائعة ، مع فارق واحد : هو أنها غدت مسز تشبستو ذات

السمعة المريبة ! ولم يكن لها ولد تصون سمعتها من أجله ، كما ان أباها كان قد قضى نحبه ، وذهبت أمها لتعيش فى بروكسل مع بعض أقربائها الأجانب ٠٠ ولم تعد مسز تشبستو تبالى بأقربائها الانجليز ، بعد اذ انقلبوا جميعا ضدها منذ فضيحة الطلاق ٠ وارتدت دروعها الفولاذية كاملة ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة تحدق بها المتاعب ، ومضت تتحدى أولئك الذين ناصبوها العداء ٠٠ لقد فشلت فى حياتها الأولى، ولكنها أشد ما تكون عزما على النجاح فى حياتها الجديدة !٠٠

والحق انها لقيت نجاحا عظيما لفترة غير قصيرة ، كان الرجال خلالها يتهاوون عند قدميها ويتفانون فى اشباع رغباتها ٠٠ وانطلقت تعيش كما خيل اليها أنها تهوى أن تعيش : فى بذخ ورفاهية ! وكانت تنال أكثر مما تناله معظم النساء الصالحات، فكانت تجد فى ذلك لذة لا تعدلها لذة !٠٠ وعلى الرغم من حبها الشره للمال ، فان صفات والديها كانت تتغلب عليها ، فاذا بها مسرفة غاية الاسراف ، كما كان والداها من قبل ٠٠ بل ان حبها للمال كان مرده الى حبها للانفاق ، لا الاكتناز ٠ وقد ظلت سنين عدة تبعثره يمنة ويسرة بكلتا يديها ، حتى اذا شارفت الأربعين ، بدأت نضرة جمالها تميل نحو الذبول ٠٠ ولما كانت امرأة ذائعة الصيت ، فقد كان عليها ان تحتمل مصير أولئك الذين يظلون طويلا حديث المجتمع٠٠ أما الرجال فكانوا يقولون عنها : « مسز تشبستو ؟٠٠ أوه ! لقد طال العهد بها كثيرا ، ولا بد انها الآن فوق الخمسين ! »٠٠ وأما النساء – وعلى الأخص الصالحات منهن – فكن يؤكدن انها أقرب الى الستين !

وكما يحدث فى مثل حالها عادة ، جنح الطيف الوردى فجأة الى الانحسار عن حياتها ، وأخذت الظلال القاتمة تزحف عليها رويدا ! وصارت ترى فى المجتمعات فى صحبة شبان صغار ، بل غلمان على الأغلب !٠٠ وبدأ الناس يسخرون منها كلما تحدثوا عنها ، فكان يقال انها لم تعد فى حالة طيبة

كما كانت من قبل ، وان أحد أصحاب آلملايين المزعومين قد زج بها فى بعض المضاربات الفاشلة ، ثم لم ير من الضرورى ان يسدد لها خسائرها . وانتقلت من منزلها فى (بارك لين) الى مسكن فى (فيكتوريا ستريت) ، ثم الى مسكن صغير فى (كنسنجتون) .. وما لبثت ان تخلت عن هذا واتخذت لها مسكنا بسيطا فى الريف ، كانت تذهب اليـه وتعود منه الى المدينة بسيارتها .. وسرعان ماسئمت هذه الطريقـة فعادت لتعيش فى أحد فنـــادق لندن .. وباعت يختها ، كما باعت قدرا من الماس كانت تقتنيه . ومضى الناس يقولون : « مسز تشبستو ؟ اوه ! لا بد انها الآن فوق الخمسين ! » .. وما من شك فى انها كانت تواجه وقتا عصيبا .. ومع كل شهر يمر عليها ، كانت الوحدة تحملق فى وجهها ، وتمضى تتفرس فى عينيها بنظرات باردة جامدة حتى تحس كأن دوارا قد أوشك أن يحل بها ، وأن قوة خفية تنومها تنويما مغناطيسيا .. وبدأ الكلل يزحف على نفسها ، والتبلد يسرى فى كيانها !

وحلت الأربعون، فالحادية والأربعون، ثم الثانية والأربعون .. واذ ذاك ، وفى ذات صباح من أيام شـهر يونيو ، جلس الدكتور ماير ايزاكسون يرشف قهوته ، وهو ينظر الى اسمها وقد كتب أمام الساعة الخامسة والنصف فى المفـكرة الخاصة بمرضاه !

الفصل الثـانى

◆ لم يكن الدكتور ماير ايزاكسون يعرف مسز تشبستو شخصيا ، ولكنه كان يراها اتفاقا فى ساعة العشــاء فى بعض المطاعم الفاخرة ، أو فى بعض الأمسيات وهى تمتطى صهوة جوادها فى المتنزه . فلما أخذ يتأمل اسمها فى مفكرته ، تبين انه لم يرها فى الواقع منذ مدة طويلة ، لعلها تناهز العامين .. وكان قد سمع بالشائعات التى ذاعت عن تدهور حالتها ، ولكنه لم يعرها أذنا

واعية ، اذ لم تكن مسز تشبستو تثير فى نفسه اهتماما خاصا . ومع ذلك فانه ـ عند ما طوى مفكرته فى ذلك الصباح ، ونهض من مجلسه ليمضى الى عمله ـ أحس فى نفسه برغبة قوية فى ان يسمع الساعة تدق النصف بعد الخامسة ، وان يرى هنرى وهو يفتح الباب ليقود مسز تشبستو الى حجرة الاستشارة .. فان امرأة عاشت عيشتها واكتسبت شهرتها ـ أو سوء سمعتها ! ـ خليقة بأن تثير الاهتمام !.. وأخذت تراوده الرغبة فى تعجل سير الزمن ، كلما مضى النهار متثاقلا .. حتى اذا ما فحص السير هنرى جريب ـ المريض قبل الاخير ـ أثبت فى قائمة اليوم انه كهل مريض بالوهم ، يعتبر صورة جديدة لبطل قصة موليير المعروفة (المريض بالوهم) ، بطىء الحركة مضطرب الحديث دائب الشكوى .. وقاوم الطبيب نفسه ليكبح الرغبة التى استبدت به فى ان يكتب له وصفة (روشتة) سريعة ببعض الحبوب المقوية ، ثم يقوده الى الباب المفضى الى طريق قصر مارلبرو ! ودقت الساعة معلنة النصف بعد الخامسة ، وما زال السير هنرى يشرح الأعراض العجيبة التى كانت تقض مضجعه : الطنين الذى يملأ رأسه ، والتقلصات التى تصيب أطرافه بغتة ، والدبيب الذى يحسه عند جذور شعره كأنه حشرات ذات سيقان مثلجة تمرح وترتع هناك !.. وكانت عيناه تتألقان فى حرارة وحمية ـ شأن العليل القلق ـ وهو يجالس الرجل الذى يدفع له أجرا ليصغى الى شكواه ويعنى بعلاج أسبابها !

ولكن مسز تشبستو ؟ ترى هل حضرت ؟ أتراها تجلس الآن فى الحجرة المجاورة ، تقلب أنظارها بغير اهتمام فى أحدث الكتب الموجودة أمامها ؟

واستطرد السير هنرى قائلا ، وهو يرفع أصبعه الى أعلى : « وان أعجب ظاهرة فى حالتى ، هى ذلك العرق البارد الذى ... » ، فقاطعه الطبيب قائلا : « ان نصيحتى لك هى ان ... »

ـ ولكنى لم أشرح لك بعد شيئا عن العرق البارد الذى ...

ـ هذه نصيحتى لك يا سير هنرى : لا تفكر فى نفسك البتة ! وعليك بالمشى ساعة قبل الافطار يوميا ، واقصر طعامك على وجبتين فى اليوم ، فى الصباح والمساء ... وينبغى ان تنام ثمانى ساعات كل ليلة على الأقل ، وان تترك التسكع فى النادى ، وتشغل نفسك بالعمل من أجل الآخرين ما أمكنك ذلك ! ففى اعتقادى ان هذا خير دواء مقو لك . ولست أرى بعد ذلك سببا لكى لا تعيش حتى المائة !

ـ أنا ؟.. أعيش حتى المائة ؟!

ـ ولم لا ؟ ليس بك من شىء سوى ما يصوره لك الوهم

ـ لا شىء ؟.. أتقول انه ليس بى من شىء ؟

ـ لقد فحصتك ، وهذا رأيى

فتورد وجه المريض من فرط الحنق لهذه « الاهانة » الصارخة ، وقال :

« لقد جئتك لتخبرني عما بي ... »

– ويسرني أن أخبرك بأنه ليس بك من شيء .. في جسمك !

– هل تعني بهذا التلميح أن عقلي هو المريض ؟!

– كلا ، ولكنك لا تفسح له مجال التفكير .. فأنت لا تفكر الا في نفسك فحسب ، وهذا لا يكفي البتة !

فانبعث السير هنري قائما ، ودس اصبعا مرتعدة في جيب صديريته وهو يقول : « أحسبني مدينا لك ب ... »

– لا شيء .. ولكنك اذا عنيت بوضع شيء في الصندوق الموجود على المنضدة في الردهة ، فانك بهذا تعين رجلا فقيرا على الذهاب الى شاطىء البحر لتبديل الهواء بعد الجراحة التي أجريت له ، وستجد في ذلك خير دواء في العالم !

وفيما كان الباب يغلق وراء ظهر رجل جرحت كرامته فانقلب عدوا مبينا ، كان الطبيب يغمغم قائلا لنفسه : « والآن ، الى مسز تشبستو » .. وجلس ساكنا دقيقة أو اثنتين ، وهو يتوقع أن يرى الباب يفتح من جديد ويبدو في فراغه شبح امرأة ، كما تبدو الصورة في اطار . ولكن أحدا لم يدخل ، فبدأ يتململ في مجلسه ، اذ انه لم يعتد من قبل ان يبقى في انتظار مرضاه ، على الرغم من انه كان كثيرا ما يبقيهم في انتظاره .. وكان زر الجرس قريبا من يده فمسه بأصبعه ، وسرعان ما ظهر خادمه للتو ، فقال وهو يخرج ساعته من جيبه : « ان مسز تشبستو على موعد في الخامسة والنصف ، والساعة الآن السادسة الا عشر دقائق تقريبا .. ألم تأت بعد ؟ »

– كلا يا سيدي .. وقد حضر شخصان أو ثلاثة على غير موعد ...

– ولكنك رددتهم على أعقابهم طبعا ؟.. خيرا فعلت . حسنا .. انني لن أبقى أكثر من ذلك !

ونهض عن مقعده ، فقال الخادم : « واذا حضرت مسز تشبستو يا سيدي ؟ »

– أفهمها انني انتظرتها حتى السادسة الا عشر دقائق ، وعندئذ ...

ولم يتم عبارته ، اذ انبعث جرس الباب يدوي في حدة .. فسأله الخادم : « اذا كانت مسز تشبستو هي القادمة ، فهل أسمح لها بالدخول يا سيدي ؟». وتردد الطبيب ، ولكن تردده لم يتجاوز ثانية واحدة ، قال بعدها : « نعم » . ثم جلس ثانية الى مكتبه .. لقد ظل في ذلك اليوم يتلهف على وصول آخر مرضاه ، ولكن احتجازه على هذا النحو أثار غيظه ، لا سيما وان المريضة وصلت في اللحظة التي فارقه فيها اقباله على العمل ، بعد اذ حسب ان متاعب يومه قد انتهت .. فلماذا لم تحضر في الميعاد ؟.. وراح يدق بأصابعه الرفيعة على المكتب في صبر نافد ، وقد قطب حاجبيه الكثيفين فوق عينيه البراقتين .. ولكنه ما ان أحس بحركة الباب حتى استعادت أساريره هدوءها . وعندما

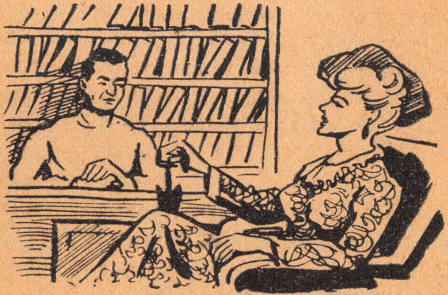
دلفت الى الحجرة امرأة مديدة القامة ، وقف أمام مقعده وهو يبتسم فى رصانة ٠٠ وبادرت المرأة قائلة : « أخشى أن أكون قد تأخرت ! » ٠ وبينما كان هنرى يغلق الباب ، قال الطبيب : « لقد تأخرت عشرين دقيقة »

ــ انى لجد آسفة !

بيد ان نبرات صوتها المتراخية كانت تنفى صدق كلماتها ، فشعر الطبيب ــ فى غمرة انشغاله ــ باحساس طفيف من العداء !٠٠ وقال : « أرجو أن تجلسى هنا وتخبرينى عما جئت لاستشارتى من أجله » ٠٠ فجلست مسز تشبستو فى المقعد الذى أشار اليه ٠٠ وكانت حركاتها بطيئة متكاسلة ، تأتيها فى استرخاء شأن الشخص المعتد بنفسه ، الذى لا يجد ما يشغله ٠٠ مما أوحى الى الرجل الذى كان يرقبها بامعان ، بما كان يملأ حياتها من ساعات الفراغ ٠٠ لكم تختلف هذه الساعات عن ساعاته هو ٠٠ الحافلة بالعمل !

★ ★ ★

◆ واستقرت فى مقعدها ، وأسندت ظهرها ، وقد وضعت احدى يديها على مقبض مظلة كانت تحملها ، بينما أراحت الاخرى على مسند المقعد ٠ وكان



طولها ملفتا للنظر ، وقد زاد من ابرازه دقة خصرها وصغر رأسها البديع التكوين ، الذى استقر فوق جيد طويل رائع الجمال ٠٠ كان تكوينها كله يوحى بطيب منبتها وعلو أصلها ٠٠ فان أشد النساء حسنا من بنات الشعب ما كانت لتصاغ على هذا النحو !٠٠ واذ تبين الدكتور ايزاكسون هذه الحقيقة ، شعر فجأة بأن من العسير أن يجمع بين المرأة الجالسة أمامه وبين ما اشتهر عنها من مسلك شائن ٠٠ ولا ريب أن جسما كهذا ، ينطق برفعة أصله ، خليق بأن يأوى قدرا كبيرا من الكبرياء والترفع !٠٠ ولكن خاطره اتجه الى الشبان الصغار

الذين كانت مسز تشبستو ترى معهم ٠٠ أكان ذلك ممكنا حقا ؟
والتقت عيناها بعينيه ، فرأى فى وجهها تناقضا غامضا مع المعنى الذى يوحى به شكلها الخارجى ٠٠ أجل ، كان ذلك ممكنا حقا !٠٠ ومن عجب انه قبل أن يجد وقتا ليحدث نفسه بذلك ، ألفى أسارير مسز تشبستو قد تبدلت بغتة وأضحت أكثر انطباقا على المعانى السامية التى كان جسمها يوحى بها ! فقال فى نفسه : « يا لها من امرأة بارعة ! »
وفى حركة سريعة جلس فى مقعده ، منتصب الظهر ، يقظا ، دافق الحيوية ٠٠ وكان ضيقه قد تلاشى مع التعب الذى كابده فى عمله اليومى ، وبدأ الاهتمام يسرى فى عروقه ، اذ أدرك ان يومه لن ينتهى بسخف ممل ٠٠ ولم يكن الحدس الذى داخله ـ عندما جلس يتصفح مفكرة مواعيده فى الصباح ـ مجانبا للصواب فى التفكير ٠٠ وقال : « لقد جئت تستشيريننى فى ٠٠ ؟ » ٠ فقالت مسز تشبستو ، فى هدوء عجيب : « لست موقنة ان بى مرضا ! »
ـ نرجو أن يكون الأمر كذلك !
ـ أترانى أبدو مريضة ؟
ـ هل لك أن تستديرى قليلا نحو الضوء ؟
فلبثت ساكنة بلا حراك برهة ، ثم ضحكت وهى تقول : « لقد اعتدت ان أقول دائما ان المرء اذا جلس الى طبيب ـ بوصفه طبيبا ـ فلا ينبغى له قط ان ينظر اليه كرجل ! ولكن ٠٠٠ »
ـ أرجو ألا تفكرى فى شخصى كرجل !
ـ من سوء الحظ ان فيك شيئا يمنعنى البتة من ان اعتبرك مجرد آلة !٠٠ ولكن لا بأس !
وتحولت نحو الضوء ، وهى ترفع خمارها الشفاف وتميل نحوه ، ثم استطردت : « أترانى أبدو مريضة ؟ » ٠٠ فراح يحدق النظر اليها متفحصا فى امعان شديد لا يخلو من القسوة ٠٠ وبدا له وجهها ـ فى الضوء الساطع الذى كان يتدفق عليهما من النافذة الكبيرة التى جلسا الى جوارها ـ محتفظا بعناصر الجمال التى طالما تحدث الناس عنها وسمع العالم بها : كان وجه مسز تشبستو ـ كرأسها ـ صغيرا فاتنا ٠٠ ولم تكن ملامحها اغريقية خالصة ، ولكنها كانت تذكر المرء بكل ما هو اغريقى ، وبالمنظر الجانبى للتماثيل المرمرية التى ترى فى المتاحف الهادئة !٠٠ وان من الأشياء ما يثير مرآها فى القلوب ـ ذات الحساسية المرهفة ـ ذلك الحنين الغريب ، الذى يكاد يكون مؤلما ، نحو حياة سامية بكل ما فيها من جمال ومثالية فى العيش والحب وبلوغ الآمال٠٠ وما يثير ، فى أعماق النفس الخفية ، ذلك الخيال الذى يغفو أحيانا ولكنه يظل ـ فى الواقع ـ زاخرا بالحياة ٠٠ هكذا كانت مسز تشبستو !٠٠ فان استدارة وجهها ، والجبين المنخفض الذى لاح كأنما صنعته يد مثال بارع ، وذلك الشعر

المتماوج الذى كان يحيط به ـ ولو انه ، وا أسفاه ، شعر مصبوغ فى براعة واتقان ـ كل هذه المعالم كانت تنطوى على فتنة جارفة ، وترسل فى صمت دعواتها المثيرة وكأنها تهتف : « هل من مجيب ؟! »

كانت خطوط وجهها أشبه بقسمات ربة الغابة عند الاغريق ، عندما تنظر الى وجهها وقد ظللته غشاوة رقيقة من الخضرة فى غابة سحرية ٠٠ أو قسمات وجه حورية البحر وهى تسبح فى بحيرة خفية فى ضوء القمر الساطع ٠٠ مع فارق واحد ، فان ربة الاغريق لم تكن تصبغ شفتيها بهذا الطلاء القرمزى القانى !٠٠ وما كانت حورية البحر لترسم تحت عينيها الضاحكتين هذه الظلال الداكنـة ، أو تخط فوقهما الخطين الفنيين الرفيعين !٠٠ كما أن ذلك الـكلال الذى بدا حول هاتين الوجنتين وعند ركنى هذا الفم ، ما كان ليوحى بدنيـا مبكرة ، ولا بالحوريات والآلهة فى ربيع الخليقة ، وانما كان يوحى بحيـاة تثير الألم فى نفس رجل الأخـلاق ، وتبعث اليأس فى نفس عابد الأصـنام التقى !٠٠ كان يناقض المثالية فى وجه مسز تشبستو ـ بما يشبه التحدى ـ شىء ما فى كيانها ٠٠ شىء من العسير ان نعينه على وجه التحديد !٠٠ لعله كان فى تلك الغضون الخفيفة على جانبى عينيها الواسعتين ، الزرقاوين ، اللتين ما زال بريقهما يخطف الأبصار ٠٠ أو فى ذلك البروز الواضح فى عظام وجنتيها ٠٠ أو فى هذا الارتخاء الطفيف لشفتيها ، الذى ينم عن مزيج من العاطفة الجياشة والشراسة الكامنة ٠٠ كذلك كان فيها شىء ما ينم عن الصلابة !

وكانت النضرة قد فارقت وجهها ، ولكن ذلك لم يكن بسبب السن ٠٠ فكم من نسوة تقدمت بهن السن نحو الشيخوخة ، ولكن وجوههن ظلت ـ مع ذلك ـ تحتفظ بنضرة وجوه الفتيات ، يزينها ذلك السحر العطرى المنبعث من الحياة الطاهرة ٠٠ وما من شك فى ان مسز تشبستو لم تكن تبدو متقدمة فى السن ، ومع ذلك فانها كانت تبدو خلوا من الشباب ومن تلك الطلاوة التى زانتهـا يوما وهى عذراء !٠٠ لم تكن مسز تشبستو تبدو شابة ، أو عجـوزا ، أو نصفا ، على وجه التحديد ٠٠ ولكنها كانت امرأة سلكت الكثير من التجارب فى سلسلة حياتها ٠ ومع ذلك فقد كانت ـ فى بعض صورها ـ تثير التفكير ، بل الرغبة فى أشياء مثالية ٠٠ أشياء بعيدة غاية البعد عن كل ما هو خسيس ، أو قبيح ، أو حيوانى ، أو بشع !٠٠ وكانت لمحة الكبرياء أو الاعتزاز بالنفس ـ التى رآها الدكتـور ايزاكسون تولد على محياها كأنها الجواب على فـكرته السيئة عنها ! ـ ما برحت مرتسمة على ذلك الوجه الذى كان يستقبل الضوء ٠٠ وأدرك الطبيب ان فى تلك المرأة كثيرا من قوة الارادة ، وربما الكثير من الدهاء والمكر ٠٠ وانها فوق هذا وذاك ، أستاذة بارعة فى قراءة أفكار الرجال !

وبعد دقيقـة من الصمت ، انبعثت تقول : « حسـنا ٠٠ ما الذى انتهيت اليه ؟ » ٠٠ وكان صوتها على قدر عظيم من الجاذبية ٠٠ لم يكن ناعما رخيما ،

ولكنه كان ينطوى على رخاوة ملؤها الاغراء .. كان صوتا ينبىء عن مخلوقة تجمع بين الحرارة والتراخى .. مخلوقة قد تترك أشياء كثيرة للحظ والمصادفة ، ولكنها لا تلبث أن تنقض فى لحظة واحدة على ما تلقيه المصادفة فى طريقها ، فتمسك به فى قبضتها القوية وتظل متشبثة به طالما شاءت !

وأجاب الطبيب : « أرجو أن تحدثينى عن الأعراض التى تحسينها » . فقالت : « ولكن خبرنى أولا .. هل ترانى أبدو مريضة ؟ » .. وحدجته – اذ قالت ذلك – بنظرات ثابتة غريبة .. وما ان التقت عينا الطبيب بعينيها حتى ومضت فى ذهنه فكرة خاطفة كومضة البرق ، جعلته يتساءل فى أعماق نفسه : « ترى ماهو السبب الحقيقى الذى دفع هذه المرأة الى الحضور الى ؟ » .. فقد خيل اليه ان بوسعه ان يستشف دافعا خفيا كان يتوارى فى أغوار عقلها الذكى ، وان يلمح من هذا الدافع بارقا سريعا قبل أن يغوص ثانية فى أطواء الغموض الشامل .. ومن ثم راح يقول فى بطء : « ان بعضا من الامراض تترك طابعا لا يخطئه الفهم فى وجوه أولئك الذين يقاسونها »

– وهل تبينت واحدا منها فى وجهى ؟

– كلا ..

وتحركت قليلا ، كأنما تسوى نفسها فى وضع أكثر راحة لها فى مقعدها ، فسألها وهو يمد يده نحوها : « أتحبين ان أريحك من هذه المظلة ؟ »

– لا ، شكرا .. فانى أحب أن أظل ممسكة بها ..

– أخشى انك ينبغى أن تخبرينى بالأعراض التى تحسين بها !

– اننى أشعر بتوعك عام ..

– أهو توعك جسمانى ؟

فأجابت فيما يشبه الحدة : « ولم لا ؟ » .. ولكنها ما لبثت ان ابتسمت ، وكأنها ترثى لما بدر منها من حدة ، وأردفت تقول : « ليس بوسعى القول بأنى أعانى ألما جسمانيا محددا .. ولكن المرء مع ذلك يمكنه أن يحس بأنه ليس على ما يرام ! »

– لعل جهازك العصبى غير منتظم ؟

– أحسبك تستقبل كل يوم كثيرا من النساء الحمقاوات اللواتى يجأرن بالشكوى ، دون أن يكون بهن ظل من المرض ؟

– ما ينبغى ان تسألينى ان أنتقد مرضاى .. ثم ان النساء لسن وحدهن اللواتى يبلغن من الحمق هذا المبلغ !

وكان يفكر فى السير هنرى جريب والوصفة التى أشار عليه بها .. واستطرد قائلا : « يحسن ان أفحصك أولا ، وبعدئذ يمكننى أن أخبرك بالمزيد عن حالتك » .. وفيما كان يتكلم ، أحس كما لو كانت هى التى تفحصه ! وما حدث له قط من قبل ان أحس بهذا الشعور العجيب مع أحد مرضاه . وقالت المرأة:

« آه ، كلا ٠٠ لست أود ان تفحصنى ، فانى أعلم أن قلبى ورئتى وما الى ذلك كلها سليمة بما فيه الكفاية ! »

ـ مهما يكن من أمر فدعينى أتحسس نبضك ٠٠

ـ و ترى لسانى ؟٠٠ أليس كذلك ؟

واستضحكت ٠٠ ولكنها نزعت قفازها ومدت اليه يدها ، فوضع أصابعه فوق رسغها ، وراح ينظر الى ساعته ٠٠ كانت بشرتها رطبة ناعمة ، ونبضها يخفق فى قوة وانتظام ٠٠ وانبعثت منها خلال أصابعه ـ فى تلك اللمسة الرفيقة ـ رسالة تنبيء عن قوة العزيمة ، وضبط النفس ، والصلابة ، بل والميل الى القتال !٠٠ وكان وهو يتحسس نبضها قد ادرك ما فى طبيعتها من تحد للحياة ٠٠ وما لبث ان ترك يدها وهو يقول : « ان نبضك سليم تماما » ٠ وخيل اليه انه فى خلال تلك الفترة القصيرة ، التى لمس فيها جسمها ، قد علم الكثير عنها !

وهى ؟٠٠ ترى ماذا يكون مدى ما عرفته عنه ؟٠٠ وألفى نفسه يتساءل بطريقة لا تليق بطبيب ، اذ اندفع يقول : « مسز تشبستو ٠٠ شد ما أود أن تتفضلى فتخبرينى عما دفعك الى الحضور الى هنا اليوم ٠ اذا كنت لا تحسين بمرض ، فما حاجتك الى طبيب تضيعين وقتك معه ؟ اننى على يقين من انك لست بالمرأة التى تجرى بحثا وراء ما تملكه حقا ! »

ـ هل تعنى الصحة ؟ ولكننى فى الواقع لا أحس بنفسى كما اعتدت ان أكون من قبل ٠٠ لقد كنت فيما مضى امرأة شديدة القوة ، بل كنت من القوة بحيث كنت أشعر أننى بمنجاة من التعاسة ٠٠ التعاسة الحقة !٠٠ واحسب ان شوبنهاور كان على حق ، فان المرء فى عنفوان صحته يسمو فوق ما يدعونه بالخطوب ٠٠ ولقد لقيت كما تعلم الكثير منها !

فتساءل : « أحقا ؟ » ٠٠ وأجابت : «انك لتعلم ذلك ولابد!» ٠ فقال :«أجل»

ـ وما كنت فى الواقع أهتم لها أو أكترث بها كثيرا ٠٠ وحتى عندما أصبت بما أحسب ان بعض كرام الناس كانوا يدعونه « دمارى » ، أى ما جرى بعد طلاقى ، فاننى ظللت قادرة على الاستمتاع بالحياة وما فيها من مباهج ٠٠ من طعام وشراب ، وسياحة ، ورحلات على اليخوت ، وركوب الخيل ، وقيادة السيارات ، وغشيان المسارح ، والمقامرة ٠٠٠ كل هذه الأشياء وما اليها ٠ فالناس الذين يسيء المجتمع الحكم عليهم ، أو يرثى لحالهم ، غالبا ما يقضون اوقاتا سعيدة هانئة ، كما تعلم !

ـ اجل ٠٠ وبالمثل فان أولئك الذين يحسدهم المجتمع غالبا ما يكونون تعساء أشقياء !

ـ تماما ٠ ولكنى فى الآونة الأخيرة بدأت أحس بأننى ٠٠٠ حسنا ٠٠ بأن حالتى قد تغيرت

– من أية ناحية بالضبط ؟

– لقد انتابنى الشعور بأن صحتى لم تعد من القوة بحيث تقينى ما يمكن أن أدعوه بالسأم ..

فقال وقد بدأ يهتم : « نعم ؟! » . فأجابت مستطردة : « أو على الأصح الهبوط .. بل هى الكآبة فى الواقع ! .. والآن ، فانى لا أريد ، بل اننى – بكل بساطة – لن أكون ضحية لهذا الهبوط ، كما يحدث للكثير من النساء ! .. أليس فى وسعك أن تدرك كيف تعانى النساء – أى الكثيرات منهن – شر هذا الهبوط فى أعماق نفوسهن عندما يبدأن يدركن أنهن لن يبقين الى الأبد فى عنفوان الشباب ؟ »

– اننى أدرك ذلك تماما

– اننى لن أكون ضحية هذا الهبوط ، فانه يقضى على هيئة الانسان ويدمر قواه .. وأنا الآن فى الثامنة والثلاثين !

والتقت عيناها الزرقاوان الواسعتان بعينى الطبيب فى ثبات ، فتساءل : « نعم ؟ » . ولكنها لم تحفل بتساؤله ، بل استطردت : « وذلك لا يعد شيئا مذكورا فى انجلترا الآن .. ففى انجلترا ، اذا كانت المرأة فى صحة كاملة ، فانها تظل تبدو ساحرة جذابة حتى تبلغ الخمسين على الاقل ، وربما بعد ذلك .. ولكن ، لكى يبدو المرء شابا ، بينما العمر يتقدم به ، لا بد له من ان يحس بالشباب .. وأنا الآن لم أعد أشعر بالشباب ، كما انى على يقين من ان الشعور بالشباب يتوقف على صحة البدن .. ولا بد ان المتصوفين ، وأولئك الذين يؤمنون بالتناسخ ، أو الارتفاع الى السماء ، أو خلود الروح ، وكذلك أصحاب المثل العليا ... كل أولئك سوف يصيحون فى وجهى بأننى مخلوقة مادية وضيعة !.. ولكنك طبيب ، وتدرك سلطان البدن .. ألست على حق فيما أقول ؟.. أليس كل ما يشعر به المرء ينشأ عن خلايا جسمه ، أو كيفما شئت أن تسميها ؟.. أليس ذلك كله ترجيعا للحن الذى تردده ذرات الانسان ؟ »

– لا ريب ان حالة البدن تؤثر فى حالة العقل !

فهتفت : « تالله ما أشد حذرك ! » .. وتلاعبت على شفتيها القانيتين ابتسامة لا تخلو من الازدراء ، ثم استطردت : « والواقع انك ينبغى أن تكون على خلاف دائم مع القساوسة ، وعلماء الدين المسيحى ، وكل أولئك الهوائيين والذين يخدعون أنفسهم فيضعون الروح فوق المادة ، أو يزعمون ان الروح مستقلة عن المادة !.. ولقد كنت أقرأ أخيرا عن الأبحاث التى تجرى فى علم الطب النفسى بواسطة أجهزة التنفس وغيرها من الأجهزة الكهربائية الحديثة » .. وتوقفت بغتة كأنما تستدرك انسياقها فى الحديث ، ثم قالت : « ولكن هذا خارج عن الموضوع .. وقد بينت لك ما أعنيه ، وما أعتقده ،

وهو أن الصحة تتغلب على كل شيء تقريبا »

ــ يبدو أنك شديدة الاقتناع ، بل شديدة التعلق ، بمذهب المادية !

ــ وأنت ؟

ــ اننى أعتقد أنه لا يزال فى الانسان ــ رغم ما يكشف عنه العلم يوما بعد يوم ــ خفايا وأسرار بالغة العمق مستغلقة على الفهم ..

ــ وهل هذا يشمل النساء أيضا ؟

ــ يا الهى ! نعم بلا ريب . ولكن فلنعد الى حالتك ..

فنظرت الى ساعة يدها ، وهى تقول : « آه !.. ان عملك اليومى ينتهى فى ... »

ــ فى الساعة السادسة ، كقاعدة عامة

ــ لا ينبغى اذن أن أحجزك طويلا ، والحقيقة هى هــذه : اننى أفقد شيئا فشيئا الشعور بمتعة الحياة .. ولأننى أفقد استمتاعى بها ، فانى أفقد معها سيطرتى على الحياة .. لقد بدأت أشعر بالكلال ، والكآبة ، بل الخــوف والتوجس أحيانا !

ــ من أى شيء ؟

ــ أحسبنى أخشى من الكهولة ، والنهاية المحتومة لكل الأشياء الجميلة !

ــ وتريدين أن أصف لك شيئا يشفى هذه الكآبة ؟

ــ ولم لا ؟.. ولأى شيء وجد الطبيب اذن ؟! اننى ما زلت أقول لك اننى على يقين من ان هذه الأحاسيس عندى منشؤها حالة جسمانية !

ــ وهل تظنين ان من المحال ان تكون ناشئة عن حالة روحية ؟

ــ تماما .. فأنا أعتقد ان كل شيء سوف ينتهى فى اليوم الذى يموت المرء فيه .. وأنا واثقة من ذلك ثقتى بأننى امرأة !.. ومتى كانت هــذه عقيدتى ، فانى أرى من الأهمية القصوى ان أستمتع بأيامى طالما كنت فى هذه الدنيا !

قال : « هذا طبيعى » .. فأردفت : « والآن ، فان استمتاع المرأة بالحياة يتوقف على قوة نفوذها وسيطرتها على الآخرين ، كما ان هذه القوة تتوقف على اســتمرار ثقتها فى نفسها .. وطالمــا كانت تحس بصحتها كاملة ، فهى تشعر بأنها فى عنفوان الشباب .. وطالما كانت تحس بالشباب ، ففى وسعها أن توحى للآخرين بأنها ما زالت شــابة .. مع الاستعانة بقدر ضئيل من الفن ! وما دامت قادرة على الايحاء بهذا الشعور ــ وأنا أتكلم طبعا عن المرأة التى يمكن ان يقال عنها انها على درجة من الجاذبية ــ فهى بخير وعافية ، ومن ثم فسوف تزداد ثقتها بنفسها ، وتستمتع بأيامهــا !.. والآن يا دكتور ايزاكسون ، تذكر اننى أعتبر ان كل ما يقال من الأمور الشخصية لطبيب فى مثل مكانتك .. كل ما أخبرتك به اليوم .. سر لا يفشى ! »

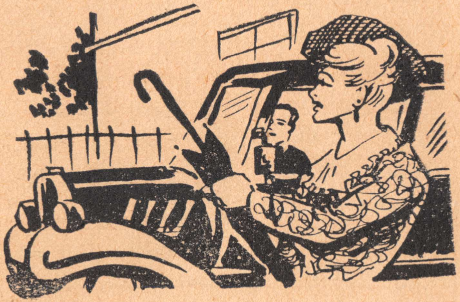
– لا ريب فى ذلك ..

– لقد شعرت أخيرا أن ثقتى بنفسى قد .. حسنا .. قد تزعزعت ! وانى أعزو ذلك الى بعض الخلل فى صحتى ، ولهذا جئت اليك اليوم ، وعليك أن تكتشف ما قد يكون فى حالتى الجسمانية من نقص ..

– حسنا جدا .. ولكن ينبغى ان تدعينى أفحصك ، كما ينبغى أن ألقى عليك بعض الأسئلة الطبية البحتة ، التى يجب أن تجيبى عليها فى صدق وصراحة ..

قالت : « على رسلك يا سيدى ! » .. ثم وضعت مظلتها على الأرض بجانبها واستطردت تقول : « اننى لا أومن بالمداورة .. مع طبيب ! »

الفصل الثالث



◆ **غادرت** مسز تشبستو منزل ميدان (كليفلاند) والساعة تدق السابعة ، فاستقلت احدى سيارات الأجرة ، التى سرعان ما اختفت بها وسط الدوامة التى تجتاح شارع (سان‌جيمس)، بينما صعد الدكتور ماير ايزاكسون الى حجرة نومه ليرتاح قليلا ويرتدى ثياب العشاء !.. وكانت ثيابه قد أعدت فى عناية ، فسمح لخادمه بالانصراف . وماكاد الرجل يمضى لشأنه حتى خلع الطبيب سترته وصديريه ، ونزع ياقته ورباطرقبته، ثم جلس فى مقعد ذى مسندين – بجانب النافذة المفتوحة –

وأسند رأسه الى وسادة صغيرة ، وأغمض عينيه ، ثم أطلق عضلاته كلها لتسترخى ٠٠ وكان يفعل ذلك زهاء عشر دقائق أو ربع ساعة ، فى مثل هذا الوقت أحيانا – وفى غيره أحيانا أخرى – من كل يوم ٠٠ وبينما تسترخى عضلاته على حريتها ، كان يترك عقله يسترخى هو الآخر ، فينبذ كل تفكير ، بجهد من قوة الارادة ٠ وكان كثيرا ما يفعل ذلك ، حتى أصبح يفعله عادة دون مشقة ٠٠ ومع أنه لم يكن ينام اثناء النهار قط ، الا انه كان يفيق من هذه الراحة منتعشا وكأنه قضى ساعتين نائما ! ٠٠ أما اليوم ، فمع أنه استطاع السيطرة على جسمه ، الا أن عقله كان عنيدا ، فلم يستطع أن يقصى عنه تلك الأفكار القلقة ٠٠ بل لقد خيل اليه – فى الواقع – انجميع حواسه قد تركزت فى هذا العقل ، بينما كان يجلس بلا حراك ، وقد بدا كالجثة الهامدة ، وامتدت ساقاه أمامه ، وتخاذلت ذراعاه وتدلى فكه ٠٠ **فقد كانت مريضته الأخيرة تصارع رغبته فى الراحة الكاملة ، وتتحدى ارادته ٠٠ ثم تقهرها !**

فقد قال لها ، بعد أن فرغ من فحصها ، ومن الأسئلة التى ألقاها عليها : «ليس بك من شىء ! » ٠٠ وهى عبارة عادية ، ولكنه أحس – وهو ينطق بها – بشىء يهتف فى قرارة نفسه : « يالك من كاذب ! » ٠٠ صحيح ان المرأة لم تكن تعانى أى مرض جسمانى ، ولكن قوله لها « ليس بك من شىء ! » ، كان بمثابة الادلاء لها بأكذوبة صارخة ٠ ومن ثم فانه سرعان ما اردف مفسرا : « مما يمكن للطبيب أن يعالجه ! »

وخيل اليه – فى استرخاءته تلك – ان بوسعه ان يتمثل وجهها كما بدا له للحظة وجيزة بعد ان قال ذلك ٠٠ كان شعرها البديع مصبوغا بلون عجيب ٠٠ فقد كان بطبيعته ذا لون خفيف الدكنة ، ولكن الصبغة أحالته الى لون باهت ، لا هو بالفضى ولا هو بالذهبى ، مما اضفى على وجهها شحوبا عجيبا لم يكن من الجمال فى شىء وان ادى الى ابراز ما كان لعينيها من تألق

وهاج وسط الظلال التى رسمت حولهما ، وتحت الحاجبين المخضوبين ٠٠ وكان الفضل فى هذا المظهر للفنان الذى أحسن اداء مهمته ! وبدا واضحا ان مسز تشبستو كانت تعول كثيرا على سحر هذا الشحوب الغريب ، الذى كاد ينم عن فقر فى الدم ، والذى كان يبرز العينين والشفتين والحاجبين حتى تجتذب الأنظار وتثير الانتباه وتستأثر به ٠٠ **فقد كان فى هذا الشحوب ، وفى هذا البياض الهادىء ، ما يحرك العواطف ويثير الشجن — فى نفس المتأمل الذى ينقصه الذكاء المتقد ! — وما يساعد على استكمال الأثر الذى يكون وجه المرأة الجميل قد بدأ يحدثه فى نفس المتأمل !**

وما كان أشبه ذلك الوجه بعلامة استفهام بديعة ، عندما فرغ الدكتور ماير ايزاكسون من كلامه ٠٠ وسرعان ما انفلت السؤال خلال الشفتين القرمزيتين : « ألا يوجد مطلقا نوع من التوعك الجسدى يوحى بمثل هذه الكآبة ؟٠٠ لعلك ترى اننى أتكلم عن حالة طبية ! » ٠٠ فأجاب : « كلا ، البتة ٠٠ بل انك غير مصابة بداء النقرس ، مع ان ثلاثة ارباع مرضاى — على الأقل — يشكون من هذا الداء الى حد ما ! » ٠٠ فقطبت مسز تشبستو حاجبيها ، وقالت : « اذن ، فبماذا تنصحنى ؟ ٠٠ أأذهب الى أحد القساوسة ؟ أم ترى من واجبى أن أذهب الى أحد الفلاسفة ؟ أم تنصح لى بزيارة معبد من معابد العلوم المسيحية ؟٠٠ لعلك ترى ان جرعة من « علم اللاهوت الحديث » قد تفيدنى كل الفائدة ؟ »٠٠ وكانت تتكلم فى تهكم وسخرية ، ومع ذلك فقد شعر الدكتور أيزاكسون بأنه يسمع صوتا بعيدا خافتا وراء هذا التهكم ، ينم عن يأس الشخص المادى الذى يرى — فى لحظات معينة — جميع مسارب الأمل مسدودة فى وجهه ، فى غير شفقة أو رحمة ٠٠ ومن ثم راح ينظر الى مسز تشبستو ، وفى عينيه بارق من الرثاء والاشفاق ، وهو يجيب : « وكيف لى ان أنصحك ؟ »

ـ نعم ٠٠ كيف يمكن لك ذلك حقا ؟٠٠ ومع هذا، وهنا موضع العجب ، فانك تبدو كما لو كنت تستطيع ذلك !

ـ اذا كنت حقيقة تؤمنين بالمادية ، وتنكرين وجود الخالق ٠٠

ـ انني كذلك تماما !

ـ حسنا ، فلن يجديك اذن ان أنصح لك بالذهاب الى أحد القساوسة أو زيارة أحد المعابد المسيحية !٠٠ كل ما أستطيع ان أقوله لك هو ان شكواك لا ترجع الى علة من علل البدن !

ـ أهي اذن من علل الروح ؟٠٠ هذا أمر مزعج ، فانني فى الواقع لا أومن بالروح ، وانما أومن أشد الايمان بالجسد !

ـ شد ما أعجب مما تعنينه تماما عندما تقولين انك لا تؤمنين بالروح ؟

ـ أعنى أننى لا أومن بأنه يوجد فى البشر شيء يمكن أن يعيش مالم يكن الجسد على قيد الحياة ٠٠ شيء لا يموت فى الوقت الذى يموت فيه الجسد ٠٠ وما من شك في وجود ذلك الشيء الذى نسميه «ملكة العقل» ، او الموهبة العقلية ٠٠ ذلك الشيء الذى يميل وينفر ، ويحب ويبغض ، وما الى ذلك ٠٠

ـ وهلا يمكن لهذا الشيء ان يحس بالانقباض من الكوارث؟!

ـ اننى لم أقل اننى لقيت شيئا من الكوارث !

ـ كذلك انا لم أقل شيئا من ذلك ٠٠ فلنضع الأمر بصيغة أخرى : ألا يمكن لهذا الشيء ان يحس بالانقباض ؟

ـ الى حد ما ، بلا شك !٠٠ ولكنك متى حفظت بدنك فى صحة كاملة ، فانك تغدو بلا ريب محصنا ضد الانقباض الشامل ٠٠ وأنا اعتقد انك محصن تماما !٠٠ ودعنى أقل لك فى صراحة يا دكتور ايزاكسون اننى لا أحسبك مصيبا ٠٠ فانى واثقة من أن شيئا فى جسمى ليس على ما يرام ٠٠ لا بد ان يكون هناك ضغط على جزء ما ، أو اضطراب خفى فى الأعصاب ٠٠ هناك بلا ريب خلل جوهرى فى جسمى !

ـ جربى طبيبا آخر !٠٠ جربى اخصائيا فى الأعصاب ،

أو منوما مغناطيسيا اذا شئت ٠٠ اذهبى الى «هينتون موريس» او «سكالينجر» أو «باول برنهام» ٠٠ أما أنا فأخشى ان أكون عاجزا عن معونتك !

فقالت : « هذا ما يبدو لى ! » ٠٠ ثم نهضت فى بطء ، وما زالت حركاتها متكاسلة متراخية ، ولكنها دواما مليئة بالفتنة والسحر المنبعثين من شخصيتها الفذة ٠ واستطردت تقول : « تذكر أننى حدثتك فى صراحة تامة بصفتك طبيبا »

– اننى أنسى كل ما أسمعه فى هذه الحجرة عندما أغادرها !

فتساءلت فى لهجة متراخية : « أحقا ؟! » ٠ فأجاب فى اقتضاب : « مهما يكن من أمر فاننى أنسى ان أتحدث عنه »٠٠ واذ ذاك قالت : « اذن ، فالى اللقاء ! »

★ ★ ★

◆ **وخلفته** وهو يحس احساسا مبهما بأنها تعانى ذلك القنوط الذى ينشأ عن الجشع ، والمادية الحادة التى لا يمكن أن تتصور – حتى فى العقل الباطن – وجود آمال أخرى غير الآمال المادية البحتة !٠٠ ولكن ، ما الذى يمكن لامرأة مثلها ان تتطلع اليه فى تلك الحقبة من حياتها ؟

ذلك ما شغل فكر الدكتور أيزاكسون بعد انصرافها ٠٠ وكان قد ظل مسترخيا فى مقعده بلا حراك ، بعد أن تخلى عن محاولة السيطرة على عقله ٠٠ لقد أدرك ان عقله لن يسترخى اليوم مع أطرافه وعضلاته ، ومن ثم لم يعد يشتهى تلك الراحة التى اعتادها ، وفضل عليها أن يمعن فى التفكير فى ٠٠ مسز تشبسنو !٠٠ لقد كان لهذه المرأة تأثير بالغ القوة فيه !٠٠ واخذ يستعيد ذكرى تلك النظرة التى لاحت فى عينيها عندما كانت تقول انها فى الثامنة والثلاثين من العمر ٠٠ لقد خيل اليه انها بتلك النظرة انما كانت تأمره بأن يصدقها ! ولكنه لم يصدقها ، مع انه لم تكن لديه أقل فكرة عما يمكن ان يكون

عمرها الحقيقى ٠٠ كان يعلم فقط أنهـا ليست فى الثامنة والثلاثين !٠٠ **وكم كانت شديدة الاصرار على ان لا تتألم ولا تحزن ، وعلى أن تمضى فى حياتها ــ تلك الحياة الوحيدة فى اعتقادها ! ــ خلوا من الهموم والكروب ٠٠ ومع ذلك فانها كانت تقاسى هذا الألم !** وكان بوسعه ان يحدس السبب ، فما كان ذلك عسيرا عليه ٠٠ انها الآن فى مفترق الطرق ، وقد ولت عنها أيام العز والبهجة ، وغاضت عنها سيول العيش الهنىء ، دون ان يكون لديها ما تتعلق به او تحتمى فيه ، وهى المرأة البارعة الأريبة !

ولكن لماذا كان يحسبها بارعة ذكية ؟٠٠ لقد سأل نفسه هذا السؤال ، لأنه لم يكن بالرجل الذى يشهد لامرىء بالبراعة اعتباطا ، فضلا عن ان مسز تشبستو لم تقل شيئا ينم عن ذكاء وقاد !٠٠ ولقد كانت فى اعتناقها للمادية قصيرة النظر ، ان لم تكن عمياء ٠٠ كما أنها قد لوثت حياتها وجعلت منها خليطا من المهانة والضعة !٠٠ ومع ذلك كله فقد كان يعلم علم اليقين انها امرأة بارعة ٠٠ ثم انها كانت صريحة معه غاية الصراحة ، فلماذا كانت صريحة الى هذا الحد ؟

وسأل نفسه عن ذلك اكثر من مرة ، بل ان عقله كان مليئا بالأسئلة فى ذلك اليوم ٠٠ وهى اسئلة لم يكن فى وسعه ان يجد لها جوابا للتو !٠٠ ولكنه كان يحس بأن مسز تشبستو كانت ، فى كل ماقالته له ، منساقة نحو هدف معين واضح المعالم ٠ **ولقد تركت فى نفسه أثرا بأنها امرأة ذات أهداف ، وذات مكر ودهاء ، فلم يستطع التخلص من اقتناعه بأنها حين سعت الى التعرف به ، انما كان يحركها سبب خفى دفين ٠٠ سبب لا علاقة له البتة بصحتها !٠٠ ولقد آمن بأنهـا كانت صادقة الرغبة فى معونته كطبيب ، ولكن ما من ريب فى ان ذلك لم يكن غرضها الوحيد من القدوم الى ميدان (كليفلاند)٠٠**

ودقت الساعة الموضوعة على المدفأة مؤذنة بانتهاء الوقت

المحدد لراحته ، فأغلق فمه دفعة واحدة ، وشد عضلاته فى قوة ، واندفع قائما عن مقعده · وبعد عشر دقائق كان يحظى بحمام بارد ·· وبعد نصف ساعة كان قد ارتدى ثياب العشاء، ومضى يهبط الدرج فى خطوات خفيفة سريعة شأن الرجل الذى يستمتع بصحة طيبة وروح مرحة وثابة ، وقد تلاشى عنه ذلك الانقباض العارض الذى ألم به اثر زيارة مريضته الأخيرة ، وغدا فى حال تتيح له الاستمتاع بسهرته ، بعد هذا العناء !

* * *

◆ **وكان** مدعوا الى العشاء فى (تشارلس ستريت) بميدان (بيركلى) ، على مائدة الليدى سومرسون ، وهى أرملة مضيافة على الدوام لأنها لم تكن تطيق الوحدة !! وكانت فى تلك الليلة قد أقامت مأدبة حافلة ، فلما دلف الدكتور أيزاكسون الى القاعة الكبيرة بالطابق الأرضى ، حيث كانت الليدى سومرسون تستقبل ضيوفها قبل العشاء ، وجدها ترتدى ثوبا أسود مشربا بالحمرة ، وقد رجلت شعرها الذى وخطه الشيب ، وراحت تدير الحديث بين جمع من الشخصيات المبرزة الهامة ، التى كان معظمها بعيد العهد ببواكير الشباب ·· ولكنها كانت من المكانة والجاه بحيث لم تعد تبالى بالعمر الذى بلغته · وكانت الليلة ليلة الأربعاء ، وقد اتخذ الحديث طابعا سياسيا ·· غير أنه كان بين الرجال اثنان من العسكريين ، وبين النساء حسناء معروفة ، قليلة الاكتراث بأحاديث السياسة ، شديدة الاهتمام بالحديث الطلى والثرثرة المسلية !·· وكانت تعد احدى ربات الجمال اللواتى يبسطن نفوذهن فى العاصمة ، بفضل ما جبلت عليه لندن من الوفاء الغريزى لحسانها — من ناحية — ولأنهن من ناحية أخرى يمتزن بسعة الأفق والميل الى المرح ، والبعد عن الغرور والادعاء ·· وكان اسم هذه الحسناء مسز درنجهام ، وعمرها نحو الثامنة والأربعين ·· ولم تكن تضع شيئا من الطلاء على وجهها ، ولا تحاول أن تبدو أصغر من حقيقتها ··

كما انها كانت ـ بنشاطها وحيويتها ، وخلوها من الغضون والتجاعيد ، وبعدها عن الزهو والغرور ـ لا تمنع أحدا أو تشجعه على التفكير فى حقيقة سنها ، وانما كانت تجذب الناس بجمال صورتها وخفة روحها وحبها للحياة واستعدادها للاستمتاع بالساعة الراهنة !

وكان الدكتور أيزاكسون يعرفها جيدا . واذ راح يهزيدها مصافحا ، سرح فكره الى مسز تشبستو ، ومذهب «المادية» الذى تعتنقه .. لقد كانت هذه المرأة ـ مسز درنجهام ـ تعرف على وجه التحقيق كيف تستمتع بأطيب مافى الحياة من أشياء ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحظى بما يصرفها عن الأنانية والأثرة .. كان لها زوجها وأطفالها ، وأتباعها ، وأعمال البر التى كانت تساهم فيها .. كانت قد غرست جذورا عميقة فى تربة الانسانية الخصبة التى تؤتى ثمارها !..

أما مثيلات مسز تشبستو ـ من النساء ـ فلا يغرسن أية جذور فى أية تربة !.. أفيكون غريبا بعد ذلك أن يتعرضن للأيام ـ والليالى ـ التى يسرى فيها الكلال الى أرواحهن ؟ وهل يكون غريبا بعد ذلك أن يسم هذا الكلال جمالهن بميسمه المدمر ؟!

وفتح الباب ليفسح الطريق أمام آخر المدعوين الى المأدبة .. وكان هذا المدعو رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، أبيض اللون ، ذا شعر أشقر قصير مفروق عند الوسط ، ورأس جميل التكوين ، وأنف مستقيم غير مدبب ، وذقن بارزة ولكنها لا تنم عن العناد ، وفم شديد الحساسية ، وعينين زرقاوين واسعتين تفيضان بالاخلاص والحماس ، يعلوهما حاجبان أشقران يبدوان دائما وكأنهما نسقا بالفرشاة لتوهما .. وكان يزين شفته العليا بشارب صغير كث .. كما كانت جبهته ووجنتاه تبدو وقد لوحتها الشمس بسمرة خفيفة . وكان فى السادسة والثلاثين ، ولكنه يبدو أصغر من ذلك بكثير ، بسبب بياضه الناصع .. أما جسمه فكان قوى العضلات ، منتصب

القوام ، معتدل الظهر ، نحيل الخصر .. وكانت يداه قويتين ، سمراوين ، كبيرتى الأصابع فى غير غلظة . أما وجهه فكانت تكسوه اشراقة خاصة من الاستقامة والبهاء ، تذكرالمرءبالأقاليم الشمالية وكل ما يمت الى الشمال بصلة : بريق النجوم فوق الثلوج ، وقمم الجبال الباردة وقد مسحتها رياح نقية طاهرة ، وشذى غابات الصنوبر العذب !.. كان الرجل - فى هيئته وتكوينه ومظهره - أشبه بأحد أبطال الأساطير الشماليين .. ولكن من المحقق انه كان بطلا من الشمال أقام فى الآونة الأخيرة فى بلاد الجنوب ، وارتاح الى اقامته فيها !

وما ان رأت الليدى سومرسون القادم الجديد حتى اندفعت نحوه تعاتبه على تأخيره ، ثم قدمته الى السيدة التى كان عليه ان يرافقها الى المائدة . وما لبثت ان اندفعت - كالمحمومة - فى نشاط ورشاقة تشير الى ضيوفها بأن يتقدموا الى قاعة المائدة التى فتح بابها فى تلك اللحظة ، اذ تولى خادمان نشيطان سحب المصراعين المنزلقين اللذين كانا يفصلان القاعة عن الحجرة التى استقبلت فيها السيدة ضيوفها . وغمغمت مسز درنجهام تقول لزميلها الدكتور أيزاكسون - وهما يتخذان مجلسيهما الى المائدة الطويلة : « ان مضيفتنا لا تستطيع اخفاء مشاعرها! من هذا الرجل الذى كانت تعنفه بهذه الحرارة ؟.. اننى أذكر وجهه تماما » .. فقال : « انه واحد من خيرة الرجال فى العالم! .. انه نيجل أرماين .. لم أره الا الليلة منذ أكتوبر الماضى ، اذ كان فى الخارج .. فى مصر ! » .. وفى تلك اللحظة التقت عيناه بعينى الرجل ذى البشرة الناصعة البياض ، فتعانقت نظراتهما فى ود وصداقة ، بينما قالت مسز درنجهام :

- اننى أذكره طبعا ، فهو يبدو كالفارس التائه .. وكذلك كان أبوه هارويتش المسكين! لقد اعتدت ان أمثل مع هارويتش فى أيام الشباب وعدم المبالاة المبكرة ، فى قصر برنهام ، ولكن المرء لا يرى نيجل الآن الا نادرا ، ولا أحسب انه كان يوما

من الأيام مولعا حقا بلندن ، ومباهج الحياة ٠٠ ولكن هارويتش كان على النقيض بلا ريب ، ومع ذلك فقد كانت تلوح فى وجهه لمحة من الشعور بالغربة والنفور من الدنيويات ! وقد اعتدت ان أقول ان له عينى قطيطة صغيرة ٠٠ يا للمسكين ! شد ما كان يثق فى النساء !

ـ وهلا تثقين أنت فى النساء ؟

ـ النساء كجنس ؟٠٠ كلا !٠٠ ولو اننى أثق فى القليلات منهن لأشخاصهن ٠٠ أما هارويتش فكان يثق فى النساء لأنهن نساء ، وهذا دائما خطأ جسيم ! كان يثق فيهن كما يثق الكاثوليكى المتدين فى القديسين ٠٠ وتا لله لقد لقى جزاءه على ذلك !

ـ هل تعنين بعد أن ماتت والدة نيجل ؟٠٠ أتقصدين تلك السيدة ٠ ترى ما اسمها ؟ مسز ٠٠ مسز الستروذر ؟

ـ نعم ٠٠ مسز الستروذر !٠٠ لقد كانت تعامل هارويتش معاملة شنيعة ٠٠ وما كانت لتتزوج منه قط ـ ولو كانت طليقة ـ لأنه كان يضايقها ٠٠ ولكنه كان يعبدها ، وقد ظل حتى النهاية يعتقد ان زوجها كان يسىء معاملتها ، وهذه فكرة سخيفة ، اذ ان « بول الستروذر » لم يكن يعد روحه أو ماله ملكا له دونها ٠٠ وهاهو ذا نيجل أرماين قد ورث نظرة أبيه للحياة ، فهو كذلك قد خلق عظيم الثقة بالنساء !

وتمهلت لحظة ، ثم أردفت تقول : « وما أسعد المرأة التى يوليها نيجل ثقته ! »

فقالت الليدى أوريان ـ وكانت تجلس الى جانب الطبيب من الناحية الأخرى ، وسمعت طرفا من الحديث : « حدثنى عن مستر ارماين هذا يا دكتور ايزاكسون ، فأنت تعلم اننى أقيم على الدوام فى منزلى الريفى ، فى (كونتى كلير) ، ومن ثم فأنا أشد جهلا بالعالم من زهرة البنفسج ! من هو على وجه التحديد ؟ »

– انه الأخ الأصغر لهارويتش ، والوريث التالى للقب ..

– ذلك اللورد هارويتش الواسع الثراء ، الذى ربحت جياده كثيرا فى حلبات السباق ، والذى تزوج من « زوى موليجان » .. تلك الأمريكية التى وفدت من شيكاغو ، منذ اكثر من عشر سنوات ؟

– نعم ، ولكنهما لم ينجبا أطفالا البتة .. كما أن هارويتش قد أفسد صحته ودمرها تدميرا بحيث أصبح نيجل موقنا من انه سوف يرثه ، ولكنى أحسب ان لديه ما يكفيه كشخص أعزب .. فقد تركت له والدته عند موتها ثروتها كلها ..

وتساءلت : « وماذا يفعل الآن ؟ » .. فقال الطبيب :« لقد كان فى الجيش ، ثم استقال من وظيفته عندما تسلم ممتلكاته » .. ومرة اخرى ، سألته الليدى اوريان : « ولماذا ؟ » ، فأجاب : « لكى يعنى بمزارعيه ، فان لديه آراء جليلة عن واجب المالك نحو مستأجرى ضياعه »

– آه ! ان لمزارعى أوريان آمالا مشرقة عن واجباته نحوهم!

– هذا شىء متعب ولا ريب ! وقد عاش أرماين فى الريف ، ومضى يقوم بسلسلة من التجارب فى كرم بالغ : أنشأ لمزارعيه بيوتا نموذجية ، وأقام ساحات للتدريب على الرماية ، وشيد لهم مكتبات وملاعب وحمامات للسباحة .. والواقع انه كان ينفق ماله ببذخ لا مثيل له !

– وهل أضناهم عرفان الجميل ؟!

– لم يبلغ شكرهم له هذا الحد !.. وقد أثارت بعض خطط أرماين ، لاسعاد الناس ، الكثير من المعارضة فى الواقع !.. وفى النهاية نشب خلاف جسيم على بعض حقوق المرور ، وكان المزارعون هم المخطئين ، فعافت نفس أرماين أفعالهم ، وبلغ به الالم من محاولتهم سلبه ما يملكه – وهو الذى أغدق عليهم خيراته – الى الحد الذى جعله يؤجر مزارعه فلا يذهب اليها بعد

ذلك البتة !

ـ هذه طبائع العامة من البشر ! انهم يتجاهلون المكتبات والنوادى التى تنشأ لهم فى القرى ، وترتفع عقائرهم بالصياح بما يزعمونه حقا فى تسلق الأسوار أو المرور فى طريق موحل ضيق يؤدى من لا شيء الى غير مكان معين !

ـ ولكنها رغبة الكواكب فى اضاءة أجنحة الفراش !

ـ أتشبه الانسانية بالكواكب ؟

ـ أحسب ان فيها ما فى هذه من البريق والاشتعال .. ألا تظنين ذلك ؟

ـ من المؤكد ان مستر أرماين يبدو على قدر كبير من هذه الصفة !.. فما أشد الحماس الذى يبدو فى نظراته !.. كيف يمكن أن يسيء الى مزارعيه ؟

ـ لعل ذلك راجع الى فرط حماسه ، وأمانيه العظيمة ، ومثاليته .. ولعله كان يحير مزارعيه بفعاله ، وينشد فيهم الكمال والوفاء بالشكل الذى يصوره له خياله !.. كما ان له آراء عظيمة عن الاستقامة والنزاهة ، وحقوق الأفراد ، وأشياء اخرى كثيرة قلما تشغل بال الرجل العادى

فقالت مسز درنجهام : « لا تقل لى انه انقلب مخادعا لئيما بعد ذلك .. فان الخداع دليل على سوء المنبت ، وقد كانت أسرة هارويتش على الدوام من أرفع الأسر النبيلة »

ـ لست أعتقد أن الخداع كان من صفات أرماين .. ولكنى أعلم انه رجل يعيش فى خيال مثله العليا : فهو يعتبر صور «وات» الرمزية أعظم شيء انتج فى عالم الفن منذ ان خلد «بوتتشيللى» الطهر بريشته !.. وفى الموسيقى الحديثة نجده لا يفضل أحدا بعد «الجار» ..وفى الأدب الحديث«تولستوى».

فهو يحب أصحاب المثل العليا ، حتى ولو كانت هذه المثل تختلف عن مثله هو !.. ولست اقول انه فنان ، فالواقع انه ليس كذلك ، وليس شعاره «الفن من أجل الفن» وانما هو

« الفن من أجل الانسان »

– انه انسانى النزعة اذن ؟

– ومؤمن عظيم الايمان !

– بالانسان ؟

– بالخير الذى يوجد فى الانسان !٠٠ وغالبا ما يخطر لى انه فى أعماق عقله أو قلبه يعتقد ان الايمان بشىء يخلق هذا الشىء خلقا !

وهنا تساءلت السيدة : « هل تعنى بذلك انك اذا ما آمنت بصدق انسان جعلت منه رجلا صادقا ؟ » ٠٠ فأجاب : «نعم »

وهتفت الليدى اوريان : «اواه يادكتور ايزاكسون ، شد ما أود ان تقدم مستر أرماين الى زوجى ، وتجعله يؤمن بأن زوجى رجل شحيح وليس مبذرا سفيها !٠٠ انه بذلك يرحم الأسرة رحمة واسعة ، ويجعل من المحتمل ان نستطيع فك الرهن الذى يكاد القصر أن يذهب بسببه ! » ٠٠ وهكذا تحول الحديث الى ناحية فكهة ، وانتهى بين ضحكات رنانة ٠٠ ولكن مسز درنجهام لم تلبث ان عادت الى الحديث عن نيجل أرماين قبيل انتهاء العشاء ، فسألت : « وما الذى يفعله مستر أرماين الآن ؟ »

– لقد ذهب الى مصر بعد ان أجر مزارعه ، واشترى أرضا هناك ، فى الفيوم على ما أظن ، حيث يقضى شطرا كبيرا من الوقت ٠٠ وأظنه يقوم بتجارب واسعة النطاق فى الزراعة

– وهل تراه يؤمن بصدق المكارى العادى ونزاهته ؟

– لا علم لى بذلك ٠٠ ولكن ينبغى أن أقول اننى سمعته يشيد بمزايا الأعراب !

* * *

• **وفى** تلك اللحظة نهضت الليدى سومرسون عن مقعدها بغتة – على طريقتها السريعة المعهودة – وما هى الا هنيهة حتى

كان الرجال وحدهم هم الجلوس الى المائدة ٠٠ وماكاد المصراعان المتحركان يغلقان وراء ظهر الليدى سومرسون النشيطة ، حتى تحرك الرجال فى مقاعدهم ، وهم يهمون بتنظيم صفوفهم ٠٠ وعندئذ نهض نيجل ارماين من مقعده عند الطرف الأقصى للمائدة الطويلة ، ومضى قدما نحو ماير أيزاكسون ، وصافحه فى حرارة وهو يقول : « شد ما يسرنى أن ألقاك ثانية يا أيزاكسون ! » ٠٠ فشد الطبيب على يد صديقه فى قوة

وما لبثا ان جلسا جنبا الى جنب ، على حين مضى سائر الرجال يتحدثون وقد أشعلوا لفائفهم ٠٠ وقال الطبيب متسائلا : « هل عدت من الخارج للتو ؟ » ٠٠ فأجاب ارماين : « لقد عدت منذ أسبوع » ٠ فقال الطبيب معاتبا : « كل هذه المدة ؟ وأين تقيم ؟ » ٠ وكان الجواب : « فى فندق سافوى » ، فهتف الطبيب : « فى سافوى ؟» ٠٠ واذ ذاك قال صاحبه متسائلا : « وهل يدهشك هذا ؟ »

واستقرت عينا الطبيب البراقتان على أرماين فى نظرات تفيض بالحب والعجب معا ، ثم قال : « ان أى فندق فاخر يعد مكانا غير ملائم لك ! فأنا أستطيع أن أراك على ثلوج الألب ، أو فى مستنقعات أراضيك فى اتشنجهام ، بل حتى فى ٠٠ ما اسم ذلك المكان ؟ » ٠٠ فقال ارماين : «سنورس !» ٠٠ واذ ذاك استطرد الطبيب : « أما سافوى ، وريتز ، وكارلتون ، فلا !٠٠ ان هذه التفاهات المموهة بالذهب ليست بالاطارالذى يناسبك البتة ! » ٠٠ فقال ارماين : « بل اننى جد سعيد فى سافوى !»

وفيما كان يقول ذلك ، تحولت نظراته بعيدا عن ماير ايزاكسون ــ عبر المائدة ــ الى الجدار المقابل له ، حيث علقت نسخة كبيرة من صورة «وات» المعروفة باسم «التقدم» ، فراح يتفرس فيها وقد سرى فى وجهه هدوء غريب ، وكأنه نسى ــ للحظة ــ المكان الذى كان يوجد فيه ، والناس المحيطين به !

.. وكان ماير أيزاكسون يرقبه فى اهتمام ، وكأنه ركز حواسه جميعا عليه .. لقد كان يوجد فى هذا الرجل شيء ما – بل لقد كان فيه دائما شيء ما – يثير في الطبيب شعورا من الحنان نحوه والاعجاب به ، ممتزجين بالرثاء له ، بل وبالخوف الغامض مما قد يصيبه !.. وكثيرا ما فكر الطبيب فى انالنفس التي اوتيت مثل هذه الطبيعة لا بد وأن يقدر عليها أن تقاسى الألم فى عالم ، اذا كان يضم حقا بعض الذين يعتزون بالمثل العليا ويكدحون فى سبيل الرقى ، فانه ينطوى على غالبية تدين بالشره والنهم الى اشباع شهوات الجسد ، وقلما تصغى الى ذلك النداء الخافت الذى ينبعث من الالهامات البعيدة التى تتحدث أحيانا – مهما يبلغ صوتها من الخفوت – الى اهلالأرض جميعا !.. وأخيرا تنهد أرماين وقال :

– ما أبهى هذه التحفة الفنية !.. أتعرف الصورة الأصلية؟

– لقد رأيتها يوما ما فى متحف كومبتون

– التقدم .. الارتقاء .. المضى قدما الى الامام ، وعلىالدوام، بقوة لا تقاوم ، سواء أكنت ترى هذا التقدم وتحسه ، أم لا ! .. ياله من شيء جليل مجيد !

– أما زلت متفائلا دواما ؟

– اننى أومن بانتصار الخير ، وكلما مضى يوم ازددت ايمانا بذلك .. بانتصار الخير فى العالم وفى الفرد على السواء ! كذلك كلما ازداد عدد المؤمنين – المؤمنين الصادقى الايمان – بهذا الانتصار ، ازداد اليقين فى بلوغ هذه الغاية ، بخطى ثابتة الأقدام ، وفى يسر وسهولة ! ان فى وسعك أن تساهم فى ذلك يا أيزاكسون !

– بالايمان ؟!

– نعم .. هذا هو طريق مساهمتك فى انتصار الخير . ولكن يا الهى !.. ما أقل الناس الذين يسلكون هذا الطريق !.. ان الشك والريبة من أكبر العوامل المدمرة فى العالم ! انك اذا

ارتبت في رجل ، فانما تكاد بذلك ترغمه على تحقيق ريبتك ٠٠ واذا شككت في امرأة ، فانما تدفعها بذلك دفعة قوية نحـو الخداع والمخاتلة ٠٠ ولشد ما أمقت أن أسمع الرجال يقولون انهم لا يثقون فى النساء !

ـ ان النساء يقلن ذلك أيضا !

ـ انها خيانة الجنس !٠٠ أمر يستحق الازدراء والاحتقار ! ٠٠ ان اللواتي يقلن ذلك خائنات لمعسكرهن !

فتساءل الطبيب : « انك تقدر المصادفة ٠٠ أليس كذلك ؟» ٠٠ فأجاب ارماين : « فوق كل شيء ! »

ـ هب ان بعض النساء لا يثقن بنساء أخريات ، بحق وعن يقين ، فهل تريد منهن ان يزعمن العكس ؟

ـ بوسعهن أن يصمتن ، وان يحاولن كبت هذا الشعور التافه المدمر !

وظل برهة لا يقول شيئا ، ثم نظر الى ماير ايزاكسـون واستطرد قائلا : « هل تنوى الذهاب الى مكان ما بعد ان تخرج من هنا ؟ » ٠٠ فأجاب الطبيب : « لقد قبلت تذكرة فى مسرح شزهام ٠٠ لماذا ؟ » ٠ فتساءل صاحبه : « وهل لا بد من ذهابك الى هناك ؟ » ٠٠ واذ أجاب ماير قائلا : «كلا» ، قال ارماين : « اذن تعال نتناول العشاء معا فى سافوى » ٠٠فهتف الطبيب فى لطف : « العشاء ؟ ٠٠ يا عزيزى أرماين : انك تعلم اننا معشر الأطباء ننصح مرضانا ـ فى هذه الأيام ـ ونعظهم بحق ، بالاقلال من الطعام والشراب ٠٠ وأنا لا أستطيع ان أتناول أى طعام حتى الصباح ، بعد أن أعود من نزهتى على ظهر جوادى »

ـ ولكنك تستطيع الجلوس الى مائدة للعشاء فيما أظن ؟

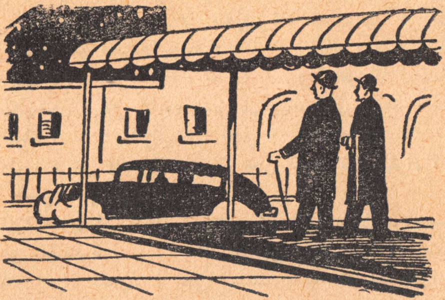
ـ آه ، نعم !٠٠ بوسعى أن أفعل ذلك !

ـ تعال واجلس الى مائدتى اذن ٠٠ لنخرج من هنا معا

ـ بكل تأكيد

ـ وسوف ترى ان كان (سافوى) يعد مكانا غير ملائم لى !

الفصل الرابع



* كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة الا ربعا من تلك الليلة ، عندما هبط ماير ايزاكسون ونيجل أرماين الدرج المغطى بالسجاد حتى حافة الطريق، أمام باب قصر الليدى سومرسون ، واستقلا سيارة الطبيب الخفيفة ٠٠ وما ان بدات المسير ، فى غير ضجة أو جلبة ، حتى قال الطبيب : « رأيتك تتبادل حديثا طويلا مع مسز درنجهام فى قاعة الاستقبال ! » ٠٠ فأجاب أرماين فى اقتضاب : « أجل » ٠ ثم أخلد الى الصمت ، وقد اضطجع الى الوراء فى الركن الذى كان يشغله ٠٠ وبعد برهة استطرد الطبيب يقول : « اننى أميل اليها »٠ فتساءل صاحبه : « أحقا ؟ » ٠ فقال ماير : « ما اظنك تحبها ؟! » ٠٠ وهنا تساءل أرماين : « ما الذى يدعوك الى هذا القول ؟٠٠ لماذا تقوله ؟ » ٠فاجاب: « لأننى أشعر به ٠٠ وقد استنتجته من لهجتك عندما قلت : « أجل ! »

فمال أرماين الى الأمام قليلا وهو يتساءل : « ألا ترى أنها امرأة تحب أن تغتاب الناس وتذكرهم بالسوء ؟ » ٠٠ فهتف الطبيب : « مسز درنجهام ؟ ٠٠ اننى بالتأكيد لا أراها كذلك » ٠٠ ولكن صاحبه قال : « بل انها واحدة من اللائى يكفرن بالنساء ، واللائى كنت تتحدث عنهن بعد العشاء ٠٠واحدة من الخائنات لمعسكر النساء ! اننى اعجب لماذا لا تتحد النساء ويقفن صفا واحدا ؟ » ٠٠ فقال الطبيب : « انهن يفعلن ذلك احيانا » ٠٠ فعقب أرماين قائلا : « نعم ٠٠ انهن يفعلن ذلك عندما يردن ان ينهشن سمعة احداهن ! انهن يتحدن سويا كلما كان لديهن عمل من اعمال الهدم والتدمير ! ولكن هل يتحدن حقا عندما يكون هناك عمل من اعمال الانشاء والتعمير ؟ » ٠ فتساءل

الطبيب : « هل تعنى عندما يراد الاشادة بسمعة أحد الناس ؟ »
وراح أرماين يعبث بشاربه ٠٠ وكان فى وسع ماير ايزاكسون ان يرى عينيه تتألقان فى انفعال ، فى ضوء العربة الخافت ، فما لبث ان استطرديقول: « اذا كنت تعنى ذلك ، فانى أميل الى القول بأنه يجب على كل منا ان يشيد سمعته بنفسه وبمفرده او بنفسها وبمفردها » ٠٠ فقال ارماين : « ولكننا فى حاجة الى المعونة فى كل ما نريد بناءه تقريبا ٠٠ وما أقل ما نحصل عليها ! » ٠٠ وهنا سأله الطبيب : « هل كانت مسز درنجهام تنال بصفة خاصة من امرأة معينة فى هذه الليلة ؟ » ٠٠ فأجاب : « أجل ٠٠ لقد فعلت ذلك ! » ٠٠ وعاد ايزاكسون يتساءل : « هل لك ان تخبرنى عمن تكون تلك المراة ؟ » ٠٠ وكان الجواب : « انها مسز تشبستو ! »
وعندئذ قال ايزاكسون فى تمهل : « هل كنتما تتحدثان عن مسز تشبستو؟ ٠٠ مسز تشبستو الشهيرة ؟ » ٠٠ فقال ارماين : «شهيرة ؟! لست اقرك على ان مسز تشبستو امرأة شهيرة ! فهى ليست كاتبة أو مطربة أو رسامة أو ممثلة ٠٠ وهى لا تعمل شيئا مما يجوز ان أسمع به ، ومن ثم فلا يمكن أن أصف مثل هذه المرأة بالشهيرة ! وقد أجرؤ على القول بأن اسمها معروف لعدد من الناس ، ولكننا فى زمن الثرثرة ، ولا ريب فى ان ٠٠٠ »
ولم يتم عبارته ٠ ففى تلك اللحظة كانت السيارة تدرج على الرصيف المغطى بالمطاط أمام فندق سافوى وتقف أمام المدخل ٠٠ وفيما كان ماير ايزاكسون يهبط منها ويدلف الى بهو الفندق ، تذكر فجأة ان الخطاب الذى بعثت به اليه مسز تشبستو ـ تسأله موعدا لاستشارته ـ كان يحمل اسم « فندق سافوى » ٠٠ اذن ، فقد كانت تقيم فى الفندق حين ارسلته ٠٠ أتراها لا تزال مقيمة فيه للآن ؟٠٠ انه لم يسمع نيجل أرماين يتحدث عنها قط ، ولكن تلك اللمحة من الغريزة النسوية ـ التى كانت فى أعماقه ـ سرعان ما ربطت بين كلمات أرماين « بل اننى جد سعيد فى ســـافوى ! » ودعوته اياه لتناول العشاء هناك ، وبين ذلك الحـديث عن « مسز تشبستو » الذى رواه له صديقه منذ لحظات ! لقـد كان أرماين يعرف مسز تشبستو اذن ! وسـوف يقابلانها الليلة فى مطعم الفنـدق ٠٠ فقد شعر ماير ايزاكسون بأنه كان واثقا من ذلك كل الثقة !

★ ★ ★

◆ وتركا معطفيهما فى حجرة الثياب ، ومضيا يشقان طريقهما نحو المطعم، الذى كاد ـ اذ ذاك ـ ان يكون خاليا ٠ وتقدم رئيس الخدم نحو ارماين وهو ينحنى مبتسما ، ثم قادهما نحو مائدة فى أحد الأركان ٠ ورأى ماير ايزاكسون ان المائدة معدة لشخصين ، فاستبدت به الدهشة ، ولـكنه لم يقل شيئا ٠

وجلس مع زميـلـه ٠٠ ثم قال : « اننى لا أستطيع حقا ان أتناول العشـاء يا ارماين ٠٠ فلا تطلب لى طعاما ! » ٠٠ فقال صديقه : « خذ على الأقل قليلا من الحساء وكأسا من الشمبانيا » ٠٠ ومضى ـ دون ان ينتظر جوابا ـ يملى أوامره على الخادم ٠٠ ثم قال : « لقد كان بوسعنا ان نجلس فى البهو ، ولكن المكان هنا أكثر تسلية ٠٠ وتذكر اننى لم أحضر الى لندن ـ ولم اشهد المجتمع اللندنى ـ منذ أكثر من ثمانية شهور ٠٠ ولا بد ان يلتقى المرء بأصـدقائه ومعارفه القدامى فى مثل هذه الأماكن »

وفتح ماير ايزاكسون فمه ليقول ان بوسع ارماين ان يجد فرصـة أفسح مدى للالتقاء بأصدقائه خلال الموسم ، اذا هو ارتاد الحفلات التى تقام فى المنازل الخاصة ٠٠ فقد بدأ اهل أمريكا يتدفقون على العاصمة الانجليزية ، مختلطين بأهل الريف الانجليزى الذين يقدمون لقضاء أيام قليلة ، وبفيض من ممثلى أمم الارض جميعا ٠٠ ولكنه لم ير فى هـذا الخليط من الناس احـدا يعرفه ، كما ان ارماين لم يعرف أحدا من الموجودين كذلك ، ومن ثم فقد أغلق شفتيه دون أن يقول شيئا ٠ وأيقن أن لارماين غرضا معينا من الحضور الى « سافوى » فى تلك الليلة ، ومن احضاره معه ٠٠ ولأمر ما كان صـديقه يحاول اخفاء هذا الغرض ، ولكنه لن يلبث أن يتكشف له سريعا ، وما عليه الا أن ينتظر دقائق معدودات فيعرف حقيقة ذلك تماما !

وأحضر أحد السقاة الحساء والشمبانيا ، فقال الطبيب : « لو ان واحدا من مرضاى الذين احرم عليهم تناول العشاء رآنى الآن ٠٠ ولو كان بوسعهم ان يتكهنوا باننى قادم للتو من مأدبة عشـاء طويلة !٠٠ اننى يا ارماين أقـدم تضحية ثقيلة على مذبح الصداقة ! » ٠٠ فقال صديقه : « ولكنك لم تر أحدا من مرضاك فيما أرجو ؟ » ٠ فأجاب الطبيب : « كلا ٠٠ لم أر منهم أحدا بعد!»

وفى هذه اللحظة ، بل قبل ان تفارق الكلمات شفتيه ، رأى مسز تشبستو على بعد قليل منهما ، وهى تدلف الى قاعة الطعام قادمة من ناحية الباب ٠٠ وتطلع ليرى رفيقها ، ولكنه تبين لدهشته أن أحدا لم يكن يتبعها ٠٠ وسارت تجتاز القاعة منتصبة القامة ، دون ان تتلفت يمنة أو يسرة ، يتقدمها رئيس الخدم ٠ ومرت بالقرب من ارماين والطبيب ، حتى بلغت مائدة صغيرة أقيمت فى زاوية بجوار الحاجز ، غير بعيدة عنهما ، فجلست وقد أولتهما جانبا من وجهها ٠٠ وما لبثت ان قالت بضع كلمات لرئيس الخدم ، فأصدر أوامره لأحد السقاة ، ثم انصرف مهرولا ، بينما جلست مسز تشبستو ساكنة فى مقعدها لا تحير حراكا ، وقد غضت بصرها ، ووضعت مروحتها المصنوعة من الوشى المطرز الى جانب السكاكين والأكواب التى انعكست عليها الأنوار الكهربائية ، ثم أراحت يدها فوقها فى خفة ٠ وكانت تلبس ثوبا أسود اللون ، وترتدى قفـازين

ناصعى البياض ، بينما وضعت فى شعرها الباهت المصبوغ مشطا مرصعا بفصوص من الماس

ومن حيث جلس الصديقان ، كان وجههــا ذو الشحوب العجيب ـ حتى كأنه قد خلا من اللون ـ يبدو رقيقا طاهرا الى حد غير مالوف ٠٠ وكان ثمة شيء يثير الاشـفاق ويحرك الشجن فى ذلك البياض النـاصع ، وفى السكينة الشاملة التى أحاطت بهذه المرأة وهى تجلس وحدها دون رفيق أو أنيس ٠٠ وكان كثير من الناس يتفرسون فيها ، ويتهامسون عنها ، وقد بدت الدهشة على أساريرهم حين رأوها وحيدة ! على انها كانت تبدو غافلة تماما عن انها موضع اهتمامهم ٠٠ وكان فى « تغافلها » هــذا بساطة عجيبة ، كتلك التى كانت تشيع فى مظهرها كله ، فتجعلها تبدو من قرب كأنها فتاة صغيرة !

وقال رجل ـ كان يجلس الى المائدة المجاورة لمائدة ارماين ـ لرفيق له عملاق متورد الوجه من رجال المال : « ها هى ذى مسز تشبستو ! يا الهى ! انهـا وحيدة ليس معها أحد البتة ! » ، فأجابه الآخر : « أحسب أنها لم تستطع ان تلتقط حتى طالبا من كلية ساندهيرست الليلة ! وشد ما أعجب لماذا تاتى على الاطلاق ما دامت لم تتمكن من جذب رفيق لها ٠٠ ألا ما أشد صفاقتها !» ٠٠ ثم خفضا من صوتيهما وقد مال كل منهما على الآخر ، فرفع ارماين كأس الشمبانيا الذى كان أمامه الى فمه ، وأخذ يرشف منه ، ثم وضعه ثانية ،وقال للطبيب : « اذا رأيت أيا من مرضاك فقل انها غلطتى ، وسوف أحمل اللوم عنك ٠٠ ولكن من المحقق انك لست مضطرا الى اتباع جميع وصفاتك ! » ٠٠ وكان صوته أجوف ، وفيه شرود ، كما لو كان يتكلم لمجرد تغطية ما ألم به من انفعال صمم على اخفائه ٠ وأجاب الطبيب : « كلا ٠٠ ولكن ينبغى أن أكون مثالا للعيش المعقول فيما أعتقد »

وأخذا يتكلمان بضع دقائق عن الصحة ، فى عبارات شبه رسمية وتكلف عجيب ، شأن الناس اذا شعروا بأن هناك من ينصت اليهم ويترقب مايقولون ، أو شأن الناس الذين يحسون انهم يصغون الى أنفسهم !٠٠ وفى مرة أو اثنتين كان الدكتور أيزاكسون يختلس النظر الى مسز تشبستو ، التى كانت تتناول طعامها فى بطء وفتور دون ان ترفع عينيها ٠٠ وكان يبدو أنها لم تره ولم تر أرماين ، بل الحق أنها كانت تبدو وكأنها لم تكن ترى أحدا قط ٠٠ كانت غافلة عن كل مايحيط بها !٠٠ ووجد الطبيب نفسه وقد احس بالاشفاق عليها والرثاء لحالها ، ومالبث ان راح ينكر هذا الشعور ، وينكر انها تستحق اى عطف أو رثاء ! وكان يشاطر الكثيرين غيره عجبهم من انفرادها ووحدتها ، فهى اذ تتناول العشاء وحدها فى مكان عام ، انما تعلن عن فشلها فى الحياة التى اختارتها لنفسها ، وعن هجران الرجال لها ٠٠ فلماذا تفعل ذلك ؟ لم يكن وقتئذ قادرا على ان يحدس السبب ، ولو انه ادركه فيما بعد ٠٠ وكتم دهشته

فلم يبدها لرفيقه ، وقد توقع فى بادىء الأمر ان يلحق بها شخص ما قد تأخر قليلا .. ولكن أحدا لم يأت !

★ ★ ★

◆ ووهن الحديث بين أرماين وبين الطبيب .. وما لبث الأول ان قال : « بودى ان أقدمك الى أحد الناس الليلة » .. فهتف الطبيب : « ماذا ؟ ترى من يكون ؟ » . وكان يلقى على صديقه هذا السؤال ، وهو يعلم الجواب حق العلم .. وقد أجاب الصديق بالفعل : « مسز تشبستو » ، فكاد الطبيب ان يخبره بأنه كان يعرفها حقا ، لولا أن استطرد ارماين قائلا : « لقدكنتأتكلممعها عنك ، فأخبرتنى بأنهالمتقابلك قط » ،فصاح متسائلا:«ومتى كان ذلك ؟ » .. وكان الجواب : « منذ أربعة أيام .. عندما قدمت اليها وتحدثت معها للمرة الأولى !»

ولم ينبس الطبيب بحرف زهاء دقيقة ، ثم قال : « لكم يسرنى ان تقدمنى اليها » .. ومع انه كان يتوخى الصدق مع أصدقائه الى أبعد الحدود ، الا انه كان على الدوام كتوما فى كل ما يتعلق بمهنته .. ولم يكن يدرى ما اذا كانت مسز تشبستو تود ان يجعل استشارتها اياه فى أمر صحتها موضوعا للحديث ، ولذلك لم يذكر شيئا عنها .. ومادام ارماين كان يعلم – منذ أربعة أيام فقط – انه ومسز تشبستو غريبان لا يعرف أحدهما الآخر ، فقد اضطر الطبيب الى اغفالذكرهذه الزيارة، تاركاصديقه تحت تأثير الاعتقاد بأنهما مازالاغريبين !
ومضى ارماين قائلا : « انها تقيم فى هذا الفندق ، وهى جالسة هنا الآن .. ولكنك ولا ريب تعرفها بمجرد النظر ؟ » .. فأجاب : « آه ! نعم ! لقد رأيتها مرارا » .. وعاد صديقه يقول : « أحسبك ستميل اليها ، اذا انت استطعت أن تنقى ذهنك من أى تحامل سابق ضدها » .. فتساءل : « ولماذا تحسبنى أتحامل على مسز تشبستو ؟ » .. فأجاب ارماين : « هذا شأن الناس الآن .. مامن أحد يقول عنها كلمة طيبة ، وانما يستوى النساء والرجالفىذكرهابالسوء!»
ومن نبرات صوت أرماين ، تبين ماير ايزاكسون ان هذه الحقيقة قد جعلت ارماين نفسه متحاملا على الناس من أجل مسز تشبستو .. فهناك رجاليولدون للدفاع عن القضايا الخاسرة ، ويميلون بغريزتهم نحو أولئك الذين يتحول عنهم الآخرون ، مدفوعين الى ذلك بشهامة خفية تعمى بصائرهم ، أو بعاطفة من الشفقة الانسانية تسيطر على قلوبهم وتلقى ظلا على بريق ملكاتهم العقلية .. وكان «نيجل ارماين» من هؤلاء الرجال ، كما كان ماير ايزاكسون يعلم عنه ذلك .. ومن ثم لم تستبد به الدهشة وهو يصغى الى أرماين وقد تابع حديثه : « انهم لا يرون من الأمور سوى ظاهرها ، فيحكمون بما يرون .. وأحسب انه

ينبغي للمرء الا يسيء الظن بهم ، ولكن من العسير احيانا الا يسيء المرء الظن بالقسوة نفسها ، وخاصة عندما تكون القسوة موجهة ضد احدى النساء ٠٠ وفي هذه الليلة بالذات راحت مسز درنجهام – وأنت تقول انها من فضليات النساء ٠٠ » ، فقاطعه الطبيب قائلا : « وانها لكذلك حقا ! »

– حسنا ٠٠ لقد راحت تقول لى : « انني لا أشعر بذرة من الشفقة نحو مثيلات مسز تشبستو ، فلا تذكرها لى يا مستر ارماين ! » ٠٠ ياله من اعتراف، يا ايزاكسون !

ووجد الطبيب نفسه يسأله : « وهل ذكرت لك مبررات رأيها ؟ » ٠ فأجاب : « آه ! نعم ! لقد حاولت ان تفعل ، فقالت الشيء المعهود » ٠٠ فقال ايزاكسون مستوضحا : « وما هو ؟ » ٠٠ وأجاب ارماين : « لقد قالت ان مسز تشبستو قد باعت نفسها للشيطان ، جسدا وروحا ، في سبيل المادة ٠٠ وانها مثال المرأة الجشعة ! »

– وهل بينت لك ما تعنيه تماما بـ « مثال المرأة الجشعة » ؟

– نعم ٠٠ واشهد انها كانت واضحة فيما تكلمت به !٠٠ قالت عنها انها المرأة المتجردة من المثل العليا ، الخالية من كل احساس بالحنين الى « البيت » ، بكل مافى «البيت» من معان:الرجل الواحد ، والأطفال ، وراحة الضمير التى تنبع من الايثار،وراحة البدن فى العمل من أجل الآخرين!٠٠ المرأة التى تخون السمعة الطيبة لجنس النساء اذ تركز كل اهتمامها فى نفسها، والتى لاتمتد رغباتها الا لاشباع نزواتها الرخيصة ، بالاسراف الجنونى ، وانفاق المال فى اقتناء الثياب والحلى واليخوت والمنازل والسيارات وكل ما يثير العجب والاعجاب عند ذوى العقول المنحرفة !

– ان مثل هؤلاء النساء موجودات حقا !

– ربما كان الأمر كذلك ، ولكن ياعزيزى ايزاكسون ٠٠ يكفى ان ينظر المرء الى مسز تشبستو نظرة خالية من التحامل ، اذا سمحت لى بهذا التعبير ، ليرى انها لا يمكن ان تكون واحدة من هاته النساء !٠٠ وحتى اذا لم أكن قد تحدثت معها قط ، فسوف أدرك للتو انها ولا بد من ذوات المثل العليا ، بل انها لا يمكن أن تكون متجردة منها ، مهما يكن من أمر حياتها الآن أو فى الماضى ٠ سيماؤهم على وجوههم !٠٠ والسيماء لا تكذب البتة ٠٠ انظر الى قسمات هذا الوجه ، أفلا ترى ما أعنيه ؟

وراح الاثنان يحدقان فى المرأة المنفردة برهة ، قبل ان يقول الطبيب : «مامن شك فى ان فى وجه مسز تشبستو جمالا معينا »

– اننى لا أتكلم عن الجمال ، وانما أتكلم عن المثالية ٠٠ عن الطهر والنقاء !٠٠ أفلا ترى ما أعنيه ؟٠٠ والآن ، كن عادلا !

فقال الطبيب : « نعم ٠٠ اننى أراه !» ٠ واذ ذاك تنهد ارماين بارتياح عميق، بينما تابع الطبيب كلامه : « ولكن هذه اللمحة ، فيما أعتقد ، ليست الا وليدة

تكوين قسمات الوجه والطريقة التى ينمو بها الشعر ؟٠٠ أفتعنى ان تقول انك تستطيع الحكم على امرأة من ذلك أكثر مما تحكم بأفعالها فى الحياة ؟ »

- كلا ٠٠ ولكنى أقول انك اذا درست حياة امرأة لها مثل هذا الوجه ٠٠ حياتها الحقيقية ٠٠ فسوف تتبين بلا ريب انها لم تكن خالية من الاعمال التى تتوقعها منها ٠٠ الأعمال التى تؤيد تلك اللمحة من المثالية التى يستطيع كل انسان أن يراها !٠٠ ثم ما الذى تعرفه مسز درنجهام حقا عن مسز تشبستو ؟ انها لا تعرفها معرفة شخصية البتة ، وقد اعترفت لى بذلك ٠٠ بل انها لم تتحدث اليها قط ، ولا تريد ان تفعل !

- أعترف ان ذلك لا يدهشنى !

وكانت فى صوته نبرة جافة واضحة ، لم تفت ارماين ، فقال : « ارى انك لا تقل تحاملا ! » ٠ وبدت فى صوته مسحة من الضيق والكدر ، وهو يستطرد قائلا : « ولست أعلم السبب فى ذلك على وجه التحديد ، ولكنى كنت دائما أنظر اليك كواحد من أكثر الناس الذين التقيت بهم بعدا عن التحيز ، ومن أوسعهم أفقا وانضجهم عقلا ، ياايزاكسون ٠٠ لا كواحد من أولئك الذين يجدون من واجبهم دائما أن ينبحوا مع كلاب الصيد ! »

- ان المسألة تتمثل فى : ماهو التحامل ؟٠٠ ان الحقائق الراهنة فى حياة انسان معين هى الواقع ، ولا يمكن ان تترك المرء بعيدا عن التأثر بالواقع تماما، سواء ضد صاحب هذه الحياة أو معه ٠٠ فلو اننى رايت رجلا يضرب كلبا لأنه لعق يده ، لاستنتجت أنه رجل قاس ٠٠ فهل كنت تقول عنى أننى ضيق الأفق اذ ذاك ؟٠٠ واذا لم يحكم المرء على الرجال والنساء بفعالهم ، فبأى شىء يمكنه أن يحكم عليهم اذن ؟ لعلك قائل « ينبغى لك أن لا تحكم عليهم البتة » ، ولكن من المستحيل ألا تكون للمرء آراء فى الناس ٠ وفى كل مرة يكون لك راى فى شخص ما ، فانك تكون قد أصدرت عليه حكما خفيا ٠٠ أليس كذلك ؟

- أعتقد ان للشعور دخلا فى هذا الأمر ٠٠ فغالبا ما ينشأ لدى المرء احساس داخلى مباشر قبل ان يعرف شيئا عن حقائق حياة فرد معين ٠٠ ومن المحتمل ان تكذب هذه الحقائق ذلك الشعور ، ولكن هل هذا خطأ ؟٠٠ احسب انه لايكون كذلك غالبا ٠٠ واذكر أننى سمعت ذات مرة امرأة بارعة الذكاء تقول عن رجل كانت تعرفه حق المعرفة : « انهم يتهمونه بكذا وكذا من الأفعال ٠٠ ولكننى لو رأيته يرتكب هذا العمل لما صدقت انه يأتيه فعلا»!٠٠قد تقول ان هذاسخف، ولكن هل هو سخف حقا ؟٠٠ الا يمكن ان يختفى الانسان الحقيقى وراء مظهر زائف ؟٠٠ ألا يوجد غالبا هذا المظهر الزائف ، كأنه القناع يخفى الوجه ؟٠٠ وهلا يأتى الانسان الزائف أعمالا يستنكرها الانسان الحقيقى ؟٠٠ اننى افضل ان احكم - فى الغالب - بقلبى لا بعينى يا ايزاكسون ٠٠ نعم ، اننى افضل ذلك ! والمرأة التى رويت لك قصتها انما قالت شيئا جميلا عند ما قالت ذلك ٠

ومع ان كل من سمعها راح يضحك منها ، فانها لم تكن سخيفة البتة !٠٠ اذ عند ما ينشأ لدى المرء ما يسميه احساسا داخليا ، فان قلبه هو الذى يتكلم ، وهو الذى يقول « هذه هى الحقيقة » !٠٠ وأنا أعتقد ان القلب يعرف ما هى الحقيقة ، دون حاجة الى اعمال ذهن أو تفكير !

ـ وماذا تقول اذا شعر شخصان باحساسين متناقضين كل التناقض ازاء شخص واحد ؟٠٠ ماذا يكون الامر اذن ؟ ان هذا يحدث أحيانا كما تعلم

فقال أرماين وهو ينظر ناحية مسز تشبستو : « لست أعتقد أن من الممكن ان ينشأ لدينا ـ أنت وأنا ـ احساسان متناقضان تماما ازاء شخص واحد ٠٠ وهذا يكفينى ، ولن أشغل نفسى الليلة بسائر أهل العالم ! »

ـ ألا تظن ان القلوب قد تكون خرقاء كالرؤوس ؟! اننى أعتقد ذلك ، وأحسب ان الناس قد تكون لهم « قلوب مضطربة » ، كما تكون لهم « عقول مضطربة »!

واذ كان الطبيب يقول ذلك ، خطر له فجأة انه انما كان يصدر حكما ضد صديقه ٠٠ ضد ذلك الرجل الذى أعجب به ، وأحبه !٠٠ أما ارماين فقد قال : « اننى دائما أصدق قلبى ، ولكنى غالبا ما أسىء الظن بعقل !٠٠ ألا تريد المزيد من الشمبانيا ؟ » ٠ فقال ايزاكسون : « لا ٠٠ شكرا لك ! » ٠ واذ ذاك تساءل ارماين : « مارأيك فى ان ننضم الى مسز تشبستو ؟ لا ريب في أنها شديدة السأم لتناولها العشاء بمفردها ٠٠ سوف نذهب لنتبادل الحديث معها ، فاذا لم تدعنا للجلوس ، فلنمض الى البهو لندخن »

ولم يكن فى صوت ماير ايزاكسون ـ اذ قال : «حسنا» ـ ما ينم عن تحمسه لهذا الراى أو عن نفوره منه ٠٠ ولو ان شيئا من ذلك بدا ، لما فطن اليه ارماين ، اذ كان اذا عنى بأمر ، لا يكاد يرى غير هذا الأمر بالذات !

وما لبث ان دفع الحساب ، وأجزل العطاء للساقى ، ثم نهض من مجلسه قائلا : « هلم بنا ٠٠ وسوف أقدمك اليها » ٠٠ ثم وضع يده لحظة فوق ذراع صديقه ، واستطرد يقول فى صوت خفيض : « جرد فكرك من التحامل يا ايزاكسون ، فأنت من الطيبة والذكاء بحيث لا يمكن ان تكون من زمرة المتحاملين ٠٠ واجعل احساسك الأول هو الاحساس الصادق ! » ٠٠ وفيما كان الطبيب يمضى مع صديقه نحو مائدة مسز تشبستو ، لم يشأ ان يخبره بأن احساسه الأول حيال هذه المرأة كان قد نشأ من قبل ، فى حجرة الاستشارة بميدان كليفلاند !

الفصل الخامس

◆ « مسز تشبستو » !

وأجفلت مسز تشبستو قليلا اذ سمعت نداء نيجل أرماين ،



كشخص يفيق بغتة من حلم كان مستغرقا فيه ، ورفعت عينيها نحوه ثم ابتسمت قائلة : « أهذا أنت ؟ ٠٠ انني وحدى كما ترى ، ولكنى كنت جائعة ، فاضطررت الى مواجهة الجماهير !» ٠٠ فقال : « أود أن أقدم لك أحد أصدقائى ، فهل تسمحين لى بذلك ؟ » ٠٠ وهتفت المرأة : « بالتأكيد ! »

واذ ذاك تنحى أرماين قليلا ، فتقدم دكتور ايزاكسون حتى وقف بجانب مسز تشبستو ٠٠

– الدكتور ماير ايزاكسون ٠٠ مسز تشبستو

ولم يدر الطبيب هل كان يتوقع أن تظهر مسز تشبستو معرفتها به ، أو انه كان يشعر سلفا بما حدث فعلا : الانحناء الخفيف وغمغمتها : « يسرنى أن ألقاك ! » ، ولكن الذى كان يدريه هو أنه لم يدهش حقا لمعاملتها اياه كشخص غريب عنها تماما ، وأنه سر كل السرور اذ لم يذكر لأرماين شيئا عن زيارتها لميدان (كليفلاند) ٠٠ ومضت مسز تشبستو تقول لأمارين : « هلا جلستما لنتبادل الحديث قليلا٠ انني وحيدة، وقد قتلنى السأم ! » ٠٠ فقال أرماين : « هل تسمحين ؟ » ٠٠ ثم جذب أحد المقاعد ، على حين قالت مسز تشبستو : « تعال بجانبى من الناحية الأخرى يا دكتور ايزاكسون ٠٠ لقدسمعت الكثير عنك ، فقد أحسنت علاج معظم أعدائى ! »

ولم يكن ثمة أقل أثر للتصنع فى لهجتها ومسلكها ، كما لم يبد ظل من الضيق والتبرم فى نظرتها ، فلم يتمالك الطبيب نفسه ـ وهو يجلس بجانبها ـ من الاعجاب ببراعتها الفائقة فى الخداع ، كما كان يعجب أحيانا ببراعة بعض شهيرات الممثلات الفرنسيات فى أداء أدوارهن على المسرح ! ومالبث ان قال : « اذن ، فلا ريب فى انك تكرهينني ؟ » ٠٠ فقالت : « ولماذا ؟٠٠ اذا كنت لا أكرههم هم ! » ٠ فهتف أرماين : « أفلا تكرهين اعداءك ؟ »

ـ كلا ! وهذه من نواحي الضعف عندى !٠٠ اننى مااستطعت ذلك قط ، ولن أستطيعه البتة ، فثمة شيء أخرق فى قرارة نفسي لا يفتأ يتلمس المعاذير للناس ، مهما يكونوا ومهما يفعلوا ، ودائما ما أقول لنفسى : « انهم لا يفهمون ٠٠ ولو انهم علموا حقا جميع الظروف التى تحيط بى لما أبغضوني ، بل لعلهم كانوا يرثون لحالى ! » ٠٠ وهذه حماقة مني ، بل خطأ ذريع !٠٠ هكذا أعلم حق العلم ، فان مثل هذه المشاعر تقف سدا منيعا فى طريق النجاح ، لأنها تمنع المرء من العمل فى سبيل الدفاع عن نفسه ٠٠ واذا لم يعمل المرء من أجل نفسه فان أحدا لن يعمل من أجله !

فقال أرماين : « ما أظن هذا صحيحا ! » ٠٠ فقالت : « آه ! بل انه صحيح كل الصحة ٠٠ فأنت اذا كنت ميالا الى الشجار ، محبا للانتقام ، حسبك الناس جسورا مقداما ، ووجدوا أنفسهم يقفون فى صفك ٠٠ أما اذا كنت سهل الصفح والمغفرة ، فلن يصفح الناس عنك أو يغفروا لك بسهولة ! » ٠٠ فقال : « اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا تغيرين خططك ؟ » ٠٠ ونظر الى ايزاكسون ، ففهم الطبيب أنه كان يحاول أن يثبت له ما كان يعتقده من خلق هذه المرأة ٠٠

وأجابت مسز تشبستو : «لسبب بسيط ، هو أنني لا أستطيع ! ٠٠ فأنا كما خلقت ، وليس بوسعي ان أغير ما بنفسي ، كما انه ليس

بوسعى أن أعمل على نقيض ما يوحى به ذلك الصوت الخافت الذى يهتف فى أعماق نفسى !٠٠ والواقع اننى كثيرا ما أحاول ـ اذ اننى لا أزعم لنفسى البتة انى منزهة الى هذا الحد ! ـ ولكنى وجدتنى عاجزة عن الاستمرار فى المحاولة ٠٠ وأنا أعلم ان ذلك ضعف كبير ، وأعلم ان العالم سوف يهزأ بى ويضحك منى ، ولكن ٠٠ ماذا تريد ؟ ان بعضا منا عبيد لأرواحه ! » ٠٠ وبدت العبارة الأخيرة وكأنها أفلتت منها دون وعى ، اذ انبعثت فى اخلاص عميق٠٠ ولكنها سرعان ما أضافت ، كما لو كانت تأسف على اذاعة سر دفين لها : « لابد انك تظننى امرأة بلهاء يا دكتور ايزاكسون ؟! »

وتساءل الطبيب : «ولماذا يا مسز تشبستو ؟» ٠٠ فأجابت : « لهذا الذى قلته ٠٠ فانك طبعا تعتقد اننا عبيد لأجسادنا ! » ٠٠ ولم يتمالك أن قال فى لهجة ذات معنى : « الحق اننى لا أراك بلهاء ! » ٠٠ وهنا قال أرماين : « ان ايزاكسون ليس طبيبا عاديا ، وليست بك حاجة الى أن تخشيه » ٠٠ فقالت : « ما أحسبنى أخشى أحدا ، ولكن المرء لا يود أن يجعل من نفسه أضحوكة ٠٠ وانى لواثقة من اننى غالبا ما أكون حمقاء عندما أبخس الجسد حقه الى هذا الحد ! » ٠٠ ثم أردفت وهى تبتسم : « أى حديث هذا ! ٠٠ ولكننى عندما كنت وحيدة وسط هؤلاء الناس ، رحت أفكر فى شتى النواحى ٠٠ فالمرء اذا جلس بمفرده بين جمع من الناس ، لم يملك نفسه من الاستغراق فى التفكير٠٠ و فىرأيى أن ذلك يحرك المخ وينشطه ! وهكذا كنت أفكر فى كثير من توافه الامور وأنا أتناول الطعام بمفردى » ٠٠ ونظرت الى الرجلين نظرة اعتذار ، وما لبثت أن هزت كتفيها قائلة : « المرأة فى التفكير ! »

ودنا أرماين بمقعده منها قليلا ، فى حركة جعلت الدكتور ايزاكسون يتبين فجأة مدى تلك القوة التى كانت لا تزال كامنة

في هذه المرأة ٠٠ القوة التى كانت تجعلها تسيطر على نوع معين من الرجال ٠٠ وقال ارماين مكملا عبارتها : « والرجل فى التدبير ! » ، بينما كان الطبيب يقول فى نفسه : « والمرأة أيضا فى التدبير ٠٠ بل انها أفضل تدبيرا من الرجل ! »

وثار اعجابه من جديد بجرأة مسز تشبستو الطاغية ، وبتحديها الكامل الخفى لشخصه ٠٠ بينما أردف أرماين قائلا فى لهفة : « وما الذى كنت تفكرين فيه ؟ ٠٠ لقد لاحظت كيف كنت مشغولة البال ، حتى وأنت تدلفين الى القاعة ! » ٠٠ فهتفت : « ألاحظت ذلك ؟ ٠٠ لقد كنت أفكر فى حديث تبادلته هذا المساء » ٠٠ والتفتت نحو ماير أيزاكسون فى تراخ وتمهل ، وهى تستطرد : « ومن عجب انه كان مع طبيب ! »

فقال ماير وهو يحدق فى وجهها مباشرة : « أحقا ؟ » ٠٠ فأجابت : « أجل » ، ثم أشاحت بوجهها ، وعادت تتحدث الى ارماين قائلة : «لقد ذهبت بعد الظهر الى أحد الأطباء ، يا مستر ارماين ، لأستشيره بشأن صديقة لى حل بها المرض واستبد بها العناء ، فتبادلت واياه أعجب حديث عن الروح والجسد ٠٠ كان أشبه بصراع بيننا ٠٠ وانى واثقة من انه حسبنى مثال المرأة الحمقاء ! »

ــ لماذا ؟

ــ لأننى فيما أظن قد نحوت بموضوعنا منحى عاطفيا ،وأنت تعلم أننا معشر النساء نميل دائما الى الناحية العاطفية ! ٠٠ أما طبيبى هذا فكان ذا آراء علمية بحتة ، ملحدا الى حد يبعث على الهلع ! وكان رأيه اننى متعلقة بالأوهام الى درجة السخف !

ــ وماذا كان رأيك فيه ؟

ــ أخشى أن يكون رأيى فيه انه مادى صرف ! فقد ظل يعالج الجسد حتى لم يعد بوسعه أن يؤمن بشىء غير الجسد وحده !٠٠ كان يرجع كل شىء الى الجسد ، وكل انفعال أو عاطفة ، فى

رأيه ، مبعثها اهتزاز عصب معين فى خلية صغيرة في تلك المادة الرمادية التى يتكون منها المخ ! ٠٠ وأحسبه يعتقد ان الحب مهما اشتد أواره ، يمكن عــلاجه بجراحة ! ٠٠ أما أن تكون للانسان روح خالدة ، فذلك ٠٠ حسنا ، لقد جرؤت ، لأننى بطبيعتى لا أخاف شيئا أو أحدا ، على أن أذكر له مجرد احتمال ان يكون لى شيء كهذا ٠٠ ولكنى أسفت حقا فيما بعد !

– هلا أخبرتنا بالسبب ؟

– لأن هذا القول جلب علي وابلا من الازدراء ومن المجادلات ٠٠ أما الازدراء فلم أبال به كثيرا ، ولكن المجـادلات هى التى أضجرتنى !

– وهل أقنعتك ؟

– واها لك يا مستر ارماين ٠ هل عرفت امرأة يقنعهـــا الجدال ؟

فضحك قائلا : « وهل ما تزالين تؤمنين بأن لك روحا خالدة لا تفنى ؟ »

فهتفت : « أكثر من أى وقت مضى ! » ٠٠وراحت تضحك بدورها ، ولكن الضحكة سرعان ما ماتت على شفتيها بغتة ، واكتسى وجهها سمة من الجد والصرامة وهى تقول : « **اننى لن أدع أحدا – أى أحد – ينتزع منى شيئا من معتقداتى !** » ٠٠ وكانت نبرات صوتها قاسية ، عنيفة فى ضراوتها الفجائية ، ولكنها ما لبثت أن تبدلت تماما عندما استطردت : « لابد لى من قدح من القهوة ، فاننى أنام نوما سيئا ،ولذلك أحب أن أتناول القهوة ٠٠ خالف تعرف كما يقولون ! ٠٠ ثلاثة أقــداح من القهوة الثقيلة أيها الساقى ! »

فقال ماير أيزاكسون : « لا تحسبى لى حسابا »

ولكنها قالت : « يجب أن تقبل هذه المرة ، فانى أكره أن أفعل شيئا وحدى ٠٠ لن تجد البهجة فى شيء ما لم يكن معك من يشاطرك اياه ! » ٠٠ ورمقت ارماين وهى تستطرد قائلة :

« هذا على الأقل ما تعتقده كل امرأة ! »

ـ ما أكثر النساء التعسات فى هذا العالم !

ـ نعم ٠٠ اللواتى يعشن فى عـــزلة ! فما من رجل يمكنه البتة أن يدرك مدى بؤسهن !

وران الصمت برهة ، اذ كان فى صوت مسز تشبستو عندما نطقت بالعبارة الأخيرة شيء يفرض الصمت فرضا ٠٠ وللمرة الأولى منذ وجوده معها في تلك الليلة ، شعر ماير ايزاكسون انه قد لمح بارقة من حقيقة نفسها ، وانه قد اقترب من أعماق شعورها !

★ ★ ★

◆ **وأتى** الساقى بالقهوة ، بينما استطردت مسز تشبستو ضاحكة :

ـ حتى الطعام لا تجد المرأة فيه أى لذة اذا تناولته وحدها ! وقبل أن تحضرا الليلة لترثيا لحالى ، شعرت بأننى كنت خليقة بأن أكون أوفر ســعادة لو اننى تناولت طعـاما بسيطا فى حجرتى ، ولكنى الآن أحس بالمـرح والابتهاج ! ٠٠ أليست القهوة جيدة هنا ؟

ولاحت عليها فجأة دلائل المـــرح والسرور ، كأنما تفتحت أزاهير السعادة فى قرارة نفسها ، ثم نظرت الى الطبيب وهى تتابع كلامها : « لا بأس من قضائك ليلة مسهدة واحــدة ، يا دكتور ايزاكسون ! ٠٠ انك قمت بعمل من أعمال الخير ، اذ أدخلت البهجة على نفس بشرية كانت تعانى الكثير وهى تندب حظها فى الحياة ٠٠ فان الحديث الذى تبادلته مع ذلك الطبيب سبب لى انقباضا مروعا ، رغم اننى حاولت ان أقنع نفسى بأن لا أصدق كلمة واحدة مما قاله لى ! »

وكان ماير ايزاكسون يرشف قهوته فى صمت ، دون أن يقول شيئا ٠٠ بينما انبعث ارماين يقول فى حمية : « **انى أعتقد ان من أبشع الشرور التى يمكن أن يرتكبها انسان فى**

هذا العالم ، هو ان يحاول انتزاع عقيدة صالحة مريحة من نفس المؤمن بها » ٠٠ وعندئذ تكلم الطبيب ، فخاطبه قائلا : « أفتؤثر أن تدع الناس وشأنهم اذا رأيتهم يترددون فى الخطأ ؟ ٠٠ هب ــ مثلا ــ انك ترى أحد الناس ٠٠ أحد أصدقائك ، يثق فى شخص تعلم حق العلم انه لا يستحق هذه الثقة ٠٠ ألا تبذل أى جهد لانارة السبيل أمامه ؟ »

وكان يتكلم فى هدوء بالغ ، بل فى قلة اكتراث ، فراحت مسز تشبستو تتفرس فيه بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد غفلت عن قهوتها ٠٠ بينما قال ارماين : « ربما فعلت ٠٠ ولكنك تعرف نظريتى » ٠ فقال ماير ايزاكسون : « آه ! حقا ! » ٠ وابتسم ، بينما كانت مسز تشبستو تنقل أنظارها بينهما فى سرعة ٠ وما لبثت أن قالت : « أية نظرية ؟٠٠ لا تجعلانى أشعر بأنى دخيلة بينكما ! »

ــ آن مستر ارماين يظن ٠٠ هل تسمح لى يا ارماين ؟

فهتف هذا : «بلا شك» ٠٠ واذ ذاك استرسل الطبيب قائلا : **« انه يظن أن الايمان بطيبة الناس ونقاء سريرتهم يساعدهم على أن ينقلبوا طيبين أنقياء ، بحيث يمكن أن نجعل من الشرير انسانا فاضلا بمجرد الثقة فيه ، وهى ثقة ربما وضعت فى بادىء الأمر فى غير موضعها ! »** ٠٠ فبادرت مسز تشبستو قائلة : « ان مستر ارماين ٠٠ » ، وأمسكت لحظة ، ثم أردفت تقول فى رقة : **« مما يؤسف له ان العالم ليس مليئا بأمثال مستر ارماين »** ٠٠ وتورد وجه ارماين ، كأنه غلام غرير ، بينما استطردت المرأة قائلة : « ليت طبيبى هذا كان يعرفك يا مستر ارماين ٠٠ فانك اذا كنت تبنى وتخلق بايمانك ، فانه ــ فيما أعتقد ــ يهدم ويدمر بكفرانه ! » ٠٠ وفيما كانت تنطق بكلماتها الأخيرة ، التقت عيناها بعينى ماير ايزاكسون ، فرأى فيهما ، أو خيل اليه انه يرى فيهما ، تحديا مليئا بالوعيد !

وبدأت أضواء القاعة تخفت رويدا رويدا ، فهبت مسز

تشبستو قائمة وهى تقول : « لســوف يطردوننا من هنــا ، فلنسبقهم الى الانصراف من تلقاء أنفسنا ٠٠ **وانه لأمر مروع أن يطرد الانسان من مكان ما ، فذلك يجعلنى أشعر بنفسى أشــبه بحواء فى اللحظة الحاسمة من رسالتها السامية ! »**

و مضت أمامهما نحو الباب ٠٠ وفيما كانت تمر بين الموائد ، راح كل رجل ، وكل امــرأة ، يدير رأســه ليحدق فيها كما يحدق الأطفال فى ملهاة تثيرهم ! ٠٠ وكانت تبدو غافلة تماما عن الاهتمام الذى أثارته ، ولكنها عندما وقفت تودع الصديقين فى البهو ، قالت : « أليس الناس مزعجين أحيانا ؟ انهم يبدون وكأنهم يظنون المرء ٠٠ » ، وسكتت ، ثم تنهدت قائلة : « يا لى من بلهاء ! طابت ليلتكما ، وشكرا لكما على الحضور ، فقد نالنى من ذلك خير عظيم ! » ٠٠ فقال ارماين فيما يشبه الهمس ، وهو يمسك بيدها فى راحته : « لا تبالى بهؤلاء الوحوش ، ولا تفكرى فيهم ، بل فكرى فى ٠٠ الآخرين ! »

فتطلعت اليــه فى صمت ، ثم أومأت برأسها ، ومضت فى هدوء !

وما أن انصرفت مسز تشبستو ، حتى قال ماير ايزاكسون لصديقه : « حسنا ، طابت ليلتك يا ارماين ٠٠ اننى ســعيد لعودتك من الخارج ، وأرجو أن نلتقى كثيرا »

ـ لا تذهب الآن ٠٠ تعال الى حجرتى لندخن قليلا !

ـ من الأفضل ألا أفعل ، اذ ينبغى أن أستيقظ مبكرا ، فقد اعتدت التريض على جوادى فى السابعة والنصف

ـ سوف أركب معك اذن

فتساءل الطبيب : « غدا ؟ » ٠ واذ أجابه صديقه : « أجل » ، قال : « ولكن هل اقتنيت جيادا ؟ » ، فأجابه : « كلا ، وانمـا سأستأجر واحدا من ســيموندس ٠٠ ولكن لا تنتظرنى ، بل ابحث عنى عند نادى التجديف ٠ والآن ، طابت ليلتك أيهــا الصديق القديم ! »

وظلت أيديهما متماسكة لحظة ، عندما استطرد ارماين : « ألم أكن على حق ؟ » . فتساءل الطبيب فى عجب : « على حق ؟ »

ـ بشأنها .. بشأن مسز تشبستو ؟ **ربما كانت قد سيقت رغم أنفها بين يدى الشيطان ! ولكن ألا ترى .. ألا تشعر بالخير المستقر في أعماقها ، والذى يناضل فى قوة ، ويتوق الى فرصة تتيح له ان يظهر ويبرز ، وان يمسك بأعنة حياتها فيقودها الى الهدوء والسعادة والاستقرار ؟!** اننى أرثى لهذه المرأة يا ايزاكسون ! شد ما أرثى لها !

فقال ايزاكسون وهو يشدد الضغط على كلماته : « لك أن ترثى لها اذا شئت .. أما أنا .. »

ولكنه تردد برهة ، اذ رأى فى وجه صديقه شيئا جعله يكف عن المضى فى كلامه .. شيئا أنبأه بأن من الحكمة ألا يمضى فى الحديث الى أبعد من ذلك ، فان المعارضة تعمى بصيرة بعض الطبائع ، وتدفعها الى الأمام .. ومثل هذه الطبائع ينبغى أن لا تواجه بالمعارضة ، ومن ثم فانه استأنف كلامه قائلا : « وأنا أيضا أشفق عليها حقا .. يا للمرأة المسكينة ! »

وكان صادقا فيما قاله ، ولكن اشفاقه لم يكن من ذلك النوع الذى يقترن بالحب !

★ ★ ★

• **كانت** القهوة الثقيلة ـ التى استطاعت مسز تشبستو أن تغرى ماير ايزاكسون على تناولها ـ سببا فى أن ظل مسهدا فى تلك الليلة .. كانت أشبه بجرعة منكرة نفت النوم عن عينيه ، وعمرت الليل بحشد من الأفكار المتدافعة ، فلم يلبث الطبيب أن كف عن محاولة اجتلاب النعاس ، واستسلم لهذا الحشد فى غبطة يشوبها شىء من الحنق ! .. فلقد كان ـ بعد ظهر ذلك اليوم ـ فى حيرة خفية ازاء مسز تشبستو ، وكان يتساءل فى عجب عن السبب المستتر الذي حدا بها الي أن تطلب لقاءه في

عيادته . أما بعد ذلك الحديث ، الذى دار فى الليل ، فقد بات موقنا من هذا السبب . وما لم يكن مخطئا .. ما لم يكن قد أساء فهم هذه المرأة تماما ، فهى انما توشك أن تقوم بمغامرة جريئة عجيبة : **لقد رأت نيجل ارماين ، وقرأت طبيعة نفسه الغريبة ، كما ينبغى أن تقرأ ، فأدركت ان فى أعماقه رجلا لا يشبه سائر الرجال .. رجلا كان مولعا ــ بفطرته ــ بأن يسير فى عكس اتجاه التيار ، وأن يتحول بطبعه نحو ما يتحول معظم الرجال عنه ! .. رأت فيه رجلا جبل على احتضان القضايا الخاسرة .. وقد كانت حياتها قضية خاسرة ، ومن ثم كان نيجل فرصتها السانحة !** ولقد حدثها منذ أيام أربعة عن ماير ايزاكسون ، وكان فى وسع الطبيب أن يحدس ذلك الحديث ، اذ كان يدرك تحمس صديقه له ..

والمرأة الذكية تغريها الكوارث على أن تسىء الظن بالناس ، ومن ثم فانها لم تشأ أن تأخذ حديث نيجل على علاته ، ودفعتها الغريزة النسوية الى أن تستطلع شخصية الطبيب كما يرتاد المرء بلدا غريبا سمع عنه الكثير .. لذلك كان شعور الطبيب صادقا حين خيل اليه ــ وهو يجلس الى مسز تشبستو فى ميدان (كليفلاند) ــ ان المريضة هى التى كانت تفحصه . فقد قرأت أفكاره فى سهولة ودقة ، ثم راحت تعامله على ضوء ما اكتشفت ــ بهذه السرعة المدهشة ــ من معرفة به ، فكشفت له عن دخيلتها ، وأظهرته على حقيقة نفسها .. لماذا ؟ .. لتخرس فمه فى المستقبل ! **فانها اذ أفشت له أسرارها ، صورتها فى صورة أعراض من المرض صارحته بها بوصفه طبيبا .. أنبأته بحقيقة نفسها فى غرفة الاستشارة بعيادته ، حتى لا يستطيع أن يفضى بتلك الحقيقة للغير ، ولنيجل ارماين بالذات !** .. ولقد أدهش الطبيب اعتدادها الكامل بمقدرتها على قراءة نفوس الناس ، بل وأثار اعجابه . فقد كان فى هذا الاعتداد ميل الى القوة والجرأة ! كذلك كان ينظر اليها من الناحية الفنية فيقدرها كل التقدير .

وها هى ذى قد أظهرته ـ فى لقائهما بالمطعم فى تلك الليلة ـ على مزيد من جرأتها البالغة !

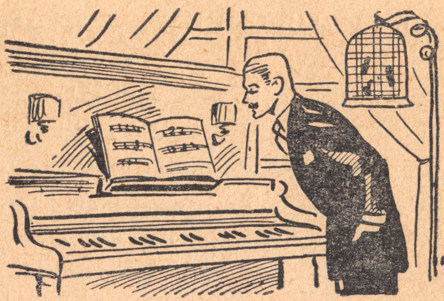
وراح ـ فى حلكة الليل ـ يتمثل وجهها الناصع البياض ، ووميض عينيها اللتين زادهما تألقا ما رسم تحتهما من ظلال ، بينما كانت تروى لنيجل تلك السلسلة من الأكاذيب عن الحديث الذى دار بينها وبين الطبيب ، بعد أن قلبت الأوضاع ووضعت نفسها فى مكان الطبيب ، ووضعته فى مكانها ! لقد كانت تستمتع بما فعلته ٠٠ كانت تستمتع به فى قرارة نفسها ، وبذلك اضطرت الطبيب الى أن يرقص على أنغام مزاميرها ، فألفى نفسه مسوقا الى مسايرتها فى الخداع ، بل والى تأييدها ! ٠٠ وأدرك ماير ايزاكسون اذ ذاك السبب فى جلوسها وحيدة الى مائدة العشاء ، وفى حديثها عن سوء حظها فى الحياة ، وهجران الرجال اياها ٠٠ كانت تفعل ذلك لتطرق المعدن النادر الذى اكتشفته فى قرارة ارماين ٠٠ وكانت بارعة ـ فى ذلك ـ كل البراعة ٠ ولكنها بعملها أحرقت سفنها وقطعت على نفسها خط الرجعة !

وقطب ماير ايزاكسون حاجبيه فى الظلام ٠٠ ان امرأة من طراز مسز تشبستو لا تحرق سفنها هباء ، فالى أى مدى يبلغ ما كانت تتوقع أن تفيده من هذه التضحية بكبريائها الزائفة ، وهى كبرياء تكاد تكون أعز من الحياة عند امرأة من طرازها ؟! ٠٠ ان لذلك مقابلا ٠٠ فماذا يمكن أن يكون هذا المقابل ؟

وفيما كان يرقد مستيقظا ، والليل يمشى متمهلا صوب الفجر ، أحس بالخوف يملأ قلبه على صديقه نيجل ارماين !

الفصل السادس

● **كانت حجرة استقبال مسز تشبستو ـ بفندق سافوى ـ مزخرفة باللونين الوردى والأخضر الفاقعين ، وهو ما كان يلائم خطتها الحالية بالنسبة**



للألوان ! وكان فيها معزف صغير من الخشب الاحمر ، وضعت عليه نسخة من « حلم جيرونتيوس » ـ من تأليف « أجار » ـ وقد فتحت عند هذه الكلمات : « امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية ٠٠ اذهبى من هذا العالم ! » ٠٠ وفى أرجاء مختلفة من الحجرة ، تناثرت مجلات وصحف متباينة : كتاب « القرن التاسع عشر وما يليه » ، ومجلة تصدر كل ثلاثة أشهر ، و « التايمس » ٠٠ وكتب عديدة مثل « فاوست » ، لجيته ، و « الموجز فى الآثار المصرية » ، لماسبيرو ، و « الرفيق فى الدراسات اليونانية » ، و « قوى كالموت » ، لجى دى موباسان ، و « انتصار الموت » ، لدانونزيو ، و « الحرف القرمزى » لهوثورن ٠٠ كما كانت توجد نسخة من « مقالات ايمرسون » ٠٠ وفى سلة صغيرة تحت المكتب ، كان العدد الاخير من « وينينج بوست » ممزقا فى عناية ! ٠٠ واستقرت فى احدى الزهريات بضع ورود وردية اللون ، بينماكانت بعض عصافير الكناريا تغرد فى قفصها

وكان الأثاث قد نسق بيد بارعة ، بحيث فقدت الحجرة شيئا من نظامها كحجرة فى فندق فاخر !٠٠ وكانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، تفضى الى الشرفة المطلة على جسر نهر (التيمس) ، بينما أخذ يهب من ناحية النهر نسيم رقيق يحرك الستائر الهفهافة ، ذات اللونين الأبيض والأخضر ، التى كانت تحيط النوافذ باطار بديع ٠٠ والى هذه الحجرة الانيقة التى شاعت منها بهجة هادئة ، اقتيد نيجل ارماين فى الساعة الخامسة والنصف تماما ٠٠ قاده اليها احد الخدم ، ثم تركه ليبلغ نبأ مقدمه الى مسز تشبستو

وما أن اغلق الباب وراء الخادم الألمانى ، حتى وقف نيجل يقلب الطرف حواليه ٠٠ كانت هذه هى زيارته الاولى لمسز تشبستو ، فراح يحاول ان يستشف معالم شخصيتها خلال هذه الحجرة التى كانت تعيش فيها ٠ وخيل

اليه انها تبدو أكثر أناقة من حجرة فى فندق ، على الرغم من انه لم يتبين ـ كما كان أيزاكسون خليقا بأن يتبين للتو ـ ان الأثاث قد نسق ببراعة فائقة !.. وهامت عيناه فى جولة سريعة فى أنحاء الحجرة .. لا صور ولا لوحات ، ولا وشى ولا تطريز .. بعض الوسائد المتناثرة .. طيور .. بضع ورود جميلة.. كتب قليلة فاخرة التجليد .. النوافذ مفتوحة لتدع الهواء يتدفق الى داخل الحجرة .. وأخيرا ، معزف مفتوح

ومضى نحو المعزف ، وانحنى فوقه متأملا ، فاستقبلته تلك العبارة : «امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية .. اذهبى من هذا العالم ! » .. اذن فهى تحب « حلم جيرونتيوس » ؟ .. ذلك التعبير الموسيقى الدقيق عن حيرة الروح وشعورها بالاغتراب !.. ولم يتذكر انه حدثها عن حبه لهذه القطعة !.. ووقف برهة يحدق النظر الى « النوتة » الموسيقية .. وكان النسيم يهب من النهر السحيق فيحرك الستائر فى حفيف رقيق ، والطيور تغرد حينا بعد حين ، غير أن نيجل لم يكن يسمع هذا التغريد أو ذلك الحفيف ، وانما خيل اليه انه يسمع صوت القس وهو يقف الى جوار المحتضر .. وكان وهو ينظر الى سطور « النوتة » التى تحمل أنغام اللحن ، حيث كان القس يأمر روح المحتضر بأن تعود الى خالقها ، يخال انه كان ينصت الى اللحن كما انصت اليه من قبل ، عندما عزفته فرقة موسيقية كبيرة .. وداخله شعور برهبة الموت .. وجماله رغم ذلك !

وما لبث ان أجفل بغتة ! كان قد انطلق فى الفضاء مع الروح ، ولكنه فطن فجأة الى انه كان مقيدا بجسده الى الارض .. ألم يسمع حفيف ثوب يعلن عن مقدم صاحبته ؟.. ونظر صوب الباب الثانى للحجرة .. الباب الذى كان من المحتمل انه يؤدى الى حجرة نوم ، ولكنه كان مغلقا . وقد ظل مغلقا ..فسار قليلا مبتعدا عن المعزف . ترى ما هى الكتب التى كانت تولع بقراءتها ؟.. ايمرسون الذى كان يبشر بالتفاؤل فى قفازات الملاكمة ؟! ماسبيرو ؟ انها اذن معنية بالشئون المصرية ؟ « فاوست » ؟ .. موباسان ودانونزيو وهوثورن.. « الحرف القرمزى » ؟.. وأمسك بالكتاب الاخير ، وكان صغيرا مجلدا بغلاف أبيض ! .. لقد عرف هذا الكتاب مرة ، اذ قرأه منذ عهد بعيد .. أما الآن ، فقد راح يلقى نظرة عاجلة على صفحاته .. هستر برين وأرثر ديمزديك .. وتذكر القصة فجأة .. خطيئة الجسد ، والحرف القرمزى الذى وسم الخطيئة على صدر المرأة ، بينما مضى الرجل بمنجاة من العقاب !

وها هى مسز تشبستو تقتنى الكتاب ، فى غلاف أبيض !

★ ★ ★

◆ « اتراك تحكم على شخصيتى من الكتب التى اقرأها ؟ »

انبعث الصوت ينطق بهذه الكلمات من ورائه ، دافئا ، رقيقا ٠٠ وكانت المرأة قد دخلت الحجرة ، ووقفت ملاصقة له ، فى ثوب أبيض وقبعة سوداء ، وقد امسكت فى يدها بمظلة بيضاء ٠٠ وكانت تبدو فى وضح النهار أشد شحوبا منها فى الليل ٠٠ وكان شعرها الفاقع اللامع مغطى بخمار رفيع احتفظت به مسدلا على وجهها وهى تحيى نيجل ٠٠ واستبقى يدها فى يده لحظة - بعد ان صافحها - وهو يقول : « انه ليس حكما ، بل مجرد استنتاج ٠٠ أو لعله حدس وتخمين ! »

- أيها ؟ « الحرف القرمزى » ؟ لقد حصلت عليه فى العام الماضى وقرأته ٠٠ فلما فرغت من قراءته أرسلته ليجلد فى غلاف أبيض !

وسألها : « ولم ذاك ؟ » ٠٠ فقالت - مقتبسة احدى عبارات تلك القصة : « على الرغم من أن خطاياك ستكون فى لون قرمزى ٠٠٠ » ٠ وظل نيجل صامتا ، وهو يرمقها بأنظاره ، فاستطردت تقول : « هيا نتناول الشاى ! »

ومضت فى مشيتها البطيئة المتراخية - التى لاحظها ايزاكسون - نحو المدفأة ، حيث ضغطت الجرس الكهربائى ، ثم جلست على أريكة بجوار قفص العصافير وقد أولت الضوء ظهرها ٠٠ واذ كان نيجل يدنو ليجلس بالقرب منها ، أردفت قائلة : « انك - ولا ريب - مشغول بالدعوات والمواعيد ،فمعظم الناس كذلك فى هذا الوقت من العام ٠ وينبغى أن يحمد المرء حسن طالعه اذا استطاع أن ينال خمس دقائق من وقت أى امرىء آخر ، فى هذه الايام ٠٠ وانى لأذكر ذلك العهد البعيد ، عندما كنت واحدة من « المشغولين » ٠٠ فقد اعتدت ان أتلقى شكر العبد لسيده عن كل دقيقة كنت أتصدق بها ! آه ! شد ما تتبدل الامور ! »

ولم تتنهد ، وانما ضحكت ! ولم تدع له الفرصة لأن يقول لها شيئا ، بل تابعت القول : « وأى كتبى الاخرى رأيت ؟ »

- أرى ان لديك كتاب ماسبيرو

- آه ! ولكننى لم أبتعه الا لأننى التقيت بك ٠٠ وقد استولى على عقلى بما أورده عن مصر التى لم أرها البتة رغم اننى طفت بيختى بأرجاء العالم ٠ وقد جفا النوم عينى بعد ان افترقنا فى الليلة الماضية ، فجلست هنا ورحت أطالع فى كتاب ماسبيرو وأفكر فى حياتك المصرية ! ٠٠ لم أقصد أن أكون متطفلة ٠٠ ولكن لابد للمرء من أن يشغل نفسه بشىء ما !

فهتف : « متطفلة ؟! » ٠٠ فاجابت وفى نبرات صوتها المتراخى لون من الاعتذار : « ذلك لأن الناس أصبحوا ٠٠ غريبى الأطوار ! وانى لأذكر وقتا كان فيه الكثيرون منهم مشغوفين - الى حد الجنون - بعكس ما يستهويهم اليوم ٠٠ فكانوا يعتبرون تفكيرى فيهم شرفا وتكريما لهم ! ولكنى لم أكن اذ ذاك قد بلغت الثامنة والثلاثين ، وكنت من نجوم المجتمع »

واقبل الساقى الألمانى يحمل معدات الشاى ، فما كاد يفـرغ من تنظيمها وينصرف لشأنه حتى قال نيجل فى شيء من التهيب والاحجام : « كم أعجب لأنك لا تعيشين فى الريف ! » .. فقالت : « اننى أفهم ما تعنيه ، ولكنك تخطىء الظن .. فالانسان أشد شعورا بالوحشة هناك » .. وقدمت اليه قدح الشاى فى رقة ، وفى حركتها ما يوحى بالحرص على راحته ، وبشعورها بالسعادة فى خدمته ، ثم استطردت : « سوف تجد القس مضطربا وزوجته فى فزع مروع .. و « السيدة » زوجة الطبيب تحاول - رغم لهفتها الى نقود المريض - أن تمنع زوجها من العناية به وهو على فراش الموت .. أما سيد المقاطعة فهو ، برغم الرغبة المتاججة فى أعماقه ، رجل محترم ، بطبيعة الحال ! وهو دعامة الآداب العامة فى المقاطعة ، كما ان زوجته « دعامتان » معا ! .. والجيران فى مجموعهم يستجيبون للشعور العام ، فلا يلبث المرء أن يجد نفسه « مغروسا » وحده كقمر منفرد تحيط به هالة من النار المضطرمة ! .. لقد خبرت هذه الحيـاة يا صديقى العزيز .. وصدقنى أن (مصر) أو (أوماها) أو أى مكان آخر افضل منها بكثير .. آه ! انك لا تأكل شيئا . خذ واحدة من هذه الكعكات الصغيرة ، فانها طيبة المذاق حقا ، وقد أمرت باعدادها خصيصا لك ومن أجل وليمتنا الصغيرة ! »

وقدمت له الطبق وهى تبتسم ، بينما كان نيجل يهتف فى قوة وحـرارة لا تتفقان البتة مع نبراتها الناعمة الضاحكة : « اننى اعتقد ان (مصر) افضل بكثير ! لماذا لا تذهبين الى هناك ؟ لماذا لا تجربين الحياة الطليقة الحرة ؟ »

- أعيش بين القبائل كما تفعل الليدى هيسترستانهوب فى لبنان ؟! أخشى أن لا أستطيع البتة أن أعود نفسى لبس العمامة ! .. وفضلا عن ذلك فان مصر الآن قد أصابت حظا وافرا من المدنية ، وأصبح كل انسان يذهب اليها .. وسوف يقاطعنى الجميع على طول نهر النيل !

وأزعجته صراحتها القاسية ، بل آلمته وأكربته ! .. وخيل اليه لحظة انه يستشف ما تعانيه من زهد فى العيش ، بينما واصلت حديثها وقد تجـرد صوتها من نعومته وتراخيه : « انك محق ، ولكن كيف يتسنى للمرء أن يكون حذرا حريصا فى حديثه حتى لا يؤلم الآخرين ؟ .. لقد كنت دائما ، حتى فى أيام شبابى الباكر ، أكره التظاهر والادعاء .. والنساء عادة متصنعات بطبيعتهن، وهن حكيمات فى ذلك ، ولكننى لم أكن حكيمة قط ! ولو اننى كنت على شيء من الحكمة لما تركتك تدرك ما فى موقفى من وحشة وسخف وهوان ! » .. ثم استدارت فجأة ، بحيث انصب ضوء النافذة عليها ، ورفعت خمارها فوق حافة قبعتها ، وتابعت القول : « .. ولما أتحت لك ان ترى وجهى وقد ارتسمت عليه جميع صنوف الشقاء والأحزان .. ولكنى لم أكن أجيد التصنع وأنا فى الثامنة عشرة ، ولا أزال بعيدة عن أن أحذقه وأنا فى الثامنة والثلاثين .. ولا

عجب ان كان كثير من الرجال ـ من الطراز الذى تلقاه فى ناديك الخاص ، او فى (مارلبورو) ، او فى نادى العزاب ، او نادى الرحالة ـ يلقبوننى ب « المرأة البلهاء » ! ٠٠ والواقع أننى امرأة بلهاء ٠٠ حمارة صغيرة ٠٠ صغيرة جدا ! »

وذابت الصرامة من صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، وعادت تبتسم من جديد ٠٠ وتحرك رأسها كأنما تتفكه بتوكيد الصفة التى أطلقتها على نفسها٠٠ وعندئذ لاحت أشبه بفتاة غريرة ! ٠٠ واستطردت تقول : « ولكن صفة « الصغيرة » تنطبق على عقليتى فقط ، لا على جسدى ٠٠ ام لعل الأصوب ان أقول انها تنطبق على روحى بدلا من جسدى ؟ »

ـ كلا ٠٠ فان « الصغيرة » صفة خاطئة لروحك !

فبدا التأثر على وجه مسز تشبستو ، ثم تحولت عن الضوء ثانية ، ولكن بعد أن رأى نيجل انها قد تأثرت لكلماته ! ٠٠ ولاح عليها انها كانت تبذل جهدا فى تغيير مجرى الحديث ، وهى تقول : « هل رايت صديقك الدكتور ايزاكسون اليوم ؟ ٠٠ اننى أميل الى هذا الرجل ، على الرغم من انى أمقت اليهود عادة ، بسبب جشعهم وحبهم المفرط للمال ٠٠ اننى أميل اليه حقا ، واشعر ـ على نحو ما ـ انه قد مال الى بدوره فى الليلة السالفة ٠٠ كأنما قد خالجه شعور من العطف حيالى ! »

ـ ان ايزاكسون رجل عظيم ٠٠ ولكنى لم اره ثانية ، اذ دعى الى خارج المدينة لعلاج حالة عاجلة ٠٠ وقد كنا على موعد للنزهة على ظهور الجياد هذا الصباح ، ولكنه بعث الى يخطرنى باستحالة ذلك ٠٠ وعلمت انه ذهب الى الريف

ـ وهل تطول غيبته ؟

ـ لست أدرى ٠٠ وارجو الا يكون الأمر كذلك ، اذ اننى فى أشد الحاجة اليه ٠٠

ـ أحقا ؟

ـ أعنى اننا متوافقان فى كثير من الأمور ٠٠ والأرواح المتآلفة نادرة الآن !

ـ لا ريب فى ان لك جيشا من الأصدقاء ، فانك رجل الرجال !

ـ لست أدرى ٠٠ ولكن ما هو رجل الرجال ؟

ـ انه الرجل من طرازك !

فقال وهو يدنو بمقعده قليلا منها : « ورجل النساء ؟ » ٠٠ فأجابت : « من كان رجلا للرجال فهو كذلك رجل للنساء ! »

ـ لقد قلت انك لا تعرفين التصنع والادعاء ٠٠ أفلا تعرفين الاطراء والمداهنة ؟

ـ قد أستطيع أن أتصنع الى هذا الحد ، بل اننى أفعل ذلك أحيانا ٠٠ ولكن لماذا أحاول أن اداهنك ؟ ٠٠ لست اعتقد انك تحفل بذلك قيد شعرة ، فانت تحب الحقيقة الرقيقة ٠٠ ومنذا الذى لا يحبها ؟ ٠٠ وانا لم ازد على ان قلت

لك الحقيقة !

- شد ما اود ان اقول لك بدورى بعض الحقائق الرقيقة ..

- اخشى الا تجد ، انت او غيرك ، الكثير مما يقال من ذلك ! .. ومع هذا فانى اذهب الى القول بانه يوجد من هذه الحقائق واحدة او اثنتان ، لأننى اعتقد ان فى كل شخص منا قدرا من الخير المتأصل فى أعماق نفسه .. قدرا ضئيلا قد لا يرى تقريبا .. شعلة صغيرة ، ولكن أى مقدار من الماء لا يكفى - مهما تكن وفرته - لاطفائها !

- أعلم ذلك !

- آه ! ولكن هذه الشعلة الصغيرة من الخير المتاصل تحتاج الى من يتعهدها بالاعزاز ، والرعاية ، والعطف ، فى كل وقت !

وتناولت قدحه فى عجلة ، وبدأت تصب له فيه مزيدا من الشـــاى ، كمن اخجله الاندفاع فى ابداء شعوره ، فهو يحاول ان يغطى موقفه بأن يشتغل باى شيء .. وما لبثت ان قالت فى نبرة مختلفة ، وفى صوت ملء بالفتور والبرود ، هو الصوت الظاهر البراءة للغانية المدربة : « أحضر الدكتور ايزاكسون لزيارتى يوما ما ، اذا رغب فى الحضور »

واحس نيجل بان المراة الحقيقية قد طفت فوق السطح لحظة ، ثم ما لبثت ان غاصت ثانية الى اعماق مسز تشبستو التى بدت وكانهـــا تخجل من تلك المرأة الحقيقية ! وود لو يقول لها ذلك ، وان يقول لها « لا تخجلى ، ودعينى ارى المراة الحقيقية .. المراة الطيبة الخيرة .. انها المراة التى ابحث عنها عندما اكون قريبا منك » .. ولكنه لم يجرؤ على توجيه هذه اللطمة لحيائها وتحفظها، فقال فى هدوء : « سأحضر ايزاكسون .. فانى أريده على أن يعرفك على حقيقتك. لماذا تبتسمين ؟ »

فقالت : « ولكن .. ولكننى لا ابتسم ! » .. ولم تكن تبتسم حقا .. واذ راى دهشتها ورصانتها الهادئتين ، عجب من انه خيل اليه ذلك .. بينمـــا استطردت هى تقول : « ينبغى أن أخبرك انه على الرغم من ارتياحى الى الدكتور ايزاكسون فلست اعتقد انه يماثلك .. لست اعتقد انه عالم نفسى ! »

فقال نيجل فى دهشة حقيقية بالغة : « وهل تعتقدينني عالما نفسيا ؟ »

- نعم ، وسوف اخبرك بالسبب اذا وعدتنى بالا تغضب !

- ارجوك .. ارجوك ان تقولى ؟

- فى رأيى ان المرء يمكنه ان يقرأ اخلاق الغير بعينى قلبه ، بمثل ما يقراها بعينى عقله وبصيرته .. اما انت فتستخدم العيون الأربعة فى قراءتك ! .. ولكنى لست واثقة من ان الدكتور ايزاكسون يفعل مثلك !

- لماذا سألتنى الا أغضب ؟ .. احسبك كنت تعنين شيئا آخر ثم عدلت عنه .. وانك لعلى حق فيما اردت قوله ، فان ايزاكسون رجل متوقد الذكاء ،

فى حين انى لست كذلك ٠٠ ولكنه اوتى من حساسية القلب مثل ما اوتيت ، وان فاقنى فيما أوتى من العقل ٠٠ وكلما ازداد كل من العقل والقلب قوة ، كان فى هذا الخير كل الخير للرجل !

ـ ولكن العقل ٠٠ آه ! ان له ميلا جارفا الى ان يظلل القلب بسحابة كثيفة وان يخذله ٠٠ وهو كلما ازداد قوة اشتد طغيانا وجبروتا ! ٠٠ اما انت فاحسبك بين بين ، فالقوتان تتعادلان عندك ٠٠ فكن قنوعا ، ولا تدع عقلك قط يصيح فى طلب المزيد ، والا اجبرت قلبك على ان ينال اقل القليل !

ـ انك تحسنين الظن بى أكثر مما أستحق ٠٠ أكثر مما استحق بكثير !

فانحنت الى الأمام فوق منضدة الشاى وراحت تتفرس فيه عن كثب ، بتلك النظرة الفاحصة الغريبة التى تبدر من المرء عندما يركز تفكيره فى أمـر من الأمور ، فلا يكاد يفطن الى ما يفعله ٠٠ وقالت : « اترانى افعل ذلك حقا ؟ »٠٠ وشعر كأنها تحاول ان تنتزع قلبه منه لترى كيف يخفق ! وعادت تردد : « هل افعل ذلك حقا ؟ »

★ ★ ★

◆ وما لبثت ان ارخت عضلاتها المتوترة ، واسندت ظهرها الى الخلف وقد تركت يدها تهوى الى جانبها ، بعد ان كانت تتشبث بحافة المنضـدة ٠٠ ثم استطردت قائلة : « لعل الأمر كذلك ٠٠ فمن المحقق اننى احسن الرأى فيك ، واخشى اننى غالبا ما اسىء الظن بالرجال ٠٠ ومع ذلك فاننى احاول أن أكون عادلة ، وان لا اضع القلنسوة السوداء وحدها على رأسى (١) بسبب تجـاربى السابقة السيئة الطالع ! ٠٠ فهناك رجال ظرفاء ٠٠ ولكن هناك أيضا رجالا كالوحوش الكاسرة ٠٠ ولا ريب انك تعرف ذلك ، ولو انى أشك فى ان رجلا يستطيع ان يعرف ما اذا كان أى رجل آخر طيبا أم شريرا ٠٠ وانما ينبغى أن يكون المـرء امرأة حتى يحسن الحـكم على الرجل ٠٠ الرجل ٠٠ وحشا كان أم ملاكا ! »

فقال : « لعلك على صواب » ٠٠ وكان يتكلم فيما يشبه الاقتناع ، اذ كان طوال الوقت الذى قضاه معها يشعر باحساس غريب ، غير مألوف ، يوحى اليه بانها كانت تفهمه على حقيقته ، وان أفضل ما فيه كان يمتدح عن حق ، ويقدر أعظم تقدير ! وقد بعث هذا الشعور الدفء الى عقله وقلبه ، كما تبعث الخمر المعتقة الدفء فى الجسد ! ٠٠ وما لبث ان قال : « اننى واثق انك على صواب » ثم وضع قدحه على المنضدة ٠٠ وتولته فجاة الرغبـة فى الانصراف ، وفى

---

(١) يرتدى القضاة فى انجلترا قلنسوة سوداء كلما هموا باصدار حكم بالاعدام

الانفراد بنفسه ! ورأى الستائر تتحرك في رفق عند النوافذ ، وسمع الأصوات الخافتة البعيدة الصادرة عن حركة المرور في المدينة . وراح يفكر في النهر ، وفي الغروب ، وفي السفن المتأرجحة على صفحات الأمواج وهي تجرى بدفع المد و الجذر ، وفي مئات الدوامات التي تملأ النهر ! .. كانت الأفكار تتلاطم في رأسه ، والأحاسيس تتجاذب في قلبه ، تماما كهذه الدوامات ! .. ألم يكن تيار الزمن يدفعها قدما ، صوب بحار الحركة والعمل الفسيحة ؟ .. وشعر بقلبه فجأة وقد غزاه حنين نحو الفضاء الشاسع .. حنين كان قوام حياته ، ولو انه كان يغفو قليلا فيستقر في دعة .. حنين نحو الفضاء الشاسع المترامي على مدى البصر ، كذلك الذي يحسه البدوي في الصحراء التي يحبها وينتمي اليها .. حنين نحو الآفاق الواسعة في العاطفة ، وفي العمل ، فان السعة اليق شيء بالرجال : السعة في التفكير ، والسعة في العيش ! .. ان المكان الطبيعي للرجل ، ليس في حجرة استقبال العالم ، وانما في صحراء العالم ، بواحاتها البديعة !

ومع ذلك فها هو ذا في حجرة استقبال .. وهو في هذه اللحظة يحس بحنين قوى الى الخروج منها ، ولكنه يتوق أيضا الى ان ياخذ هـــذه المرأة من يدها ويجذبها الى الخارج معه .. وذكر كيف ان الشاعر « براونج » أحب امرأة كانت ترقد دواما في حجرة كالقبو ، وقد برح بها المرض حتى انها لم تكن تملك ان ترى ضوء الشمس أو أن تتنفس هواء الدنيـــا الطلق ، وكيف ان الشاعر حملها من هذه الحجرة الى قمم جبال (الابنين) .. فان مجرد التفكير في تغيير حياة انسان على هذا النحو كان أشبه بصيحة فرح عالية !

ـ ماذا هنالك ؟

هتفت مسز تشبستو بهذه العبارة ، وقد دهشت لهذا البهاء الذي شع فجأة من وجه نيجل .. كانت ترى امامها ـ للمرة الأولى ـ رجـلا لا تستطيع قراءة أفكاره ، ولكنه كان رجلا يروق لها مظهره الجسماني ، ويضطرها الى الاعجاب به .. وقد بدا رائع البهاء تحت تأثير سلطان داخلي ، كرياضي نصف عار يملأ رئتيه في بطء ، ويشدد الضغط بقبضتيه ، ويصلب عضلاته كلها .. وعادت تسأل : « ماذا هنالك ؟ »

ولكنه لم يجب .. وما كان في وسعه أن يخبرها ، فنهض لينصرف . وفيما كان يمر أمام « البيانو » ، نظر ثانية نحو النوتة الموسيقية للحن « حـــلم جيرونتيوس » .. ثم سألها : « امولعة أنت بهذا ؟ » ، فهتفت : « ماذا ؟ آه .. جيرونتيوس ! » .. وتركت نظراتها تستقر برهة قصيرة فوق وجهه ، ثم اردفت : « انني أحبه ، فهو يحملني بعيدا ، كما تحمل الروح على أجنحـــة الملائكة .. « لقد اعطيت هذا الطفل من الصلصال » .. هل تذكر ؟ » ، فلم يزد على أن قال : « نعم »

ثم ودعها وهم بالانصراف ٠٠ وكان آخر ما وقعت عليه أنظاره فى حجرتها كتاب « الحرف القرمزى » بغلافه الأبيض ، وقد استقر فوق منضدتها ٠٠ ونقل نظراته من الكتاب اليها ، قبل أن يخطو الى الخارج ويغلق الباب خلفه ٠ وما كاد يستدير فى الممر ، حتى رأى فتاة فرنسية أنيقة الهندام ، كانت عيناها شديدتى الاحمرار ، مما نم جليا على انها ظلت تبكى بمرارة فترة طويلة ٠٠ وكانت تحمل على ذراعها ثوبا نسائيا ، وتهم بدخول الغرفة التى تتصل بحجرة استقبال مسز تشبستو ، ففمغم نيجل يقول لنفسه : « يا للفتاة المسكينة ! ترى ما الذى دهاها ؟ » ٠ ومضى يجتاز الدهليز ، وينحرف يسارا ، ثم يهبط الدرج ويشق طريقه نحو شاطىء (التيمس)

أما مسز تشبستو فقد ظلت ـ بعد أن أغلق الباب خلفه ـ واقفة مكانها بالقرب من المعزف لحظة تنتظر ، كمن يتوقع عودة ضيف راحل ٠٠ ولكن نيجل لم يعد ثانية ليقول كلمة أخيرة نسى أن يقولها قبل انصرافه ٠٠ فلما أيقنت انه لن يعود ، مضت الى المعزف وجلست أمامه ، ولعبت على الأوتار موقعة أنغام القس وهو يطرد الروح خارج الجسد ٠٠ ولكنها لم تعزفها الا لحظة قصيرة ، ما لبثت بعدها ان تناولت النوتة الموسيقية وطوحت بها الى الأرض بعيدا عنها ، ثم بدأت تعزف لحنا راقصا أسبانيا ، ينبض بالاشتهاء ، ويفيض بالاغراء ، ويزخر بحرارة الجسد ، بقدر ما كان لحن « الجار » يزخر بنقاء الروح ٠ وراحت تؤدى اللحن فى براعة فائقة ، مثلما تؤدى الرقصة فتاة من أشبيلية تتدفق الدماء الحارة فى عروقها ! وما ان أوشكت أن تنتهى من اللحن ، حتى كفت عن العزف دفعة واحدة ، اذ طرق سمعها صوت فى الحجرة المجاورة ، فصاحت منادية : « هنرييت ! » ٠٠ ولكنها لم تسمع جوابا ، فعادت تهتف : « هنرييت ! »

وعندئذ فتح باب حجرة النوم ، وبدت خلاله الفتاة الفرنسية ذات العينين الحمراوين ٠٠ فبادرتها مسز تشبستو متسائلة : « لماذا لا تجيبين عندما أناديك ؟ منذ كم من الوقت وأنت هناك ؟ » ٠٠ فأجابت الفتاة فى صوت خفيض : « منذ دقيقة أو اثنتين يا سيدتى » ٠ وعادت مسز تشبستو تسألها : « وهل قابلت أحدا فى الممر ؟ » ٠ فأجابت الفتاة : « نعم يا سيدتى ٠٠ رأيت سيدا ٠٠ »

ـ هل كان خارجا من هنا ؟

ـ نعم يا سيدتى !

فسألتها : « وهل رآك ؟ » ، فأجابت : « بلا شك يا سيدتى » ٠ ولكن مسز تشبستو كانت تبحث عن نقطة معينة ، فعادت تسألها : « أعنى ٠٠ هل لاحظ حالتك ؟ » ، فقالت الفتاة : « اعتقد ذلك يا سيدتى » ٠٠ ولم تقنع السيدة بهذا الجواب ، فسألتها من جديد : « وهل شاهدك تدخلين حجرتى ٠٠ بهاتين العينين ؟ » ٠ واذ أجابت الفتاة : « نعم يا سيدتى » ، عبست مسز تشبستو حتى ظهرت

التجاعيد فى جبينها ، فاذا بوجهها ينقلب فجأة صلبا قاسيا .. وبدت عجوزا أنهكها الهرم ، وصاحت فى عنف : « يا للسماء ! لقد أتيت أفظع حماقة يأتيها انسان ! اخرجى .. اخرجى من هنا ! »

فانسحبت الوصيفة على عجل ، وهى تغلق الباب بينهما .. على حين غمغمت مسز تشبستو فى حنق بالغ : « يا لك من حمقاء ! » .. فقد كانت تعـرف قيمة الأثر الأخير الذى يبقى عالقا فى ذاكرة المرء !

وخرجت الى الشرفة تطل - من عل - على شاطىء النهر ، وترقب فى تراخ جمهرة المتنزهين والمارة الذين يزخر بهم .. ولم تكن تدرى أن نيجل بينهم ، يمشى وئيدا بجوار النهر ، وهو يرقب غروب الشمس ، ويفكر فى الشاعر « براوننج » ، وفى المرأة التى انتزعها الحب من الحجرة الشبيهة بالقبور ورفعها الى قمم الجبال !

الفصل السابع



• **كان** نيجل ارماين شديد العناية بعمله والاستغراق فيه .. كان من ذلك النوع الذى يسميه الناس « فذا » ! ولكنه مع ذلك كان اجتماعيا بطبعه ، وثيق الاتصال بالدنيا . فكان على علم باتجاهات الرأى العام وميوله ، وكان يدرك بجلاء كيف كان العالم ينظر الى الأفعال التى لا تتمشى مع ما اصطلح عليه الناس . ولم يكن عدم اكتراثه بهذه الحقيقة - أحيانا - دليلا على انه لم يكن يدركها .. فهو لم يكن بالمواطن الجاهل ، ومن ثم فانه حين

تعرف الى مسز تشبستو ، لم يصدر فى تعـرفه عن نقص فى الخبرة بآراء الناس واتجاهاتهم ، بل كان يدرك بجـلاء كيف ينظر ابن لندن العادى ـ الرجل الذى يلقاه فى المنتديات فى رانلى وهيرلينجهام ـ الى أية صداقة تجمع بينه وبين مسـز تشبستو ٠٠ كان يعرف ان رأيهم سيكون مصوغا فى عبارة من هذا القبيل : « لقد استطاعت مسز تشبستو أن تقتنص ارماين المسكين ! »

ولكن هل كان وهذه المرأة صديقين ؟ بل هل يمكن أن يكونا صديقين يوما من الأيام ؟ ٠٠ لقد التقى نيجل بمسز تشبستو مصادفة فى بهو فندق سافوى ٠ وكان اذ ذاك بصحبة خبـير بشئون السباق لا تجمعه به سوى معرفة سطحية ، وقد صادف ان كان هذا يعرف مسز تشبستو معرفة وثيقة ، فقدم كلا منهما للآخر فى غير اهتمام ، ثم أسرع منصرفا « ليسوى أموره مع مكتب المراهنات الذى يعامله » ٠٠ وهكذا بدأ تعارفهما عارضا فجا ، بلا مقدمات أو قصد ، فكيف يراد له أن يستمر ؟٠٠ أو: أترى من المحتمل أن يستمر ؟

وكان نيجل رجلا قويا وفى عنفوان شبابه ٠٠ الا انه لم يكن قديسا ! وقد بدأ يعجب من أمره ٠٠ كما ان ايزاكسون ـ الذى كان قد عاد الى المدينة فى تلك الأثنـاء ـ بدأ يعجب من أمره كذلك ! ٠٠ فقد كان الطبيب جم المشاغل خلال ذلك الموسـم الاجتماعى ، آذ كان كثير من الأمريكيين والأجانب يقبلون على استشارته ٠ وقد ظل متشبثا بالقاعدة التى وضعها لنفسه ، فلم يكن يقبل مريضا يطرق بابه بعد الساعة الخامسة والنصف، ولكنه قلما كان ينتهى من عمله قبل الساعة السابعة ٠ ولم يعد يرى نيجل كثيرا ، لأنه لم يكن يملك أن يرى أحدا الا لماما ٠٠ على انه صادفه أكثر من مرة ، وسمع الأحاديث التى تدور عنه، أكثر من مرة كذلك ! ٠٠ ومن خلال ما سـمع ـ وبالهام من

غريزته ــ استطاع أن يتبين موقفه مع مسز تشبستو ٠٠ وكان نيجل يتوق الى أن يكون صريحا مع ايزاكسون ، ولكنه ــ مع ذلك ــ لم يخبره الا بالقليل ، بدافع من التحفظ الغريب لعل المرأة هي التى أوحت اليه به فى دهاء وخبث ! ٠٠ ولكن أناسا آخرين أخبروا ايزاكسون بالكثير ، خلال تلميحاتهم الشريرة وضحكاتهم التى تشبه ضحكات الأبالسة !

ومن ثم استخلص الطبيب النتيجة : **فقد كان يدرك منذ البداية الأولى ان التعارف بين هذه المرأة ــ التى قضى عليها المجتمع بالدمار والتى ولى عنها الشباب وان ظلت رغم ذلك ساحرة تخلب الألباب ! ــ وبين هذا الشاب المتدفق حيوية وحماسا ، لن يكون أمرا هينا عارضا ، لأن المرأة أرادت له غير ذلك ٠٠ ولعل جموح الصفات المتأصلة فى أعماق نيجل أراد له غير ذلك أيضا ، دون أن يفطن الشاب ٠ فان التحمس أشبه بالسوط الذى يثير الجياد فتندفع بسرعة جنونية ، ولا يعود فى وسع أحد ــ ولا القوة الهائلة التى أطلقتها ــ أن يكبح جماحها !**

٠٠ فالى أين كان نيجل ماضيا على وجه التحقيق ؟

كان الرجال في الأندية يقولون فى ابتسام وسخرية انه ماض نحو علاقة آثمة ! ٠٠ بل قالوا أكثر من ذلك ، قالوا ان هذه العلاقة حدثت وأصبحت حقيقة واقعة ، وكانوا يعجبون من أن يرتضى رجل مثل ارماين لنفسه « نهاية سيئة » !! ٠٠ ولكن ايزاكسون كان يعلم ما فى هذه الأحاديث من باطل ٠٠ فلم تكن ثمة علاقة بعد ، ولكن هل تنشأ هذه العلاقة يوما من الأيام ؟ ٠٠ وهل عقدت مسز تشبستو عزمها على أن تنشأ هذه العلاقة ، أو أن نيتها كانت تتجه ــ منذ البداية ــ الى أمر آخر ؟

ولم يكن ايزاكسون يعرف ماضى نيجل تفصيلا ، ولكنه كان يتصوره ــ من وجهة نظره كرجل ــ نقيا الى حد غير معهود ٠٠ وان لم يذهب الى انه كان قديسا ٠٠ وكانت عينا الطبيب

الحادثان قد قرأتا طبيعة نيجل المتأججة ، ومن ثم فانه لم يخطىء فهمه وادراك حاله ٠٠ كان لابد لنيجل من أن يتزوج ٠ واذا كان لم يقدم على الزواج حتى الآن ، فما ذلك الا لأحزان ألمت به فى مستهل شبابه ، بعد أن ماتت الفتاة التى كان يحبها ! ولم يكن ايزاكسون يعرف ذلك ، فكان يعجب أحيانا ويتساءل عن السر فى ان امرأة لم توفق الى اقتناص هذه النفس المفعمة بالطموح والعاطفة ، والزاخرة بكل تلك الصفات الكفيلة باسعاد النساء الصالحات ! أما اذا قدر لمسز تشبستو أن تقتنصها ، فان سخرية الحياة تكون قد بلغت الذروة ! ٠٠ **ولكن ، هل كان فى وسع هذه المرأة أن تكسب حب نيجل ، كما استطاعت أن تكسب شفقته وشهامته ؟ وهل تستطيع أن توقظ أحاسيس الجسد فى هذا الرجل كما استطاعت أن توقظ نفســه ، وأن تصل خلال الجسد والنفس الى روحه ؟**

ثم ماذا بعد ؟ ٠٠ لقد تعرض اخلاص ايزاكسون الى امتحان أليم فى تلك الفترة من جراء صداقته ٠٠ ورغم انه كان غريب الأطوار ، مليئا بما جبلت عليه النفوس المرهفة الحس منعزوف عن الانسياق وراء الجماهير ، فانه سلك نفســه فى صفوف الجماهير ضد نيجل فى موضوع مسز تشبستو ٠٠ ومع ذلك فقد ظل نيجل ينشد فيه حليفا له ، ورفيقا لروحــه ٠٠ ولم يكن صريحا فى ذلك ، وانما كان دائم التلميح له فى مقابلاتهما العارضة القصيرة ٠٠ كان لسان حال نيجل يقول : « أنت وأنا فقط ، فليسقط للعالم قيمة لدى ! » ٠٠ كانت تعتمل فى أعماقه بواعث الشفقة والشهامة ونبل المشاعر وسمو الروح ، ولكن كان هناك عناد نفسه وحبها للنضال كذلك ٠٠ كان فى نيجل شىء ما يحب دائما أن يسند ظهره الى الجدار تأهبا للنضال !٠٠ وكان يريد أن يضع ايزاكسون فى عين الموقف الحافل بالنضال تجاه التيارات المتعارضة الجارفة ! الا ان هذه التيارات كانت فى الجانب نفسه الذى يقف الطبيب فيــه ! ٠٠ والواقع ان

ايزاكسون لم يأسف على قلة ساعات الفراغ المتاحة له ، لأنه لم يكن يعرف أى مسلك يستطيع أن يسلكه • فقد كان سر المهنة يقف حائلا دون اخبار نيجل بما قالته مسز تشبستو عن نفسها •• أما ما كان يقوله الآخرون عنها ، فانه لم يكن كافيا لأن يثير نيجل ضدها ، بل انه ربما جعله أكثر انعطافا نحوها !

ولم تكن العلاقة بين مسز تشبستو ونيجل قد تجاوزت – حتى ذاك الوقت – حدود التعارف • ولكن ، ها قد حانت اللحظة التى بدأ فيها نيجل يحس بأنه يريد منها ما هو أكثر من مجرد التعارف ، وبسبب هذه الرغبة الدافعة نحو المزيد ، بدأ يسائل نفسه عما اذا كان ينبغى له أن يقنع بالقليل !! •• وربما أوحت له خبرته بالدنيا ، أو لم توح له ، بأن الصداقة المطلقة من القيود ، الخالية من العراقيل ، مع مسز تشبستو ، أمر عسير ، اللهم الا من الناحية النظرية فقط •• وقد علمته التجارب ان الصعاب قد لا يمكن تخطيها أو التغلب عليها حتى لمن كان فى مثل حماسته وشجاعته ! فهل كانا صديقين ؟ وهل يمكن أن يكونا صديقين فى يوم من الأيام ؟!

وكان ثمة صوت يجيب فى أعماقه وهو يسائل نفسه هذا السؤال : «كلا !» •• فان النساء اللواتى يسلكن فى الحياة مسلكا معينا ، يفقدن القدرة على الصداقة اذا كن قد ملكنها فى يوم من الأيام ، لأن الحوادث تكون قد علمتهن ماقد تعلمه الغريزة للكثير من النساء ، من تقدير الناحية البدنية للرجل تقديرا يفوق ما هى عليه بالفعل !•• ومثل هاته النساء تبرز نظرتهن هذه فى كلامهن ونظراتهن وأفعالهن ، وفى اختلاف نبراتهن ، وفى كل هذه الأشياء التى لا يمكن تعريفها أو تحديدها ، ولكنها تخلق الجو الخاص بالشخص !•• وهذه النظرة تحرك عواطف الرجال ، فتخجلهم وتهيجهم فى وقت واحد •• وهى تعمل عملها فى الآله والوحش – الكامنين فى

نفس الرجل ـ على السواء ٠٠ فاذا بالآله الخجول والوحش الطروب يصبحان معا فى حالة لا تعرف الصداقة ولاتستسيغها! **٠٠ ولقد كانت لدى مسز تشبستو هذه النظرة الغريزية للمهمة التى خلق الرجل من أجلها ، فلم تستطع رغم مواهبها الدفينة ـ كممثلة بارعة ـ ان تخفيها تماما !**

وانتهى نيجل أخيرا الى حالة من الحيرة والتشكك أنذرته بأنه يجب أن يقرر أمرا ، فلا يتريث أكثر مما تريث ، وانما عليه ان يقطع فى الأمر نهائيا ، وان يقرر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ٠٠ اذ انه لم يكن بالرجل الذى يستطيع العيش مع التردد على وفاق ، بل كان يمقته حقا ، ويرى فيه مظهـرا من مظاهر الضعف ٠٠ أجل ، كان لا بد لهذا النضال بينه وبين نفسه من ان ينتهى على أى وجه !

★★★

◆ **وكان** شهر يوليو قد حل ، وأوشـك الموسم أن ينتهى سريعا ٠٠ وصلة نيجل بمسز تشبستو ٠٠ هل ينبغى ان تنتهى هي الأخرى ؟ ٠٠ انها قد تبلغ نهايتها على وجه طبيعى عادى ، فسوف يرحل عما قريب ٠٠ سيذهب الى اسكتلندا للاشتراك فى موسم الصيد ٠ وهى ؟ ترى أين تزمع الذهاب ؟ لقد جعله هذا السؤال يمعن فى التفكير ، كما اعتاد ان يفعل فى هذه الأيام الأخيرة ٠٠ التفكير فى عزلتها ووحدتها ،وهى حالة كانت لا تفتأ تلح عليه وتغلو فى الظهور وتأكيد تأثيرها على نفسه ، أما مسز تشبستو فلم يكن يبدو عليها أنها تفكر فى حالتها هذه ، ولا هى كانت تتحدث عنها البتة ٠٠ فقد كانت أوفر ذكاء وأعظم دهاء من أن تفعل ذلك !٠٠ ولكن هذه العزلة كانت تبدو واضحة كل الوضوح بطريقة أو أخرى ، على غير انتظار ، وعن غير عمد : كان اذا قام بزيارتها قلما وجدها فى الخارج ، واذا كانت بالفندق فانها كانت دائما وحدها ٠٠ وكانت

تستقبله فى بعض الأحيان وهى ترتدى القبعة وتقول انها عائدة للتو من الخارج ٠٠ وفى أحيان أخرى ، كانت تزعم ـ اذا ماهم بفراقها ـ انها تعتزم الخروج ٠٠ وبهذا وفقت فى تثبيت الشعور الذى خلقته فى نفسه من أنها امرأة تعيش فى عزلة تامة ، بلا مواعيد ، وبلا أصدقاء ـ كما هو ظاهر ـ تقضى أيام الصيف الطويلة فى وحدة مروعة ، وتعزف عادة لحن «جيرونتيوس» على المعزف الصغير المصنوع من الخشب الأحمر، أو تقرأ «الحرف القرمزى» أو غيره من الكتب العميقة الرصينة ! ٠٠ ولم يكن يرى فى مسلكها أى تصنع ظاهر ! والواقع انها كانت تبدى له فى بعض الأحيان استياء خفيفا ـ يكاد يصل الى حد الاستحياء ـ من فراغها ، وعدم دعوتها الى الحفلات والمجتمعات ، على هذا النحو ٠٠ ولقد ارتاب نيجل أكثر من مرة فى أنها انما كانت تكذب عليه ـ وتلك فى نظره كذبة بيضاء ! ـ كلما أخبرته عن العشاء الذى تناولته مع « بعض الناس » أو الاشتراك فى سهرة للعب الورق ٠٠ فقد لاحظ ـ عندما كانت تخبره بشىء من هذا القبيل ـ ان ذلك كان يحدث اثر ملاحظة عابرة ، أو ايماءة خفيفة ، أو حادث طفيف يوحى باشفاقه عليها !٠٠ وكان قد استشف ، من أعمالها ، تلك الكبرياء التى تحرك فى نفس المرأة ، الرفيعة المنبت ، الرغبة فى اخفاء مركزها التعس أو الاقتصاد فى اظهاره الى أقل الحدود !٠٠ **وكان يعتقد انها كانت ـ بقدر بعدها عن تعمد اثارة شفقته ـ تتعمد بكل مافى وسعها ان تتحاشى هذه الشفقة ! ٠٠ وهذا الاعتقاد ـ الذى كان له من الظواهر ما يبرره ـ زاد شفقته حدة ، وجعله يمضى فى شعوره شوطا بعيدا ٠٠ وهكذا وصل معها الى ماكانت ترمى اليه وتنشده !**

وكان يدير فى ذهنه حوارا بين رجل المجتمع العادى ـ الذى كان يعتقد انه يؤدى دوره ـ وبين الرجل ذى النخوة والشهامة، المندفع بغير وعى وراء عواطفه ، فيدعهما يبحثان الموضوع

ويناقشانه ٠ وقد حدث فى مرة او اثنتين ان راح يقول ويلح فى القول ، بأن امرأة كمسز تشبستو ، اشتهرت بجمالها عن حق ، وبأشياء أخرى ــ تختلف عن ذلك كل الاختلاف ــ افتراء وتشهيرا ٠٠ مثل هذه المرأة اذا اعتزمت الخداع ــ ولا شك ان رجل المجتمع يعتبر مثل هذه المرأة على عهد مقيم مع الخداع ــ فانها تحاول ان تضاعف فتنتها ، فتظهر بمظهر المرأة التى يتقرب اليها الرجال ويشتهونها ويحتفون بها ويجرون وراءها ٠٠ هكذا تفعل دائما المرأة التى من هذا الطراز ٠٠ ولكنها لا تحب قط ان يعرف الناس عنها انها غدت مهجورة غير مشتهاة ، لأن الرجال يرغبون عادة فيمن يشتهيها غيرهم من ابناء جنسهم ، اذ منذا الذى يرغب فيمن هى غير مشتهاة !٠٠ لذلك فان مسلك مسز تشبستو ــ حين مكنت نيجل من ان يشهد وحدتها ويتحقق من انفضاض الرجال عنها ، بمثل تلك السذاجة ! ــ اوحى الى الشاب بأنها تكاد تعتبر حمقاء ، جاهلة بطباع المجتمع ! وهكذا اقتنع الجانب الذى يمثل رجل المجتمع من شخصيته ، بينما أحنى الجانب ــ الذى يمثل الرجل المندفع المتحمس ــ رأسه !٠٠ ولقد أخطأ نيجل فى الحكم على دهاء مسز تشبستو بمقاييس ذكائه المتقد ، فان هذا الذكاء بالذات خانه فى هذا الصدد ٠٠ اذ ان ماقدره نيجل ــ على ضوء خبرته بالمجتمع ــ مصيرا محتوما لامرأة كهذه ، بدا لمسز تشبستو ، على ضوء خبرتها هى بالمجتمع ، مصيرا لا بد من تفاديه ٠ ذلك لأنها نادرا ما كانت تسلك الطريق الواضح فى الخداع ، كما ادرك ايزاكسون منذ اللحظة الأولى التى عرفها فيها ٠٠ وانما كانت تستهوى الناس بأن تفترض فيهم الحذق والفطنة ، وكانت ترى ان من الأصوب ــ فى الوقت ذاته ــ ألا تكون أكثر دهاء من دهائهم فحسب ، بل أشد ذكاء من ذكائهم !

وهكذا بثت الاشفاق فى نفس نيجل ، فنما هذا الشعور وترعرع ، حتى اذا حان الوقت لكى « يبت فى الأمر » ، أحس

بأن مسز تشبستو ستشعر بالوحشة لغيابه ـ اذا ما انتهى الموسم ـ لا بوصفه شخصا اصطفته لنفسها وأحست نحوه بميل خاص ، ولكن ٠٠ لمجرد انه بذر العنصر الانسانى فى حياة قاحلة موحشة ! ٠٠ وعندما تحدث ـ فى آخر لقاء لهما ـ عن نهاية الموسم الاجتماعى ، وما سيتبع ذلك من رحيل عن العاصمة ، قالت فى عبارات مبهمة : « آه ، نعم ٠٠ طبعا » ٠٠ فسألها : « والى اين تزمعين الذهاب ؟ » ٠ فظلت صامتة فى جلستها برهة ٠ واذ ذاك خيل اليه أن بوسعه أن يتبع خطوات تفكيرها ٠٠ فأيقن أنها تتدبر الأمر ، لترى ما اذا كانت تكذب عليه فتحدثه عن برنامج بهيج تبتكره من وحى الساعة لتخدعه ٠٠ ومنذ داخله هذا اليقين ، راح ينظر اليها وفى عينيه دعوة ملحة الى أن تخبره بالحقيقة ٠٠ بل لقد ظن انها استجابت لدعوته هذه ، عندما قالت فى النهاية : « ليست لدى أية خطة معينة ، وأحسبنى سأبقى هنا فى هدوء ! » ٠٠ وهكذا لم تدع له الفرصة ليدعوها لمرافقته ، ثم غيرت مجرى الحديث فى الحال الى بعض الموضوعات الأخرى ، فظن ان الكبرياء قد عادت تنهشها من جديد !

نعم ٠٠ لسوف تشعر بوحشة لغيابه ٠٠ اذ لا بد من أن تفتقد اى امرىء ساقته المصادفة الى ان يبدد عنها وحدتها وعزلتها ٠٠ لكم عجب فى نفسه لهذه العزلة الكاملة الشاملة ٠ ولقد عاد يعجب لها ـ وهو يفكر فى تلك المرأة ـ فان لكل امرىء أصدقاءه ، والمقربين اليه ، سواء أكانوا يروقون له أم يضجرونه !٠٠ فمن هم أصدقاؤها ؟٠٠ ان النساء المعروفات قد «قاطعنها» منذ زمن بعيد بطبيعة الحال ٠٠ ولكن كانت توجد نساء أخريات فى لندن بجانب اولئك المعروفات ٠٠ كانت هناك البوهيميات اللامعات ٠٠ وكانت هناك نساء بارعات ينتمين الى المجتمع الراقى ، ولكن لهن فى الحياة «نهجا خاصا» ، فهن يدرسن فى دقة تامة الأصدقاء الذين يصطفينهم او الذين

يروقون لهن ويجتذبونهن ! ٠٠ كما ان لهن اصدقاء مخلصين أوفياء فى أوقات الشدة وتقلبات الحظ ٠٠ فأين اصدقاء مسز تشبستو الأوفياء ؟٠٠ لم يجرؤ على ان يسألها عنهم !

وعادت به الذاكرة الى زيارته الأولى لها ، لا فى حنين عاطفى سخيف ، وانما فى اهتمام هادىء : الحجرة الخالية المطلة على النهر ، المعزف المفتوح وعليه النوتة الموسيقية ، الورود القليلة والكتب ٠٠ تذكر اذ ذاك « الحرف القرمزى » بغلافها الأبيض ٠٠ واستشهاد مسز تشبستو بآية من الانجيل لتفسير اختيارها لهذا اللون لتجليد القصة ! لقد توقفت اذ ذاك عن متابعة الحديث بغتة ، فلعل ذلك كان من جراء شعورها المفاجىء بانطباق الآية عليها !٠٠ وعندما جلسا الى الشاى ـ يومذاك ـ قالت عن الحلوى التى كانت لذيذة حقا : « لقد أمرت باعدادها خصيصا لك ومن أجل وليمتنا الصغيرة » ٠٠ كانت فى كلماتها بساطة عظيمة ، وكذلك فى صوتها وهى تنطق بها ٠٠ لقد كانت فى عزلتها ووحدتها ترى فى قدح من الشاى تشربه معه «وليمة» ! ٠٠ وأخذ يتصورها وهى تجلس وحيدة فى هذه الحجرة فى شهر أغسطس ، بينما المدينة قد اقفرت اذ لفحها الحر بنيرانه وهجرها نصف سكانها ٠٠ ترى كيف يمكن ان تقضى هذه الأيام ؟

وراح يقارن بين حياته وحياتها ٠٠ أو على الأصح الحياة التى كان يخال انها حياتها ٠٠ لم يحدث له قط من قبل ان أدرك ما كان فى حياته من بهجة وبريق ، بل من تألق يخطف الابصار ٠٠ ما كان فيها من التنوع والتبدل ، والنشاط المتعدد الوجوه ، والعمل الشاق ، والعرق المتصبب مع عماله السمر فى السهول الرملية عند حافة (الفيوم) ٠٠ ثم ما كان فيها من نشاط رياضى ، وصداقات ، وساعات مليئة بالنشاط ، وأخرى يسودها الهدوء ٠٠ لكم كانت ذكراها حبيبة الى قلبه ، لندرتها !٠٠ انها حياة طيبة ، بل هى حياة

جليلة حقا ! ٠٠ انه الآن فى لندن ، وعما قريب سيصبح فى اسكتلندا ٠٠ ثم يحل آخر الخريف ، فالقطار ، فمنظر البحر، فصفير الباخرة ، فضجيج الآلات ٠٠ وبعد ذلك مصر !٠٠ الشتاء ذو الشمس المشرقة ، وأناشيد العمال ، وابتسامات الفلاحين ٠٠ واستصلاح الصحراء واعدادها للزراعة !٠٠ أجل ، استصلاح الصحراء !

* * *

• **وكان** نيجل وحيدا بحجرته فى فندق سافوى ، وقد شاب فودا الليل ٠٠ كان يرتدى بيجامته ، ويدخن سيجارا بجانب النافذة المفتوحة ٠ ونظر الى السجادة الحمراء التى استقرت فوقها قدماه فى الخفين الاحمرين ، وعندئذ تبين فجأة جمال ما كان يفعله فى الفيوم ٠٠ انه لم يفكر فى ذلك حقا من قبل على هذا النحو ٠٠ لم يفكر فيما يفعله من استصلاح الصحراء ٠٠ أما الآن وهذه الصور تطوف بذهنه، فقد سرت فى عروقه نشوة السرور ، وخفق قلبه وراح يتطلع فى حنين وحب الى الشتاء !٠٠ **ولكن شتاءها هى ٠٠ ترى كيف يمكن أن يكون ؟٠٠ ما أعظم الفارق الذى يمكن ان تحدثه فى حياة امرىء وحيد منعزل ، عاطفة صادقة ، مؤمنة ، ملهمة ؟ ٠٠ عاطفة واحدة فقط ، ففى ذلك الكفاية ٠٠ فاذا بالصحراء الرملية تغدو ناضرة !**

وتمثل حقول القصب وهى تتماوج ، وعيدان الذرة الطويلة وهى تتمايل مترنحة تحت هبات النسيم ، فى بقاع لم يكن فيها من قبل سوى الرمال القفراء ٠ وما لبث ان أحس بوجنتيه اللتين لوحتهما الشمس تضطرمان وقد سرت فيهما الدماء الحارة !٠٠ النجاح ! التقدم ٠٠ لكم يجب ان يفكر فيه مليا ، وفى تلك اللوحة الرائعة التى رسم فيها « وات » التقدم بألوان قدسية وضاءة ٠٠ تلك اللوحة التى كانت غرامه الاكبر

٠٠ كانت لمسة من لمسات العبقرية الخالدة ! ٠٠ فان على كل امرىء ان يؤدى نصيبه من الواجب ٠٠ أجل ، على كل انسان ان يقوم بنصيبه في مضمار التقدم !٠٠ ترى كم من النـاس في هذا الفندق العظيم كانوا يعملون عن علم ويقين فى سبيل هذه الغاية ؟!

وثار الانفعال فى أعماق نفسه ، فراح يفكر فى الصـفوف تلو الصفوف من الغرف المرقومة فى هذا المبنى الشامخ ، وفى كل منها ــ وراء كل رقم من أرقامها ــ عقل خلق ليفكر ،وقلب ليحس ، وروح لتتوثب وتطمح ، وجسد ليعمـل ويكد ٠٠ ووراء رقم حجرته ، كان هو نفسه موجودا ، فمـا الذى كان يعمله ؟ وما الـذى ينبغى أن يعمله ؟٠٠ وما عتم أن نهض من مجلسه ، وأخذ يسـير فى أرجاء الحجرة ، ولمـا يزل يدخن سيجاره ٠٠ وضايقه احتكاك خفيه بالسجادة ، فطوح بهمـا بعيدا ومضى يسير بقدميه السمراوين حافيتين ٠٠ لقـد كان غالبا ما يمشى حافيـا فى الفيوم كعماله سـواء بسواء !٠٠ **ما الذى ينبغى أن يعمله ليؤدى نصـيبه فى الدوران البطىء لعجلة التقدم الجبارة ؟٠٠ يجب ان لا يكون واحـدا من الذين يتشدقون بالكلام ويهذون فى الحديث عن جلائل الأمور ، ثم لا يفعلون شيئا البتة فى سبيل اخراجها الى حيز الوجود !٠٠ انه يحتقر الذين يملأون الدنيـا بعاصفة من الـكلام ، ولا يعملون شيئا على الاطلاق ٠٠ انه لن يكون واحدا منهم ! ٠٠** انه حين جلس ــ فى هذه الليلة ــ « لينهى هذا النضال بينه وبين نفسه » ، كان يفعـل ذلك من أجل ذاته هـو ٠٠ كان أنانيا ، اذ انصرف جل تفكيره الى نفسه ، وان كان قد أشرك فى هذا التفكير شخصا آخر ٠٠ ولكن الرجال فى سـاعات وحدتهم وانفرادهم لا يفكرون عادة الا فى أنفسـهم !٠٠ ولم يكن نيجل أنانيا بطبيعته ، ومن ثم فانه سرعان ما نسى نفسه تقـريبا ، وراح يفكر فى مسز تشبستو أكثر مما كان يفكر

فى نفسه .. وأخذ يفكر فيها من جديد على أســاس صلتها بدوران عجلة التقدم الجبارة . وبعد آن كان يفكر فيها وحدها على هذا الاساس ـ فى البداية ـ تحول يفكر فيها وفى نفسه معا !.

ومن العسير حقا ان يقوم المرء وحده بعمل ما .. عمــل يستحق الأداء والتقدير .. وهذا ما خطر لنيجل فرآح يمعن التفكير فيــه .. لا بد دائمــا من بعض الدخــلاء ـ الدخلاء المشكورين ـ الذين يتقدمون للمســاعدة بوعى أو بغير وعى منهم ! ان الرجل يضع كتفه الى العجلة ليحركها ، فيرى أمامه كتف رجل آخر ، وعندئذ يستمد من هــذآ المنظر مزيدا من الشجاعة والجلد !.. وحمله تفكيره فى النشــاط الدؤوب على أن يفكر فى الســكون المطلق الذى يلازم مســز تشبستو . لقد رآها جالسة .. دآئما جالسة فى حجرتها ، بينمــا الحياة تتدفق فى الخارج . ورأى وجهها الشاحب .. أما ان وجههــا قد اكتسى هذا الشحوب البديع بفضل الصنعة والفن ، فذلك ما لم يخطر له عــلى بال ! وقفز به الفكر الى مسز براوننج ـ زوجة الشاعر ـ وقمم الجبال آلتى ردت اليها الحياة !

* * *

◆ **ماذا** تراه فاعلا ؟.. وأخذ يبذل جهدآ عقليا خارقا لكى « يسيطر على نفسه » ، وهو ما كان يمكن ان يعبر به عن هذا النضال .. وكان عليه بعدذلك ان يفكر فى الامر .. على انه ينبغى أن يخفف من حماسته ، ويهدىء من فورته ، ويتخــذ جادة التعقــل حتى يمكنه ان يتــدبر آلامر ويحسب له كل حساب !

وفكر فى الفتاة التى أحبها منذ عهد بعيد ، وقدر لهــا ان تموت .. انه منذ وفاتها قد أقصى الحب عن قلبه . وكانت تلم به ـ بين الحين والحين ـ صــورة عابرة للحب .. شبح باهت

للحب الحقيقى ! فمن العسير على رجل قوى ، فى عنفوان شبابه وزهرة أيام حياته ، ألا يكون له شأن بالحب أو شبحه ! ولكن ايزاكسون كان على حق فيما حدسه ، فقد كانت حياة نيجل أكثر نقاء وأوفر طهارة من حياة معظم الرجال ٠ وكثيرا ما كان النضال ينشب بينه وبين نفسه ، وبينه وبين ميوله ورغباته الطبيعية ، نتيجة تقديره للحب ، وسمو هـذه العاطفة فى نظره ٠٠ ولكنه لم يكن يخرج دائما من هذا النضال منتصرا ٠٠ على ان ذلك النضال نفسه كان قد « فتل » عضـلات ارادته وقواها ، كما ان كل « سقطة » كانت تجعله يرى ذلك الحزن، بل لعله الرعب ، المرتسم على شبح الحب الحقيقى ، بمزيد من الوضوح !!

ولقد ظلت مسز تشبستو سنين عديدة ترعى ذلك الشبح، وتعيش معه ، اذا صح ما كان يقال عنها ٠٠ **وما كان نيجل ليخدع نفسه فى هذا الصـدد ، اذ انه لم يكن بالذى تسوقه عواطفه الى أن يرفع العاهر الى مقام الملائكة ، كما يفعل الغلمان عادة ! ٠٠ لاشك فى ان مسز تشبستو سلكت مسلكا معيبا فى حياتها ، وبطريقة ربما كانت تبعث على الاشمئزاز بقـدر ما كانت تبعث على الاشفاق والرثاء !٠٠ ولكنها كانت تطوى جوانحها على رقة شعور وكبرياء ناشـئة عن عراقة الأصل ، وعـلى تحفظ غريب كذلك ٠ وكانت لا تزال تحتفظ بذوق يجعلها تحب الاشياء الجميلة الرائعة ، وتعنى بالاشـياء التى تمتاز بالطابع الروحى !** وتذكر زيارته الاولى لهـا : البيانو المفتوح ، و « امضى فى رحلتك أيتها الروح التقية » ، و « الحرف القرمزى » ٠٠ واستشهادها بآيات الانجيل !٠٠ ترى ما الذى كانت تفكر فيه وهى تعزف لحن « الجار » ذا الانغام السماوية المتجردة من الدنيوية الى حـد عجيب ؟ أو وهى تقرأ كتاب هوثورن المثير للشجون ؟٠٠ كانت ـ ولا بد ـ تلجأ الى الفن كمنفذ للفرار من الحياة ، على غرار ما يفعله الكثيرون ٠٠ ولكنها

لم تكن تفر الى الدنس أو العربدة ، ولا الى صالونات اللهو أو الأوكار التى تهتك فيها الاسرار ، وانما كان فرارها صـوب الفضاء الفسيح ، مع « الملاك » - فى « حلم جيرونتيوس » - والى الغابة مع « هيستر » و « بيرل » الصغيرة فى « الحرف القرمزى »

فلماذا لا يمكن لهما ان يظلا صديقين ؟.. وتكلم جسده مجيبا عن هذا السؤال . واذا به ينحى على نفسه باللائمة من جراء هذا الجواب ! .. ونقم - فى تلك اللحظة - على نفسه ، وسخط عليها ، ولعنها ! وما لعنهـا لانه كان سقيم الفكر ، وانما لعنهـا لانه كان سليم العقـل ، ولانه أدرك ان الميول الخبيثة - التى تجلت فى ذلك الجواب - انما أثارتهـا معرفته بماضى مسز تشبستو .. وكانت فى هـذا حيوانية لابد من القضاء عليهـا .. يجب ان تطمس فلا تبين آثارها ، اذ انه ما كان ليرضى لنفسه أن يكون من ذلك الطراز من الرجال .. ولكنه أحس مـع ذلك بأنه من ذلك الطراز بالفعل الى درجة تجعل صداقته لمسز تشبستو متعذرة ، ان لم تكن مستحيلة ! .. ولو أن الحب هو الذى قاده الى هذه الميول ، فانه - وهـو الذى لا يزعم العصمة لنفسه - كان خليقا بأن يقـدرها وان يعتبرها أمرا طبيعيا خالصا من كل شائبة .. ولكنه لم يكن يحب مسز تشبستو ، ولن يقـدر له آن يحب - ذلك الحب الحقيقى - مرة أخرى بعد فتاته التى ماتت ! .. لقد ظل يردد هذا لنفسه سنوات ، وكان يؤمن بصـدقه . وحتى لو انه استطاع أن يجدد فى نفسه هذه القوة الغريبة - قوة الحب - فلن يكون بوسعه ان يحب امرأة غير طاهرة .. لقد كان موقنا من ذلك .. وكان كلما فكر فى الامر ، قارن بين الفتاة الميتة ومسز تشبستو . **أما الليلة ، فقد تعذر عليـه ان يتمثل فى ذاكرته بجلاء صورة الفتاة الميتة ووجهها ونظراتها ، بينما كان بوسعه أن يتصور فى مخيلته شكل مسز تشبستو كاملا ، اذ كان قد رآها فى ذلك اليوم بالذات .. أما الفتاة التى أحبها ،**

فقد ماتت منذ سنوات عديدة ، واصبحت فى ذاكرته رمزا للطهر والجمال أكثر منها كائنا بشريا !

وما كان من المحتمل أن تجد مسز تشبستو - فى حالها هذه - رجلا يحبها باخلاص ٠٠ ولكن ، لم لا ؟ ٠٠ وتحول نيجل فجأة فراح يحاسب نفسه ، كما اعتاد ان يفعل كلما وجد انه ينساق مع الرأى العام لجمهرة الرجال ٠٠ أجل ، لم لا ؟٠٠ **ان الكتف التي تدفع عجلة التقدم هى دائما كتف الحب ٠٠ حب فكرة معينة ، حب امرأة ، حب الانسانية ، حب العمل ، حب الله !٠٠** لسوف يضحك - كل الرجال الذين كان يعرفهم ، أو جلهم - لمجرد التفكير فى ان مسز تشبستو قد تجد من يخلص لها الحب ، ولكن ضحكهم ينبغى ان لا يكون ذا أثر على روح أو قلب ملىء بالرجولة !

وأحس بشىء من الحنق عليها لما كانت تأخذ نفسها به من وحدة وجمود كانا يؤلمان شهامته ، ويصفعان عاطفة الاشفاق فى نفسه ٠٠ لو انه استطاع أن يتصورها وقد نفضت الجمود عن نفسها ورحلت - هى الاخرى - عن لندن لتطوف بسويسرا أو ايطاليا أو أى مكان جميل آخر ، لارتاح باله واطمأن ٠ ولكنه كان يتمثلها دائما جالسة فى تلك الحجرة ، وحيدة ، مهجورة ، تعزف على « البيانو » وتقرأ الكتب ، دون أمل فى ان تحظى بأنيس ، أو ان تبدل من جو حياتها ٠٠ والواقع ان مسز تشبستو أتقنت القيام بدورها ، واستطاعت أن تطبع على مخيلة نيجل صورة لنفسها محفوفة بالوحدة والعزلة !

* * *

◆ **وكان** لا يزال يذرع الحجرة بقدميه الحافيتين ٠٠ ولكن سيجاره كان قد انطفأ وان ظل بين شفتيه ٠٠ وكان الوقت متأخرا ، وقد دنا الهزيع الاخير من الليل ٠ وسمع نيجل ساعة بعيدة تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وما كاد ينتهى طنينها

وطنين ساعات أخرى فى مواضع قريبة أو بعيدة فى المدينة ، حتى انبعثت فى أعماقه تلك الافكار التى يوحى بها الليل الى رجل شاب فى عنفوان قوته : اذا لم يكن من المستطاع ان تقوم بينه وبين مسز تشبستو صلة من الصداقة ، أفلا يمكن ان يكون بالنسبة اليها .. ذلك الشىء الآخر ؟!

ورفع يده الى شفتيه فانتزع السيجار من بينهما وطوح به من النافذة فى عنف .. وكان هذا العنف البدنى صدى لما كان يعانيه من صراع عقلى ! .. انها قد تسمح بشىء كهذا ، فهى « كثيرا » ما أنشأت ـ اذا صدق نصف ما يقال عنها ـ مثل هذه الصلة مع رجال آخرين ، ولكنه لا يريد ان يصدق «كثيرا» هذه ! .. انه يريد ان يصور الامور على نحـــو جد مختلف : فليس من ريب فى انها أقامت مثل هــــذه الصلة مـع بعض الرجال ـ لعلهم كانوا اثنين أو ثلاثة وان كانت الشـائعات الفاضحة قد ضاعفت من عددهم ! ـ فيما مضى من حيـاتها .. فهل تراها ترضى باقامة مثل هـــذه الصلة بينهـا وبينه اذا ما سألها ذلك ؟! وهل تراه يسألها ذلك يوما من الايام ؟!

وألقى بنفسه ثانية على مقعده الكبير ذى المسندين ، وراح يحدق فى قدميه العاريتين وقد اســـتقرتا على الارض ثابتتين راسختين . **ولكنه لم ير قدميه ، وانما كان يرى ذلك «الشبح» البشع .. شبح الحب المسخ ! ذلك الطيف الفظيع ، الملعون ، المدمر .. ذلك الدعى الذى يذهب فى الزيف الى أبعد الحدود ! .. لقد ظلت تعيش مع الشبح حتى غدا وجهها شاحبا باهتـا كالاشباح !** .. لقد كان فى لوحة « التقـدم » ـ التى شغف بها نيجل ـ وهج هائل ، واشراق متألق يشع فى الفضاء حتى الأفق البعيد .. ومن الجهد الصادق لادارة عجلة التقـــدم ، يستطيع الرجل أن يبعث تألقـــا فى وجنتى المرأة .. تألق الغبطة ، لا تألق العار ! .. أما السكوت على « نهاية سيئة » ـ وهنا استخدم نيجـــل فى تفكيره الاصطلاح الذى يطلقـه

الساخرون فى المنتديات على المرأة التى تفقد مكانتها وسحرها !

ـ فأمر لا يمكن ان يطاق !

وتلاشى الشبح فجأة ، فعاد نيجل يرى قدميه السمراوين فى وضوح ، واذا مرآهمـــا يبعث للتو فى ذهنه التفكير فى الشمس ، وفى العمل ، وفى الحياة الطيبة ، الحقيقية ، المليئة بالوهج والضياء !٠٠ لا ، لا ٠٠ انه لن يرتضي لنفسه انيتجه بذهنه الىشيء من هذهالافكار الوضيعة الحيوانية ، التى لايطيقها ولا يحتملها ! وذهبت عنه فكرة الصداقة ـ التى خطرت له ـ الى غير رجعة ، واذ ذاك تنفس تنفسا طويلا عميقـــا ، وطوح بذراعيه الى أعلى حتى تهاوت أكمام منامته (بيجامته) فبلغت كتفيه ، مسفرة عن الساعدين السمراوين القويين ، فراح يحملق فيهما ، مثلما كان ينظر الى قدميـــه ، ويتحسسهمـــا ويربت عليهما ، وقد أطربه ما فى الصحة الكاملة من رواء ٠٠ ولكن صحة العقل والقلب وسلامتهما أمر ضرورى لاستكمال صحة البدن وسلامته !٠٠ وأحس فجأة بنفسه قويا ٠٠أحس بأنه أوتى من القوة ما يكفى لاكثر من واحد ، كمـا ينبغى ان يكون الرجل حقا ٠٠ قويا لنفسه ولأنثاه ، لتلك التى تخصه بحبها ونفسها ، وتثق فيه وتعتمد عليه ، وتمحو من مخيلتها جميع الرجال الآخرين من أجله وحده ، شأن المرأة الوفية !

هل قضى عليه اذن بهذه الوحدة الابدية ، بسبب الفتـــاة التى قضت نحبها منذ تلك السنين العديدة ؟٠٠ لقـــد كانت حياته جدباء قاحلة ، مفعمة بالوحدة ، شأن كل حياة خلت من الحب ، مهما يبلغ من تألقهـــا وازدحامها بالنشاط والعمل الدائب ٠٠ لقد أدرك ذلك ، فخطر له خاطر كان فى حـــد ذاته طبيعيا ومتسما بالاثرة فى الوقت نفسه ، وهو : أى بهاء لا بد ان يجده الرجل فى ان يكون وحده أثيرا بحب امرأة ٠٠ **وما أعظم الحب الذى يمكن ان توليه امرأة ، هجرها الرجال وتخلى عنها العالم ، للرجل الذى يأتى اليها ـ كالفـــارس فى**

الغابة ! ـ فيحملها بعيدا ، ويمزج حياتها بحياته ، ويعيد اليها كرامتها وعزة نفسها ومكانتها بين النساء ٠٠ وفوق كل شيء : ذلك الشعور الذى تحله المرأة من نفسها فى أعزموضع بين المشاعر الاخرى ٠٠ شعورها بأن « هناك من يبتغينى »٠٠ انه ولا بد أمر بديع ان يجد المرء نفسه محبوبا كما سوف تحبه مثل هذه المرأة !٠٠ وفى تلك الليلة سارت مروءته ـ التى كانت تدفعه بوحى الغريزة الى العناية بالاشياء المهجورة ـ جنبا الى جنب مع أنانية الرجل الابدية وأثرته الخالدة ، وهو يتخيل مسز تشبستو ـ للمرة الاولى ـ وقد تزوجت ثانية من رجل لا يعنى ألبتة برأى العالم ، أو انه يعنى به كثيرا الى القدر الذى يلذ له معه ان يتحداه ويهزأ به ! ترى كيف تصبح فى غمرة الحب المنطلق دون تحفظ ؟

وعندئذ بدأ يتساءل عن كنه ذلك الجزء من طبيعتها المخصص للحب ، المكرس له ! ٠٠ لقد كانت معه دائما آية فى البساطة ، وكانت تبدو معه غاية فى الصراحة ، غير انه يحس الآن انها كانت فى بساطتها وصراحتها دائمة التحفظ والحذر ، الى درجة تكاد تعد غريبة من مثل هذه المرأة !٠٠ ولعل تحفظها ذلك كان ردا منها على افراطه فى اظهار الاحترام نحوها ٠٠ فقد كان ـ مراعاة لمركزها الدقيق ـ يبدى لها من ضروب الاحترام أكثر مما كان يبدى للنساء الاخريات ، متبعا فى ذلك وحيا من طبيعته التى فطر عليها ٠٠ فكيف يمكن ان تبدو اذا ما تجردت من التحفظ ، فى غمار حب عظيم ؟

وهكذا اضطرمت النار فى احشاء نيجل وبدأت تتأجج فى ضراوة ، فراح يحس ـ عن وعى ويقين ـ بسحر هذه المرأة وفتنتها ٠٠ وما من ريب فى انه كان دائما أسير هذا السحر الى حد ما ٠ ولقد أدرك ايزاكسون ذلك ـ فى تلك الليلة ـ عندما رأى نيجل يقرب مقعده من مقعدها على مائدة العشاء فى سافوى ٠٠ ولكن نيجل كان أسير هذا السحر دون ان يقول

لنفسه قط : « لقد وقعت في الأسر » ! ٠٠ بل انه لم يعترف قط بأنه وقع فى هـذا الأسر ، ومن ثم أثار ادراكه المباغت لتأثير سحرها عليه ، انفعاله الى حد كبير ٠٠ فهل قدر عليه ، بعد تلك الحقبة الطويلة من السنين ، أن تنتابه ثانيـة تلك الحمى القوية ، ونحو امرأة شد ما تختلف عن تلك التى أحبها فى المرة الاولى ؟! لقد كانت هذه تقف فى شـبابها الطاهر الغض عند طرف تلك السلسلة من الاعوام ، فهل تقف مسز تشبستو حقا عند الطرف الآخر ؟

وخيل اليه انه يرى الاثنتين ، وقد راحت كل منهما تتطلع الى الاخرى خلال هـذا الفراغ الذى أقامه الزمن ، فانقبضت أساريره لحظة ٠٠ ولـكنه كان قد تغير أثنـاء اجتيـازه ذلك الفراغ ٠٠ كان فى ذلك الحين ـ حين غرامه الاول ـ صـبيا قلقا متقد الرغبة في غمرة شبابه المتوثب !٠٠ **أما الآن فقد غدا رجلا شديد البأس ٠٠ وفى خلال الفترة التى فصلت بين الصبى والرجـل ، ترعرع حبه القوى للانسـانية ، وعاطفته الجياشة نحو تقدم الخير الكامن فى كل مكان مثلما يكمن التبر فى الارض التى تحوى عروق الذهب !٠٠** ولعل هذه العاطفـة لم توهب له الا ليسـتطيع ان يجمـع بين الحبين : حبـه لخير الآخرين ، وحبه لتلك المرأة !٠٠ وخيل اليه عندئذ انأسارير المرأتين قد لانت وسـادتها طمأنينة ٠٠ آن مثل هـذا الحب الجامع قد يتوج حياته بهالة من البهاء والسمو !

كان نيجل يفكر فى ذلك فى حماسـه المشبوب الذى فطر عليه ، والذى كثيرا ما كان يضعه فى معزل عن سائر الرجال ٠٠ وكان يرى انه اذا ما عاش فى ظل هذه الهالة من البهـاء والسمو ، فما أعظم قدرته على تحدى الرأى العام ٠٠ سـوف يكون لضحكات الرأى العـام وقع الموسيقى فى مسـمعه ، ولكلمات السخرية تأثير يثير ابتسامه ٠٠ ومع ذلك فقد كان ينبغي ان يفكر ٠٠ وان يطيل التفكير !

وانبعث قافزا من مقعده ، وراح يجذب كمى منامته ويثنيهما حتى بلغا كتفيه ، ثم انثنى الى النافذة يتطلع الى الليل البهيم ، وقد تعرى ساعداه ، وأسند وجنتيه الملتهبتين الى راحتيه !

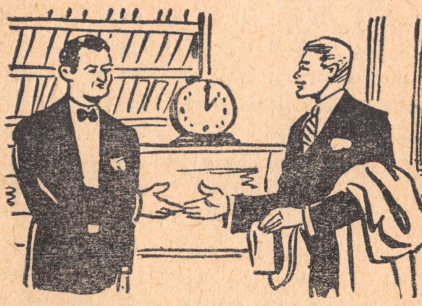
الفصل الثامن

◆ كانت مسز تشبستو قد قالت لنيجل : « احضر الدكتور ايزاكسون لزيارتى ، اذا رغب فى الحضور » .. ولكن الطبيب لم يذهب اليها قط ، بالرغم من ان نيجل اخبره بما قالت ، وردده عليه أكثر من مرة . وكان يتحاشى هذه الزيارة متعمدا ، دون ان يبدى انه قصد الى تحاشيها .. فقد كان نيجل يعلم تمام العلم ان صديقه لم يكن يحظى بساعة فراغ واحدة اثناء النهار .. وكان بوسعه ان يذهب فى أحد أيام الآحاد ، ولكنه للمصادفة – او هكذا تعمد ان يبدو الأمر – كان يقضى أيام الآحاد بعيدا عن المدينة .. وكان يردد لنفسه: « ماجدوى ذهابى ؟ » .. كانت لديه تلك الكراهية التى يستشعرها ذوو النفوس الحساسة نحو التدخل فى شئون الآخرين ، فضلا عن شعوره الغريزى بانه قد يفقد صداقة نيجل اذا هو حاول ان يؤدى دور الصديق كما ينبغى .. فقد يصطدم بعد نظره وصدق بصيرته بتحمس نيجل واندفاعه العاطفى .. كما قد يبدو ادراكه الرزين بطبائع البشر والدنيا ، قسوة جامدة بالنسبة لكرم نيجل وتهافته فى الاشفاق !.. وكان ايزاكسون يشعر – فوق كل هذا – بنفور شخصى قوى نحو مسز تشبستو .. نفور كاد ان يكون ملموسا ، اذ ان الجزء اليهودى من نفسه أدرك تمام الادراك ذلك الجزء الجشع من نفس تلك المرأة !.. ولقد كان يكره يهوديته فى الوقت الذى كان يعترف بها فى أعماق نفسه ! على انه نادرا ما أظهر هذه الكراهية – ولو على سبيل الرياء – كما انه نادرا ما اظهرها بطريقة فظة فجة كما يفعل كثيرون من ذوى الدم اليهودى فى عدائهم للعنصر السامى ! .. ولكن هذه اليهودية ظلت تنبض بالحياة فى أعماقه ، وكانت فى صراع مستمر مع شعور كان يكمن فى الناحية الفنية من فطرته .. شعور «عالمى» يتضاءل بجواره الشعور العنصرى !.. وكانت الأمجاد الفنية والروائع تذكى هذا الشعور بالعالم فى نفسه ، فكان يرى فى حبه للفن أسمى مظاهر هذا الشعور

واذا كانت عقلية ايزاكسون اللماحة قد جمعت بينه وبين نيجل ، فانيهوديته جمعت بينه وبين مسز تشبستو ، بشكل آخر ، اذ كان هناك ثمة رابطة من التنافر ، ورابطة أخرى من التعاطف .. وكان ايزاكسون يدرك ان التنافر – مثله فى ذلك مثل التعاطف – خليق بأن يربط بينه وبين مسز تشبستو ،

ومن ثم فان غريزته راحت تحمله على ان يتحاشاها حتى لا يدع مجالا لهذا الارتباط .. ولكن الظروف التى تعاقبت جعلته يوقن ان الذى يخاف شيئا لا يلبث ان يفاجأ به !

.. كان موسم النشاط الاجتماعى ينصرم بسرعة موشكا على نهايته ، عندما اقبل نيجل - فى ساعة جد متأخرة من احدى الليالى - الى المنزل القائم بميدان (كليفلاند) .. وكان ايزاكسون قد عاد لتوه بعد ان تناول العشاء فى الخارج ، عندما دوى رنين جرس الباب ، فخشى ان يكون الطارق قد جاء ليدعوه الى عمل من اعمال مهنته .. وما لبث ان تنفس الصعداء عندما جاء خادم - أثقل النعاس جفونه - يسأله ان كان يود ان يستقبل مستر ارماين .. والتقيا فى حجرة صغيرة بالطابق الأعلى ، اعتاد ايزاكسون ان يجلس فيها بالليل .. وكانت وثيرة الأثاث ، ولكنها كانت ثقيلة الجو بعض الشىء ، تحف بجدرانها ارفف محملة بالكتب . وعندما ولجها نيجل مسرعا - وعلى ذراعه معطف خفيف ، وفى يده قبعة رخوة - كانت الساعة على المدفأة تدق الواحدة !.. وبادره نيجل



قائلا : « لقد لمحتك للتو فى شارع سان جيمس ، مستقلا سيارتك ، ولولا ذلك ما أتيت فى هذا الوقت المتأخر .. هل كنت تتأهب لأن تأوى الى الفراش ؟ أصدقنى القول ! »

- لا أحسبنى كنت ذاهبا للفراش الآن ، اذ اننى تناولت العشاء فى الخارج، ولا بد لى من ان أقرأ شيئا .. أفهذا اذن سبب احتفاظك بمعطفك ؟

فقال نيجل : « لأظهر الدليل على حسن نيتى ! حسنا ! » .. ووضع معطفه وقبعته على أحد المقاعد ، بينما سأله الطبيب : « هلا تناولت شيئا من الشراب؟»، فأجاب الشاب : « كلا .. شكرا » ، ثم اتخذ مجلسه فى أحد المقاعد الكبيرة المريحة ، وقال : « اننى راحل غـدا ولم أرك الا قليلا يا ايزاكسون ! » ..

ـ اهو كذلك ؟.. لا أحسبنى أبالى كثيرا بما يستحثنى نحو شيء معين ، ولكنى أصارحك يا ايزاكسون بأنه يخيل الى احيانا ان لك بصيرة نفاذة عجيبة تتغلغل فى صميم الأمور .. ان لك بعد نظر عجيبا ، خارقا !

ومال الى الأمام وهو يستطرد : « على ان هذا لا يسوؤنى منك أنت بالذات!»، فقال ايزاكسون : « اننى لا أملك ان أقرك ، ولكن لماذا يسوؤك ذلك فى أى شخص آخر ؟ » .. فأجاب نيجل ـ وهو ينقل فى اجابته بعض كلمات مسز تشبستو ، وان لم يكن ايزاكسون على علم بهذا الاقتباس : « أليس العقل ميالا الى ان يسيطر على القلب وان يتغلب عليه ؟ أولا تدفعه قوته الى الطغيان والجبروت فى كثير من الأحيان ؟ » . فأجاب الطبيب : « يجب ان يدع المرء لكل منهما الفرص ! » .. وابتسم لما كان فى عبارته من سخرية لم تكن تروق له ، ولكنها وجدت ارتياحا من نيجل ، اذ قال : « أجل ، وأعتقد انك ممن يفعلون ذلك ، وهذا هو السبب فى .. ولكن لنعد الى ماكنا نقوله .. انك ذو بصيرة نفاذة الى الأمور ، فهلا ترى وأنت تعيش عادة هنا فى لندن ، ان الرجال والنساء الذين يعيشون فى جماعات مزدحمة ينحرفون غالبا عن جادة الحق والرحمة ؟.. ألا ترى أنهم اذ يعيشون محتشدين ، كل وراء زميله كالجندى فى كتيبته عندما يذهب معها الى المعركة .. ألا ترى انهم اذ يعيشون هكذا كثيرا ما ينقلبون غلاظ الأكباد ، قساة .. بل انهم غالبا ما يصبحون أقرب الى الوحوش فى تعطشها للدماء ؟ »

فظل ايزاكسون لحظة ساكنا لا يريم . وما لبث أن اجاب اخيرا : « ربما كانوا كذلك أحيانا » .. فمضى نيجل فى استجوابه : « وهلا ترى انهم عندئذ يتطلبون بعض الضحايا والقرابين ؟ » . فتساءل الطبيب بدوره : « أتعنى قرابين بشرية ؟ » . فلما أجابه الآخر : « نعم » ، قال : « ربما .. احيانا » .. وهنا ألقى نيجل بالسؤال الذى كان يدخره : « لماذا لم تذهب قط لزيارة مسز تشبستو ؟ »

وبدات الأصابع السمراء تعبث بأغلفة الكتب من جديد ، تترك واحدا لتمسك بآخر ، ولكن فى تؤدة ورقة .. ثم قال ايزاكسون : « اننى لا أجد من الوقت ما يكفى لكى ازور أحدا ، عدا مرضاى ، والناس الذين ألتقى بهم فى المجتمعات» .. فظل صاحبه ماضيا نحو هدفه : « ومن الطبيعى انك لا تلتقى البتة بمسز تشبستو فى المجتمعات ؟ » .. فأجاب الطبيب فى تردد : « حسنا .. كلا ! ان أحدا لا يراها ! »

ـ انها كانت تود ان تحظى بزيارة منك .. ثم انها وحيدة تماما !

ـ اهى كذلك ؟

ـ هل تنوى البقاء طويلا فى لندن ؟

ـ ربما مكثت الى الثانى عشر أو الخامس عشر من أغسطس

فقال الطبيب : « أتراك ارتويت من المجتمع ؟ » .. وكان الجواب : « اكثر من الكفاية ! »

وكان ايزاكسون يجلس الى منضدة عليها عدد من الكتب ، فكان بين الحين والآخر يمس واحدا منها باحدى أصابعه الطويلة السمراء ، ويرفع غلافه ثم يتركه يسقط ثانية فى حركة آلية .. وما لبث ان تساءل : « هل ستعود فى الخريف ؟ » . فاجاب نيجل : « لبضعة أيام فقط - اثناء مرورى بلندن - فى طريق عودتى الى مصر ! » .. فهتف الطبيب : « شد ما اغبطك ! اننى أغبطك حقا ! » .. فقد خطر له - وهو يتأمل بياض نيجل الناصع ويقارنه بسمرة بشرته هو - انه هو الذى يجب أن يذهب الى حيث تسطع الشمس حامية ، فى حين يبقى نيجل فى البلاد ذات الضوء الشاحب الباهت .. ولعل خاطرا مماثلا طرأ على ذهن نيجل ، اذ قال : « جدير بك ان تذهب الى هناك يوما ما .. سوف تكون فى مكانك الطبيعى هناك ! ألم تذهب اليها قط ؟ » .. فأجاب : « مطلقا .. وكثيرا ما تمنيت أن أذهب » . وهنا تساءل نيجل : « ولماذا لا تفعل ؟ » .. وكان عقل أيزاكسون يسأله هذا السؤال بالذات . وأجابت يهوديته بأنه كان يكسب مالا وفيرا فى لندن ، وان كل يوم يقضيه خارج لندن يفقده مبلغا جسيما !.. واستطرد نيجل معقبا على سؤاله : « يجب ان تنال اجازة يوما من الأيام وتذهب لترى مصر » .. فتساءل ايزاكسون : « أتقصد .. هذا الشتاء ؟ »

وامتدت أصابعه ترفع غلاف احد الكتب ، ثم تسقطه ، بينما تطلعت عيناه السوداوان ، المتألقتان ، الفياضتان بذكاء عارم ، الى نيجل لحظة ، ثم لم تلبثا ان تحولتا عنه ، بينما استدرك الطبيب فى هدوء : « ليس فى هذا الشتاء » .. وهتف نيجل : « ولكن .. لم لا يكون هذا الشتاء ؟ » . وكان فى لهجته اضطراب خفيف .. وأجاب ايزاكسون : « لا أستطيع الابتعاد عن هنا الآن ، فلدى عمل كثير .. هل انت ذاهب الى الفيوم ؟ »

وكان نيجل يحدق فى السجادة الشرقية التى كانت تغطى أرض الحجرة ، بينما استقرت يداه القويتان على مسندى المقعد - وراحتاهما الى اسفل - وراحتا تضغطانهما بشدة .. وأجاب : « أجل ، سأذهب الى هناك » .. فقال الطبيب: « وهل ستعيش فى الخيام ؟.. لقد التقيت ليلة أمس برجل يعرفك ، وهو ضابط بالجيش المصرى فى اجازة الآن .. اسمه فريكر .. وقد اخبرنى بأنك استصلحت قدرا كبيرا من أرض الصحراء ! » .. فقال الشاب : « لشد ما ارجو ان استصلح ما يفوق طاقتى بكثير .. فهو عمل طيب » .. فاردف الطبيب متسائلا : « وعمل شاق ؟ » .. وهتف نيجل : « شاق جدا .. وهذا سبب حبى له ! »

- اعلم ذلك .. انه حب الانسان لترويض النفس الأبية !

فقال نيجل : « انها ستبقى هنا كذلك » •• وهتف الطبيب فى دهشة : « مسز تشبستو ؟ •• فى أيام الحر اللافح ؟ » •• فقال صديقه : « لا يبدو عليها انها فكرت فى مكان معين تذهب اليه ! » •• واكتفى ايزاكسون بأن هتف : « آه ! » ، ثم فتح أحد الكتب بغير قصد ووضع يده على احدى الصفحات • وتصادف ان كان الكتاب عن السموم وعلاجها ، فراح يتحسس الصفحة فى حركة آلية وقد ترك يده عليها •• ومالبث نيجل ان قال : «ماأحسبك يا ايزاكسون متعطشا الى الدماء ؟ » ، فأجاب الطبيب : « أرجو أن لا أكون كذلك •• بل أعتقد أننى لست كذلك !»

– وأعتقد أنك تمقت ذلك كما أمقته ، تمقته وتشمئز منه ، من أعماق نفسك! ولكنى كثيرا ما أحسست بأنك مستقل فى تفكيرك ، دون أن تحفل كثيرا بأفكار الناس ! • ولقد أتيت اليك الليلة لأودعك ولأسألك أن تذهب – اذا وجدت من وقتك متسعا – لزيارة •• مسز تشبستو ، بين الحين والآخر •• وانى لأعلم انها ستقدر زيارتك لها أعظم تقدير ، فالواقع انها فى وحدة مقيتة حقا !•• واذا أنت ذهبت فلن تجد فى زيارتها ما يضجرك •• فهى امرأة ذكية بارعة ، تهتم بالأشياء التى تهتم انت بها •• هل لك ان «تطل» عليها من وقت لآخر ؟

فرفع أيزاكسون يده من فوق الكتاب ، وقال : « سأزورها » • وعندئذ هتف نيجل : « ما أطيب هذا ؟ » •• فتساءل الطبيب : « ولكن أواثق انت أنها راغبة فى ذلك ؟» ، فأجاب نيجل فى حرارة : « كل الثقة •• فهكذا قالت لى !» •• وكان فى سذاجة هذا الجواب ما جعل عقل ايزاكسون يبتسم ، وشيئا آخر فى أعماقه يئن ويتأوه !

واستطرد نيجل : « اننى مضطر للرحيل الى الريف •• اذ يجب ان أرى أخى هارويتش ، وزوى – زوجة أخى – وأختى المتزوجة ، كما تعلم •• » • وقفزت الى عينيه فجأة نظرة زاخرة بالألم ، ثم مالبث ان نهض وقد اشتدت النظرة ، وقال : « طابت ليلتك يا ايزاكسون •• أيها الصديق الحميم ! » •• وأمسك بيد ايزاكسون يشد عليها فى عزم •• وكانت قبضته دافئة قوية • وعاد يقول : « طابت ليلتك •• كم أحب أن أشعر بأننى أعرف رجلا واحدا لا يتأثر بأقوال الناس وانما يكون رأيه لنفسه بنفسه كما تفعل أنت •• فأنا أعرف هذا فيك •• وداعا ! »

وكانت النظرات المليئة بالألم قد تلاشت ، ولاحت عيناه الصافيتان تتألقان فى قوة وعزم •• وقال ايزاكسون « وداعا ! »

واذ انصرف نيجل ، وقف أيزاكسون بجانب المدفأة زهاء خمس دقائق ساكنا بلا حراك ، وقد استغرق فى التفكير •• ولكن دقات الساعة الصغيرة نبهته من استغراقه ، فرفع رأسه وتلفت حواليه ، وكان على وشك أن يطفىء النور عند ما حانت منه نظرة الى الكتاب المفتوح على المنضدة ، فمضى ليغلق

دفتيه ، واذا عيناه تقعان على هذه السطور :
« يجب ألا ننسى قط ان « الديجيتالين » من المواد التى لا تكون سامة الا اذا تكرر تناولها ، فالجرعة التى لا تحدث ضررا اذا ما أخذت مرة ، تغدو قاتلة اذا كثر تكرر تناولها . وهذه من الخواص التى تشترك فيها كل السموم التى تؤثر على القلب »
وظل واقفا يحملق فى الصفحة المفتوحة أمامه : « وهذه من الخواص التى تشترك فيها كل السموم التى تؤثر على القلب » !
وهز رأسه وكأنه يوافق على ذلك ، ثم أطبق الكتاب فى بطء وأطفأ النور !

* * *

◆ فى يوم عطلة البنوك من شهر أغسطس – وهو من أفظع أيام السنة فى لندن – انطلق الدكتور ايزاكسون ليزور مسز تشبستو . وكانت لندن ترزح تحت حر مرهق ، فلم يكن فى شوارعها سوى فئة قليلة من المشاة والمركبات .. وهنا وهناك ، كنت ترى جماعات صغيرة من الناس فى ثياب عجيبة شاذة ، يحملقون فى المدينة بعيون جاحظة ونظرات جوفاء .. وكان أهالى لندن قد نزحوا الى الريف ، يسرحون أبصارهم فى الحقول والغابات .. وبدا رجال البوليس خاملين متبلدين ، كأن أحدا من الناس لن يرتكب بعد اليوم جريمة ، وكأنهم أحيطوا علما بذلك !.. وكانت قطع صغيرة من الورق تتطاير على غير هدى فوق أجنحة نسمات خفيفة حارة ، تثور فى هبات متباعدة ، ولا تلبث ان تخبو سريعا .. ووقف شيخ ذو رأس عجيب الصلع ، يتطلع خلال نافذة أحد المنتديات . وما لبث ان راح يحك أنفه فى حيرة ، وهو يرد بصره الى الغرفة – التى كان يقف فيها – ثم يعاود التطلع خلال النافذة من جديد ! وكان صوت ارغن ينبعث مرددا لحن «مانولا» الذى ظل سنين عديدة فى أطواء الصمت !

لقد كانت لندن فى أشد أيام الصيف كآبة ، فهل من المحتمل أن تكون مسز تشبستو باقية فيها ؟ ولم يلبث ايزاكسون ان عرف الجواب .. فما ان ولج بهو فندق سافوى – حيث كان حراس الأبواب الضخام الأجسام يغفون تحت وطأة الوحدة – حتى علم أنها كانت فى الفندق .. واذن ، فلا مفر هناك !.. ومضى نحو المصعد ، ثم تبع احد الخدم الى باب حجرتها ، وقرع الخادم الباب ، فلم يتلق جوابا .. وعاد يطرقه من جديد بأشد من ذى قبل ، بينما كان أيزاكسون يقف خلفه منتظرا .. وما لبث ان سمع صوت من الداخل ينادى : « ادخل ! » .. ففتح الخادم الباب وهتف : « الدكتور ماير أيزاكسون! »
ومن المحتمل ان مسز تشبستو كانت جالسة فى شرفتها ، اذ انها كانت تقف فى فراغ أحد أبواب الشرفة – عندما دخل ايزاكسون الحجرة – امام مكتب صغير

كانت ادراجه فى مواجهة ذلك الباب .. وكان ثمة مقعد ذو مسندين فى الشرفة خلفها .. وهتفت تقول وفى صـوتها رنة من الدهشة : « الدكتـور ماير ايزاكسون ؟! » .. حتى اذا خرج الخادم وأغلق الباب ، استأنفت تقول : « ما أعجب هذا ! » ، فسألها الطبيب : « ولكن .. لماذا يا مسز تشبستو ؟ »

وتناول يدها ثم أطلقها بعد أن صافحها .. وعاد الى ذاكرته – اذ لمسها – ذلك اليوم الذى أمسك فيه برسغها فى حجرة الاستشارة بعيادته .. كان الاحساس الذى بعثته فيه اذ ذاك هو عين الذى بعثته فيه الآن .. او لعله كان أشد وأقوى فى هذه المرة !

– لماذا ؟!.. لأن اليوم من أيام الأعياد !.. كما أنك لا تزورنى البتة .وبهذه المناسبة ، انها لبراعة فائقة منك ان تحدس اننى موجودة فى مثل هذا اليوم الذى يجمع الناس على السفر فيه ..

قال : « هكذا ترين ان الرجال – هم الآخرون – لهم الهامهم !».. فقالت : « أو لم أعرف ذلك ، بعد الذى قاسيته ؟ ولكنى اليوم لا املك الا ان ابارك الهام الرجل ! اين تحب أن تجلس ؟ » . وقال مجيبا : « اينما شئت » . فأجلسته على الأريكة قائلة : « هنا ، اذن » ، ثم جلست على مقعد فى مواجهة الضوء .. وكانت عارية الرأس لا ترتدى قبعة .. وساءل ايزاكسون نفسه عما تراها كانت تفعله طوال يومها ذاك ، وفيم كان بقاؤها فى لندن .. اما ان لها غرضا معينا من وراء ذلك ، فأمر أدركه كما تدرك المراة ان الثوب الذى ترتديه امرأة أخرى ، من ثياب العام الماضى !.. وعندما التقت اعينهما احس بعنف النفور الذى كان يكتمه ، ومع ذلك فقد أدرك ان مسز تشبستو اصبحت تبدو أقل شحوبا وأصغر سنا وأوفر جمالا مما كانت عليه فى آخر مرة جمعت بينهما! وكانت ترتدى ثيابا بسيطة غاية البساطة .. وخيل اليه ان لون شعرها قد تغير، وانه غدا أزهى مما كان ، ولكنه لم يكن واثقا من ذلك .. ومع ذلك فقد كان موقنا من ان نوعا من الحرارة قد سرى فى كيانها كله ، وكأنه كان يشع من الأمل .. الأمل الذى بدا – من مظهرها القاسى الجاف البارد ، يوم زارته فى عيادته – انها كانت مجردة منه !

والمرأة تعيش فى أفكار الرجال الذين حولها ! وقد عاشت مسز تشبستو – فى تلك اللحظة – فى فكر ايزاكسون ، بصورة بدت أصغر سنا ، وأقل شحوبا ، وأوفر جمالا .. ولاح له ان زهوها وخيلاءها قد استيقظا بعد سبات ، وان تفكيره فيها قد زاد من قيمتها فجأة فى نظر نفسها ، وجعلها تعتقد انها قادرة على استمالته .. مع أنها ماحاولت قط أن تستميله فى المرة الأولى التى قابلته فيها .. ولكنه رآها – فى هذه المرة – تمضى الى عدة سلاحها لتنتقى منها السلاح المناسب الذى تطعنه به ، ومن ثم فقد بدأ يفهم لماذا اختارت ان تجلس فى مواجهة الضوء فى هدوء وثقة .. ومن المحال ان يستطيع رجل مثل نيجل ان

يفهم مسز تشبستو الى القدر الذى يستطيعه الدكتور ماير ايزاكسون ٠٠ حتى اذا كان نيجل قد أحبها ، واذا كان ايزاكسون قد تعلم كيف يمقتها !٠٠ ولكن أيزاكسون لم يكن يمقتها فى هذه اللحظة ، وانما كاد يمقت فى نفسه تلك البصيرة التى أرشدته الى حقيقتها ٠٠ تلك القدرة على الاستشفاف التى كان يحملها فى أعماقه ، والتى طبقها عليها بنجاح عظيم !٠٠ وانبعثت تقول : « ترى ما الذى استبقاك فى هذه المدينة المقفرة يا دكتور أيزاكسون ؟ لقد حسبت اننى وحيدة تماما فيها ! » ٠ فقال : « لايزال بالمدينة من يظنون انهم مرضى » ٠ فتساءلت : « وهلا زلت تقول لهم انهم ليسوا مرضى ؟ » ٠ فأجاب : « ان هذا يتوقف على ظروفهم !»

ـ أعتقد انك اعتنقت هذه الفكرة القائلة بأن ما من أحد يعانى مرضا حقيقيا، كطريقة للعلاج ! على انه من المحقق ان فيها شيئا من الصحة ٠٠ فأنا نفسى كنت أتصور انى مريضة ، حتى قلت لى اننى على ما يرام ٠ ومنذ ذلك اليوم حدث لى شيء ما ، أحسب أنه تأثيرك على ٠٠ ويبدو انه جعلنى فى خير حال بالفعل ٠٠ واعتقد اننى أثق فيك ٠٠ كطبيب !

ـ لماذا تفسدين كل شيء بهذا التحفظ الذى اختتمت به عبارتك ؟!

ـ آه ! ولكن مهنتك هى التى تحدد شخصيتك !

ـ هل تظنين اننى أغرقت انسانيتى فى بحر من الطموح ؟

ـ حسنا ٠٠ ها أنت ذا فى المدينة فى هذا القيظ الفظيع يوم العطلة !

ـ انما انا فى المدينة ، لكى أحضر لزيارتك !

فهتفت : « وهل كنت واثقا الى هذا الحد من وجودى فى يوم كهذا ؟ » ٠٠ ثم رمقته بنظرة ملؤها السخرية والتهكم ، وهى تردف : « ولكن ، ألا ترى ـ بصراحة ـ ان حب العلم يسيطر فى نفسك على كل عاطفة أخرى ؟٠٠ حب العلم ، وما يدره العلم عليك ؟ »٠ وهكذا مست نقطة الضعف فيه بيد ثابتة واثقة ٠٠ فقد كان لديه حب الكسب ، وكان بوساطة علمه ـ كطبيب ـ يكسب الكثير !٠٠ وأجاب : « ما أظنك تتوقعين منى ان أصرح بأن أى شيء يمكن ان يسيطر على ٠٠ فالرجل قلما يعترف بعبوديته حتى لنفسه ، اذا كان رجلا حقا!» ٠٠ واذ ذاك قالت : «آه ! انك رجل حقا ، ولكن فيك شيئا من غرائز النساء !»٠ فلم يضطرب ، ولكنه سألها : « كيف عرفت ذلك ؟ » ٠ وكان جوابها : « لست أعرفه ٠٠ وانما أنا أحسه » ٠ فقال : « ان الاحساس هو المعرفة لدى المرأة !»٠ وكان تعليقها ان سألته : « وماهى المعرفة لدى الرجل ؟ »

ـ وهل تظن المرأة ان الرجل يعرف شيئا ؟

ـ من الرجال من أوتوا معرفة ٠٠ الرجال الخطرون ، مثلك !

ـ وفى أى شيء ترينني خطرا ؟

ـ لو أخبرتك لازددت خطورة ! اننى أكون حمقاء اذا انا أرشدتك الى

سلاحك !

- ولكنك لست فى حاجة الى من يرشدك الى سلاحك !

ولعل هذا القول منه كان اغراقا فى الصراحة الى حد القحة ، ولكنه شعر بأنها لن تنظر اليه على هذا النحو ٠٠ وفى ذلك كان يمتدح بحق حسن ذوقها ، أو انعدام الذوق عندها ! ٠٠ فانها لم تكن تبتغى فى الواقع ، من اى رجل ، رقة ولا توقيرا ٠٠ وقد يكون نيجل معذورا اذا ركع « للعذراء » ذات الوجه الشاحب ، أما هو -ايزاكسون- فكان موقنا من أنه يخاطب امرأة حاذقة جردتها الأيام من أسلحتها ٠ ولقد اعتاد في اتصالاته بالناس ان يرتاد شخصياتهم ، ولكنه لم يعتد ان يتعرف على شخصيته هو ، وان يتصل بها كما يفعل الانسان اذا ماتحدث الى نفسه فى حجرة مظلمة !

وابتسمت قائلة : « من النساء فئة قليلة تحتاج الى الارشاد ٠٠ اذا كان لديها سلاح ! » ٠٠ فسألها : « وهل تخلو احداهن من سلاح ؟ » ٠ وكان جوابها : « أجل ٠٠ هناك امرأة من هذا النوع » ٠٠ فقال فى فضول : «ترى من تكون؟»، فاجابت : « انها المرأة المفرطة فى الطيبة والصلاح ! »

وظل صامتا برهة ، وقد ألجم لسانه ما لمسه من ضراوة تحديها ٠٠ وهى ضراوة اندفعت فجأة من أعماقها اندفاع السيف اذا انتزع من غمده ٠٠ وقال اخيرا : « اننى لا أعترف بذلك يا مسز تشبستو » ٠٠ وبدا فى تلك اللحظة كالرجل الذى يخاطب نفسه فى الظلام ، كما كان شأن نيجل فى أكثر الأحيان ٠٠ وقالت المرأة : « طبعا لا ، فما من رجل يعترف بذلك » ٠ فسألها : « ولم لا ؟ » ٠٠ فكان جوابها : « لأن الرجال قلما يذكرون - حتى فيما بينهم وبين أنفسهم - الأسلحة التى تقهرهم ٠ ولكن النساء يعرفن ما هى تلك الأسلحة »

- النساء اللائى على غرار مدام مارنيف ٠٠ أما أمثال البارونة هيلو ، فلا !

- ان أمثال البارونة هيلو لا يعتد بهن !

- أهى حقا براعة منك أن تشملى الرجال عامة بحكمك ؟ ٠٠ ألا تفرقين بينهما البتة؟

وكان يتكلم دون أى امتعاض ٠٠ بل انه لم يشعر بشىء من ذلك حقا ٠ وأجابت المرأة : « اننى أفرق بينهم ٠٠ فى بعض الأحيان فقط ، وليس دائما ! ٠٠ فهناك حقائق عامة تنطبق على الرجال جميعا مهما يكن اختلاف الواحد عن الآخر ٠٠ وهناك أشياء معينة يشعر بها الرجال جميعا ، ويشعرون بها بشكل واحد » ٠٠ فقال متسائلا : « أينطبق هذا على نيجل أرماين وأنا مثلا ؟ » ٠٠ وهنا لاح فى عينيها اللامعتين بريق خاطف ٠٠ أتراه كان وميض خبث ؟ ٠٠ ثم قالت : « أجل ٠٠ حتى مستر ارماين وانت ! »

- اننى لن أسألك ما هى هذه الأشياء

- لعل ذلك الشطر النسائى من نفسك قد أنبأك بها !

وتمهلت لحظة قبل ان تنطق بكلمة «النسائى» ، فأحس بأن الكلمة التى جالت

بخاطرها ، والتي ارادت ان تستخدمها هي : « اليهودي » .. ومع انه كان يكره فيها معرفتها الوثيقة به ، لأنه كان يكرهها هي بالذات ، فان تلك المعرفة من جانبها أثارت الناحية العقلية فيه ، وبثت فيها نشاطا استعذبه . وقد احست المرأة باستمتاعه ذاك ، فضاعف ذلك من شعورها بمقدرتها .. وكان الحديث يجرى بينهما في يسر وسهولة . وسرعان ما اكتشف ما سبق له ان حدسه الى حدما :ذلك أنها كانت امضى ذكاء وأوفر حذقا مماكان يظنها ..ولكن عقليتها كانت تبدو له صلبة كالبرونز . وكما يعكس البرونز الأضواء ، كانت عقليتها تعكس الأضواء الباردة المنبعثة من طبيعتها..وبالرغم من تعميمها الآراء التي ذكرتها على جميع الرجال - بما في ذلك الاعتراف الضمني بايمانها وثقتها العميقة في الاسلحة الجسمانية - فانها عرفت كيف تنتقى افضل اسلحتها ملاءمة لأيزاكسون . وكان عقله مسوقا الى الاعتراف بذلك .. وفي هذا ايضا تجلت الحلقة التي تربط بينهما !.. فلما نهض اخيرا لينصرف ، قالت : « احسبك ستغادر لندن عما قريب ؟»

- انني أتوقع ان أرحل في الخامس عشر .. وهل ستمكثين انت ؟

- الخشى ان يكون الامر كذلك .. وربما تساءلت عما افعله هنا ؟

فاجاب بصراحة : «أجل» . واذ ذاك قالت : « انني اقضي وقتا طويلا في شرفتي .. وقد كنت فيها عندما قدمت انت » . وتحركت قليلا نحو الشرفة وهي تستطرد قائلة : « ألا تحب ان تشهد المنظر الذي اعيش فيه ؟ » .. فاطاع قائلا : «شكرا» .. وفيما كان يتبعها - خلال باب الشرفة المفتوح - فطن فجأة الى مدى ما اوتيت هذه المرأة من فتنة جسدية طاغية .. كانت حركاتها كلها تنطق بذلك ، وكأنها ميزات اختصت هي بها .. كانت هذه الحركات اشبه بجزء لا يتجزأ من شخصية معينة .. شخصيتها هي ! كان لها ما لومضات العيون من تعبيرات ذات طابع فردي .. ثم ، ألم يكن في خلقها ، وفي هذه الشخصية الفردية ، شيء ما ، يمتزج بكراهيته لها ، فيسحره ويفتنه ؟!

وجه الى نفسه هذا السؤال بينما كان يقف بالقرب منها في الشرفة .. وهب عليه ثانية قيظ لندن بهوائه الثقيل ، حتى في هذا الارتفاع عن سطح الأرض .. وكانت الشمس ساطعة متألقة ، والهواء ساكنا ساخنا ، والمنظر فسيحا مكشوفا .. ومع ذلك فقد أحس ايزاكسون بوحشة غريبة ، كوحشة المناطق الحارة ، خيل اليه انها اشد وطأة وثقلا على النفس من وحشة الشتاء .. وقال : « وهل تقضين الكثير من وقتك هنا ؟ » ، فاجابت : « شطرا كبيرا منه ، اذ أجلس هنا وأنصرف الى مطالعة أحد الكتب .. أفلا يستهويك هذا ؟ »

وانثنت تحول عينيها المتألقتين الواسعتين عن نظراته في بطء ، وتتطلع من عل الى النهر .. بينما قال : « انه يروق لي .. ولكن لندن في يوم كهذا تبدو

مقفرة موحشة الى حد مخيف .. انك تحسين ذلك ولا ريب ! » .. فردت عليه قائلة : « لا .. لست أشعر بمثل هذه الأشياء فى هذا الصيف ! » .. وتبدلت نبرات صوتها وهى تنطق بهذه الكلمات ، فسرت فيه نغمة جديدة ، هى نغمة الانتصار .. أو هكذا خيل الى أيزاكسون !.. كانت الحرارة التى سرت فيها - كأنها حرارة الأمل - قد شدت أزرها وبدلت كيانها ومظهرها معا !..وعادت تقول فى هدوء ، وفى صوتها رعدة خفيفة : « ان للمرء موارده النابعة من أعماق نفسه ! »

واستدارت نحوه من جديد .. وبدا قوامها الفارع - وكانت أطول منه بنحو ثلاث بوصات على الأقل - جميلا فى وقفتها المعتدة المزهوة ، فى غير ابتذال ، والتى نمت عن رباطة الجأش . وكانت يداها النحيلتان الدقيقتان تمسكان بسياج الشرفة فيما يشبه التشبث ، بينما انثنى عنقها الطويل فى حركة رقيقة عندما ادارت رأسها صوبه .. ولم يفت عينيه شىء مما تركه الزمن لها من جمال وحسن ، فقد كانت له عينان تزنان الأمور بميزانها الصحيح .. وعادت المرأة تقول : « أظننت ان ليست لى موارد نفسية ؟ » .. وهنا قرر فجأة ان يتحدث اليها بمزيد من الوضوح ، اذ كانت - حتى تلك اللحظة - قد أحاطت حديثهما بسياج من التظاهر والادعاء ، ولكن عينيها كانتا تنظران اليه فى تحد واستفزاز، فلم يملك الا أن يرد على تحديها قائلا : « أو نسيت مقدار ما أعرفه عنك ؟ »

- هل تعنى .. ماتقوله الشائعات عنى ؟

- انني أعنى ما قلته لى عن نفسك ..

- متى كان ذلك ؟ آه ! تقصد ما دار فى عيادتك ؟ وهل تصدق كل ماتقوله المرأة لك ؟

وافتر ثغرها عن ابتسامة ساخرة ، بينما كان يقول : « بل انني اصدق كل ما قلته لى فى ذلك اليوم - فى عيادتى - كما انكر كل الانكار ما قلته لى ولمستر ارماين فى الليلة نفسها ، عندما التقينا بك وانت تتناولين عشاءك !» .فسألته : « وعلام تستند فى هذا الانكار وذلك التصديق ؟ » ..وأجاب : « هبى أننى اعتمد على غريزتى » .. فقالت : « فى هذه الحال أجيبك بأن لك ان تصدقها بكل مافى وسعك .. ولكن لا تتوقع ان يصدقها كل امرىء بالمثل » .. ودوت كلماتها الأخيرة كوعيد ضاحك ، فقال فى هدوء : « ولماذا أهتم بأن يصدقها الآخرون؟» .. فأجابت فى ابتسامة رقيقة : « انني أدع لغريزتك ان تنبئك عن ذلك ياعزيزى الدكتور »

- حسنا .. لقد آن لى أن أودعك .. ان أتركك لمواردك النابعة من أعماق نفسك .. ولكنك لم تخبريني ماهى ؟

فتساءلت : « ألا تستطيع أن تحدسها ؟ » . وكان جوابه : « احسبها موارد روحية ! » .. فقالت : « لقد أصبت .. ايها الرجل الذكى ! » .. واذ ذاك

قال : « واين انجيلك المادى الذى كنت تعظينني - في قوة وحرارة - بما جاء فى تعاليمه عن المقامرة ، ورحلات اليخوت ، والسباق ، وقيادة السيارات ، وارتياد المسارح ، والطعام والشراب ، عملا بمبدأ « اعمل لدنياك كأنك تموت غدا » ؟! أين تلك المباهج التى تلازم الحياة الدنيوية الراقية اليوم ، والتى قلت انك تستمتعين بها ؟ هل أبدلتها جميعا عن رضى وطواعية ، بالموارد الداخلية ؟ » ٠٠ فاجابت : « أجل ، بالموارد النفسية ! » ٠٠ ولم تطرف عيناها الباسمتان أو تشيحا عنه ٠٠ وخيل اليه أنهما فى صلابتهما كانتا أشبه بجوهرتين لامعتين تتألقان تحت حاجبين رسمتهما يد بارعة ٠٠ وقالت : « وداعا ٠٠وأرجو أن تزورنى ثانية ! »

وفيما كان ايزاكسون يقطع الردهة - فى تؤدة - منصرفا ، فتحت مسز تشبستو درج مكتبها ، فأخرجت منه حزمة من الرسائل كانت قد وضعتها فيه عندما طرق الخادم الباب ليعلن اليها وصول الطبيب ٠٠ وكانت الخطابات كلها من ٠٠ نيجل ارماين !

الفصل التاسع

◆ لم يذهب ايزاكسون لزيارة مسز تشبستو مرة أخرى ، قبل ان يغادر لندن فى أجازته السنوية ٠ ولقد هم - أكثر من مرة - بالذهاب اليها ، اذ كان ثمة شيء فى أعماقه يهيب به أن يفعل ٠٠ شيء لعله كان من الفضول الذهنى! ٠٠ على ان ثمة شيئا آخر كان يصد الطبيب عن الذهاب ٠ فلقد أحس بأن المرأة كانت تتجاهل الجانب الطيب من نفسه ٠ ولكن ، فيم كان يعنيه رأيها فيه أو أفكارها عنه ؟ ٠٠ وراح يوجه لنفسه هذا السؤال ، فلما قدر له ان يجيب عنه ، ألفى نفسه مضطرا الى الاعتراف بأن هذه المرأة قد تركت فى نفسه أثرا محدودا ٠٠ أثرا قد لايرضيها ، ولكنه كان واضحا جليا ، وكان وضوحه ينم عن قدر من قوتها وسلطانها !٠٠ فلقد أحس أنه برغم نفوره من مسز تشبستو ، وبرغم انه ذهب فى ذلك الى حد الاعراض عنها فى كراهية متقززة ، الا انه لم يكن من المستبعد - اذا قدر له ان يراها بكثرة - ان يبلغ به الأمر الى درجة الشوق الى مشاهدتها اذا هى غابت عنه !٠٠ انه ما أحس قط بمثل هذا الشعور من قبل نحو امرأة ٠٠ أفلا تشتمل الكراهية على شيء من الجاذبية؟!٠٠ وهكذا تبين ايزاكسون بجلاء - على ضوء كراهيته لمسز تشبستو - سر اجتذابها نيجل ٠٠ على ان الصراع الذى احتدم فى أعماقه - فى تلك الأيام القائظة من شهر اغسطس - انتهى الى انتصار «يهوديته» على فضوله الذهنى ٠٠ ومن ثم لم يعد ثانية الى فندق سافوى

وقضى أجازته فى الخارج ، على ضفاف بحيرة (كومو) ، وحيدا منفردا ٠ فقد

كان يعمد - فى كل عام - الى اعتكاف كان يحس بحاجة ماسة اليه بعد عمله المضنى طوال العام .. ذلك العمل الذى كان يقتضيه مخالطة الناس دواما .. وكان ، فى عزلته تلك ، يصيد السمك فى البحيرة الخضراء ، أو يمارس الرسم فى الحديقة الغناء بالفندق الذى كان شبه خاو .. وكان يقضى بضع ساعات من كل يوم فى دراساته العلمية . وقد انصرف فى هذا الصيف الى القراءة عن مفعول بعض انواع من السموم غير المألوفة ، فكانت له ساعات عجيبة مع تلك الأبحاث ، اذ كان موفور الخيال ، فكان اذا استغرق فى القراءة تمثل تلك العناصر المدمرة فى صور كائنات حية .. وبعد فترات طويلة من الانكباب على صفحات كتبه أو أوراق مذكراته ، كان يرفع رأسه أحيانا فيقع نظره على مياه البحيرة الخضراء الساكنة ، والجبال الخضراء الرقيقة المعالم ، الرفيعة الذرى ، وقد شرعت قممها فى كبد السماء .. واذ ذاك كان يرتد من رحلته فى دروب الرعب والفزع ، فيمر به ما يطوف بالمسافر المنهوك القوى من دوار ، ويحملق مشدوها فى الجمال الذى كان يصافح عينيه هنا وهناك .. فاذا عمل بالليل ، كانت جولات العقل السريعة فى مسالك الفكر - ساعات طويلة - تصم اذنيه عن الأصوات المنبعثة فى الخارج ، ثم لا يلبث ان يفيق على رنين الأجراس .. أجراس المياه الهادئة ، أو اجراس البر الحالم .. وعندئذ كان يرفع رأسه ويصيخ السمع .. ويظل ينصت حتى تستحوذ على مشاعره غرابة الليل ، وغرابة الدنيا بما تضم عليها جوانحها من جرائم مروعة ومفاتن ناعمة ، فتثير نفسه ، وتأسر روحه .. ويروح يقارن بين الحياتين : حياته هذه بجانب البحيرة الهادئة ، وحيدا ، منصرفا الى البحث والأحلام .. وحياته تلك فى ضجيج لندن وعجيجها ، وأمواج الناس تتدفق على حجرته .. وعندئذ يخال نفسه رجلين .. بل لعله اكثر من اثنين !

وسرعان ما انقضت الأسابيع الأربعة بجوار البحيرة ، وتلتها جولة اسبوعين فى (ميلانو) و (ميونيخ) و (برلين) و (باريس) .. حتى انتهى به المطاف الى الوطن من جديد . ولم يكن قد سمع شيئا عن نيجل خلال رحلته .. ولا عن مسز تشبستو !

ولفظ سبتمبر أنفاسه بين ذراعى أكتوبر السمراوين ، ثم تلقى ايزاكسون خطابا من نيجل كان مرسلا من (ستاك هاوس) - وهو كوخ للصيد فى اسكتلندا - يبشر بعودته فى القريب الى الجنوب .. وقد كتب فيه : « اننى أمارس الصيد مع هارويتش ، ولكن الوقت حان لأفكر فى عودتى الى مصر .. واذا كنت لم أكتب لك من قبل ، الا اننى كنت أريد أن أشكر لك زيارتك لمسز تشبستو ، فانك لا تتصور مدى اغتباطها وتقديرها لتلك الزيارة .. وقد سرت كثيرا لحديثك الطلى وروح الدعابة التى سادته ، ولكن ابتهاجها كان أشد لعطفك ورقة شعورك .. الا انها فى الآونة الأخيرة قد حرمت هذه النعمة ، مما أثار أشجاننا .. يا الهى ! لو أن البشر أدركوا يا ايزاكسون ما للقليل من العطف الصادق من

قيمة لدى أولئك الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن ، لما توانوا عن البذل بسخاء، ولو ليحظوا فى مقابل ذلك بحرارة الوداد ! ولكنهم لا يدركون !٠٠ وكم أفكر - أحيانا - فى أصدق شيء قيل منذ الخليقة ، وهو : « أنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » ٠٠ فلو أضفت اليه : « وما يغفلون عمله » ، لوجدت تفسيرا لمعظم مافى العالم من تعس وشقاء ٠٠ الى اللقاء أيها الصديق الحميم ، وسوف أحضر الى ميدان كليفلاند بمجرد عودتى الى لندن ٠٠ وشكرا لك على تلك الزيارة - المخلص الى الأبد : نيجل ارماين »

وكان هيام نيجل يبدو واضحا ، وكأنه ينبعث من ورق الخطاب ، بينما كان ايزاكسون ممسكا به بين يديه ٠٠ « عطفك ورقة شعورك » ! اذن فقد تأثرت مسز تشبستو بعطفه ورقة مسلكه ٠٠ مسلك ايزاكسون !٠٠ ما من شك فى انها ونيجل يتبادلان الرسائل ٠٠ وتذكر ايزاكسون أسارير الانتصار التى كانت تتبدى بين الحين والحين فى لهجتها ٠٠ اذن فقد كانت تتلقى الرسائل من نيجل اثناء غيبته عن لندن ، وكانت هذه الخطابات مبعث الأمل الذى تجلى على محياها ! ٠٠وتمثلها ايزاكسون فى الشرفة وهى تتأمل النهر :الم تكن تتطلع اليه كما تتطلع الروح البشرية الى مجال مأمول تنطلق فيه ؟٠٠ وعندما تذكر التعبيرات التى تجلت على أساريرها وفى مسلكها ، الفى هذه التعبيرات تزداد وضوحا ، وادرك اذ ذاك معناها الذى طالت حيرته فى تفسيره !٠٠ ومع ذلك ، فان نيجل لم يفض بشيء عن علاقته بمسز تشبستو ، وقد استطاع ان يبقى - طوال هذه المدة - بعيدا عنها ، وما من شك فى ان مثل هذا الغياب يعد غريبا، ويبدو مخالفا لما كان يرتقب منه ، بعيدا عن طباعه المندفعة فى تحمسها ، اذا صح تقدير ايزاكسون لهذه الطباع ٠٠ ولكن ، هب ان تقديره غير صحيح ٠٠ ألا يجوز ان يكون هذا النبع الدافق من الشفقة الانسانية - فى نفس نيجل - خداعا ؟

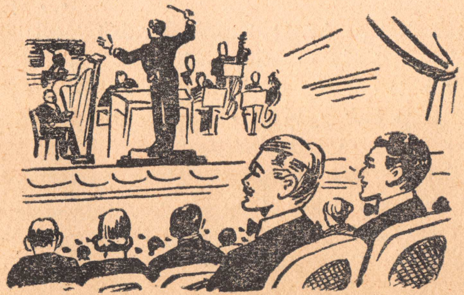
لقد قال ايزاكسون يوما : «ان الاحساس هو مصدر المعرفة عند المرأة» ، وها هو ذا يضيف الى هذه العبارة فى ذهنه : « وعند الرجل أحيانا » ٠ وقد خامره كثير من الأحاسيس ازاء هذا الأمر ، ولكنه جهد فى تنحية هذه الأحاسيس جانبا ٠ على انه لن يلبث أن يعرف الحقيقة عما قريب ٠٠ وحتى ذلك الحين ، فمن العبث أن يحاج أو يجادل ٠٠ ثم ان لديه أعمالا كثيرة تصرفه عن ذلك !

★ ★ ★

◆ ولم يعد نيجل الى لندن حتى أواخر أكتوبر تقريبا ٠٠ وكانت الأوراق تتساقط من الأشجار ككتائب تتهاوى صرعى فى الميدان ٠ وبدأت رياح

الخريف تعود من جديد ، ومعها أمطار الخريف ، التى تكتسح ـ فى نشاط محزن ـ آخر آثار الصيف الحلوة .. وفى كل مكان من الريف والمدينة ، خيم ذلك الجو المقبض المنذر بنهاية العـــام ، والذى قلما يخفق ـ بل انه لا يخفق البتة ـ فى اسباغ ثوب قاتم من السحب الكثيفة على السنة المحتضرة ، فى انجلترا ! .. وكان الانقبـاض الذى يحل بالناس فى هـــذا الفصل ـ والذى يعتبر من صفاته المميزة ـ يبعث بهم الى الأطباء .. وهكذا كان الدكتور ايزاكسون يجلس فى عيادته ، يوما بعد يوم ، يصف من العلاج لأذهان الرجال أكثر مما يصف لأبدانهم ، ويعيش مع نفوسهم المعذبة أكثر مما يعيش مع أمراضهم الجسمانية .. ولقـد كان الأثر الذى راح مرضاه يخلفونه فى نفسه ـ فى ذلك العام ـ يزيد على المألوف ، فكان يشعر وهو يزيل عنهم أمراضهم ، بأنه يأخذها لنفسه ، وان هواجسهم كانت تنتقل الى ذهنه كما تنتقل الجراثيم من بدن الى بدن ، وانهم اذ يلجأون اليه انما يبتغون به شرا ! .. وكان يقول لنفسه ان الأجازة التى حصل عليها لم تكن كافية لراحته ، ولكنه لم يفكر لحظة فى ان ينقص من عمله .. فقد كان النجـاح يجرفه ويدفعه نحو المزيد من العمل المرهق ، وكانت قابليته للعمل تزداد بازدياد توفيقه ، وقد سره نمو ثروته !

وأخيرا طرق نيجل بابه قادما لزيارته ، ولكن ايزاكسون لم يستطع لقاءه ، فبعث اليه بكلمة يحدد فيها موعدا للقائهما فى المساء .. وكان عليهما ان يلتقيا فى الساعة الثامنة فى حفلة موسيقية فى « قاعة الملكة » . ولقد تأخر ايزاكسون قليلا عن موعده ، فلما وصل دخل القاعة فى سرعة أثناء فاصل بين حركتين من ســيمفونية تشايكوفسكى ـ التى ســماها « السيمفونية الحزينة » ـ فوجد نيجل فى مقعده .. وجلس الى جواره بعد أن تبادلا التحية .. وفى تلك اللحظة رفع رئيس الفرقة عصاه ، وبدأت الحركة التالية ..



وكانت فى اللحن الموسيقى خفقات كخفقات القلب ، تنبض بالحاح دائب ، فى اتساق جميل ورتابة رهيبة فى آن واحـــد ! وكان ايزاكسون كثـــيرا ما استمع الى هذه السيمفونية ، فغرق فى الأثر المزدوج لهذه الرتابة : أثر الجمال ، وأثر الرهبة ، وقد اتحدا فى امتزاج غريب ! ‥ على ان ما للموسيقى من شجى غامض كان فى تلك الليلة أكثر استهواء له ، واثارة لآلامه ‥ ولعله كان مكدودا ، أو ربما كان ثمة سبب آخر لم يدر كنهه ‥ كانت الخفقات الرتيبة أشبه بنبض الحياة ! تلك الحياة التى كان والرجل الجالس الى جانبه مضطرين الى خوض غمارها لفترة من الزمن ، ثم لن يلبثا أن ينطلقا منها يوما من الأيام ، سواء أكان ذلك بمشيئتهما أو رغم أنفيهما ! ‥ نبض الحياة ! ‥ وانتقل عقله فجأة من التعميم الى التخصيص ، ففكر فى نبض المرأة : فى قوته ، وانتظامه ، وقسوته ‥ وخيل اليه انه يشعر تحت أصابعه بنبض مسز تشبستو بالذات ، فأدرك أنه انما فكر فيها لأن نيجل ارماين كان يفكر فيها أيضا ، وانه قرنها بالموسيقى لأن نيجل ارماين كان ـ مثله ـ يقرنها بالموسيقى ! فأغاظ ذلك ايزاكسون ، فجهـــد فى تخليص عقله من التفكير فى مسز تشبستو ، ولكن جهوده ذهبت عبثا ‥ كان نبضها تحت أصابعه ، وفى كل خفقة منه كان شعوره بسر الحياة وقسوتها يزداد حدة !

وعندما انتهت الحركة الموسيقية ، لم ينبس ببنت شفة ‥ لا ولم ينظر الى نيجل ‥ وبينما كانت النغمات الأخيرة للسيمفونية تتلاشى هابطة الى هوة من الشقاء والظلمات ، لم ينطق بحرف ، ولم يتحرك فى مكانه ‥ كان يشعر بنفسه محطما مهدم القوى ، كشخص ضرب ضربا مبرحا ! ‥ ولكنه ما لبث أن سمع صديقه يهتف : « ايزاكسون » ، فأجاب : « نعم ؟ » . واستدار قليلا فى مقعده ، بينما كان نيجل يقول : « يا لها من موسيقى عظيمة ‥ ولكنها خطأ فى خطأ ! » . فتساءل : « ولماذا ؟ » . وأجاب صاحبه : « خطأ فى الدرس الذى توحى به ! »

ولم يتمالك الفنان الكامن فى نفس ايزاكسون من اخفاء الرعدة التى مرت بجسده ‥ وقال : « لست أنشد دروسا ‥ ولست اريد أن أتلقى درسا منها » ‥ فرد نيجل قائلا : « ولكن المؤلف يرغم المرء على ذلك ‥ انه درس فى اليأس ، وفى اقرار المرء بعجزه ‥ فلا جدوى البتة من اى مجهود تبذله ، لأن « الارادة الأزلية » تفرض مشيئتها عليك ‥ وينتهى بك الأمر أخيرا الى الاستسلام والخضوع ‥ ان هذه الموسيقى أكذوبة عظيمة ! انها جميلة رائعة ، ولكنها أكذوبة ! » . ولم يبد ايزاكسون رأيا ، بل قال متسائلا : « ألا تحب أن نخرج قليلا ؟ ان لدينا عشر دقائق للاستراحة »

وانطلقا الى الردهات الخارجية حيث أخذا يسيران الهوينا ذهابا وجيئة ، وهما يمران ـ مرة بعد أخرى ـ بغيرهم ممن كانوا يتناقشون فى الموسيقى .

وراح نيجل يتابع حديثه : « ان مثل هذه الموسيقى تثير حنقى وحفيظتى ، وتجعلنى أحس بأننى لن أتخاذل أمامها ! » ، فلم يتمالك ايزاكسون نفسه من الابتسام ، وقال : « ليس بوسعى أن أنظر الى الفن من زاوية خلقية » . فقال نيجل متحمسا لفكرته : « بل من المحقق ان الفن غالبا ما يجعلك تتجه فى تفكيرك اتجاها خلقيا : سواء أكان قويما أو منحرفا .. ومن المحقق كذلك انه يمدك بحوافز ودوافع ترتبط بالحياة وبالناس » .. فنظر اليه ايزاكسون قائلا : « لا أنكر قولك ، ولكن هذه الحوافز أشبه بأطياف « بروكن » المعتمة .. مجرد صور غامضة لا تلبث أن تتـلاشى سريعا ويبتلعها الظـلام .. والموسيقى العظيمة ، وان كانت متناسقة فى تكوينها ، الا انها غالبا ما تخلق فى نفوس أولئك الذين يستمعون اليها خليطا من الأحاسيس المضطربة » .

– اذن فلا بد أن هذه الموسيقى تثير فيك القنوط ؟!

فأجاب الطبيب : « أجل » . واذ ذاك قال نيجل : « ولكنها تثير فى نفسى الرغبة فى القتال ! » . فهتف ايزاكسون : « ماذا ؟ » ، فاستأنف نيجل الحديث قائلا : « القتال ضد جميع شرور الدنيا وأحزانها .. فاننى أمقت اليأس » .. وتطلع ايزاكسون اليه مرة أخرى ، فتبين مبلغ ما كان يبدو عليه من القوة ، ومن المرح ، فقال له : « لقد أفدت كثيرا من اقامتك فى اسكتلندا .. فأنت الليلة رائع البهاء » . وكان يرمى الى فوق ما فى هذا التعبير من معنى . فقد تبدى له فى صديقه – فى تلك الليلة – بهاء وروعة كأنما خلقتهما قوة كامنة فى أعماقه ، تملأ نفسه اشعاعا واشراقا ، وتكشف عن سحرها بما كانت تسبغه على قوامه وأساريره !

وقال نيجل : « اننى أتطلع الى الشتاء فى لهفة » .. فتذكر ايزاكسون رنة الانتصار التى تخللت صوت مسز تشبستو وهى تقول : « لست أحس بمثل هذه الأشياء فى هذا الصيف » ، وكانت تقصد وحشة لندن واقفارها .. لا مراء فى أن نيجل كان يردد الآن صدى هذه النبرة .. وفى تلك اللحظة دوى رنين الجرس الكهربائى ، فعادا الى مقعديهما فى القاعة حيث لبثا حتى انتهت الحفلة الموسيقية ، فخرجا يسيران معا فى (ريجنت ستريت) .. وكان الشارع كئيبا مليئا بالضباب والضوضاء المزعجة ..

وقال ماير ايزاكسون : « متى ترحل الى مصر ؟ » .. فأجاب نيجل : « فى خلال عشرة أيام ، على ما أحسب .. أتتمنى لو انك كنت مسافرا الى هناك ، أنت الآخر ؟ » . فقال ايزاكسون فى تحسر : « لست أجد مهربا من هنا » .. فعاد نيجل يتساءل : « ولكن .. هل تود ذلك ؟ » .. وظل ايزاكسون لحظة لا يحير جوابا ، ثم قال بعد الصمت : « أحب ولا أحب ! ان العمل يقيد المرء بشكل غريب ، اذ انه يشدد قبضته على نفس المرء وروحه ، اذا كان بطبعه مجدا دؤوبا .. ان شطرا منى يريد الفرار .. بل كثيرا ما يريد الفرار ! »

.. وهنا صاح نيجل : « أما أنا فان كيانى كله ينشد الفرار »

وتلفت حواليه ، فاذا بعض الناس يبحثون عن « المتعة » فى الظلام ! .. ورآهم يقفون عند زوايا الشوارع ، يحدقون فى ترقب خشية أن يفقدوا تلك النشوة الشكلية ! .. وكانت العربات تحمل الناس أزواجا ، وتسرع بهم حتى تغيب فى الشمال والجنوب ، مختفية فى الظلام ، فهتف يقول : « شد ما أود أن أذهب الى النور ! » .. واذ ذاك ، أشار ماير ايزاكسون الى الأضواء المتلألئة فى ميدان (بيكاديللى) ، وقال : « حسنا ، ها هو ذا أمامنا ! » .. فقال نيجل : « بل اننى أريد أن أذهب الى النور الحقيقى .. نور الشمس .. وأريد كل امرىء غيرى أن يذهب اليه كذلك ! » .. وهنا قال الطبيب : « ان اندفاعك العاطفى يلازمك فى كافة نواحى حياتك ! .. أتود أن تحمل العالم معك الى مصر ؟ »

فأمسك نيجل بذراعه قائلا : « يخيل الى ان من الأنانية أن يذهب المرء بمفرده ! » . وهنا سأله ايزاكسون : « وهل ستذهب بمفردك ؟ » .. وانطلق السؤال من بين شفتيه فى عناء ، فقد كان عقله لا يفتأ يفكر فيه طول الأمسية ، واذا به يصوغه فى كلمات يدفع بها الى لسانه دفعا .. وشددت أصابع نيجل القوية الضغط على ذراعه وهو يقول : « لست أريد الرحيل بمفردى » .. فقال الطبيب : « أما أنا فخير لى أن أظل وحيدا ، من أن لا أحظى بالرفيق الذى يلائمنى تماما .. الرفيق الذى يستطيع أن يشعر ويفكر معى ، بنفس الطريقة التى أشعر وأفكر بها . فكل صحبة على غير ذلك انما هى صحبة مدمرة ! »

وكان ايزاكسون يتكلم وقد خانته سيطرته العادية على مشاعره .. كما كان فى أسلوبه شىء من الحرارة الكامنة .. واذ رأى نيجل لا يحير جوابا ، استطرد قائلا : « ألا تتفق معى فى ذلك ؟ » ، فقال صاحبه : « قد يستطيع الناس أن يتعلموا وحدة المشاعر والأحاسيس ! » .. فتساءل الطبيب : « هل تعنى انه اذا اجتمعت نفسان ، فان القوية منهما قد تسيطر على الضعيفة من تلقاء ذاتها ؟ .. اننى لا أحب أن أخضع لأحد ، ولا أحب أن أسيطر على أحد ، وانما أحب الاستقلال المتبادل الذى يصحبه اشتراك العاطفة اشتراكا كاملا ! »

وفيما كانت هذه الكلمات تنبعث من شفتيه ، ذكر فجأة تزمته هو شخصيا ، فضحك فى تهكم وهو يستطرد قائلا : « ولكن اين نجد ذلك ؟ ان الذين يرضون بالقليل على حق فيما يفعلون .. ولكنك فيما أحسب .. تتطلع الى أكثر مما أتطلع اليه ، على نحو ما » .. واضاف العبارة الأخيرة على سبيل التلطف ، اذ تذكر مدى تفوقه فى الذكاء على نيجل . فقال هذا : « اننى أحب

ان الؤثر بعطائى اولئك الذين لا يرتقبونه ! ٠٠ اف ! شد ما أبغض هـذا الميدان »

ـ هلا ركبنا عربة وذهبنا الى ميدان كليفلاند ؟

ـ اجل ٠٠ سوف آتى معك قليلا

وعندما استقرا فى المنزل قال نيجل : « اننى أحب أن أشكر لك زيارتك لمسز تشبستو » ٠٠ ولفظ هذه العبارة بسرعة مباغتة ، شـأن الرجل الذى يظل مدة من الوقت معتزما أن يقول شيئا ، ولا يلبث فجـأة ـ فى شىء من العناء ـ ان يؤدى ما اعتزم ٠٠ وهتف الطبيب : « ولماذا بحق السماء تود ان تشكرنى ؟ » ، فأجاب : «لأننى سألتك ان تزورها» ٠٠ فقال ايزاكسون : « أما زالت مسز تشبستو فى لندن ؟ » ٠ وكان جواب نيجل : « بلى ٠٠ وقد رأيتها اليوم ٠٠ انها تتحدث عن الذهاب الى مصر لقضاء الشتاء »

ـ فى القاهرة على ما أظن ؟

ـ أحسبها قد ملت الاقامة فى المدن !

ـ اذن فستذهب شمالا فى مجرى النيل ؟

وكان ينهض بين الرجلين حاجز من التحفظ ، أحس به كل منهما حادا ، صلبا ٠٠ وما لبث نيجل أن قال : « لسوف أعنى بها اذا ذهبت ، وان لم يكن هذا محققا » ٠٠ ولم يقل ماير ايزاكسون شيئا ٠ وبعد صمت ثقيل ، غير نيجل موضوع الحديث ، ثم ما لبث ان انصرف بعد قليل ٠ فمـا ان مضى لشانه حتى عاد ايزاكسون الى حجرة الجلوس بالطابق الأعلى ، وأشـعل نرجيلته ! ٠٠ كان قد أطفأ جميع المصابيح الكهربائية الا واحدا ٠٠ ولما كان يجلس وحده فى الحجرة الصغيرة الخافتة الضوء ، ممسكا بخرطوم النرجيلة الطويل الثعبانى بين يديه الرقيقتين ، اللتين كانتا تشبهان أيدى الفنانين ، لاح كأنه يهودى من الشرق ، ولو انه وضع طربوشا فوق رأسه ، لانسلت اوروبا من عروقه قطرة فقطرة ! ٠٠ حتى تعبيرات وجهه تراءت شرقية كاملة ، فى ذكائها الأسمر المتالق ، وفى صبرها الناشىء عن دهاء !

« لسوف أعنى بها ! » ٠٠ ان هذه العبارة اذا ما صدرت عن امرأة كمسز تشبستو ، من رجل فى شباب نيجل ارماين وقوته وعاطفته الجياشة ، فلن يكون لها سوى أحد معنيين : ان تصبح هذه المرأة خليلته ، أو أن تغـدو حليلته !٠٠ فأى المعنيين كان يقصـد ؟٠٠ وحاول ايزاكسون أن يسـتدل على ذلك من لهجة نيجل أو مسلكه : لقد كان صديقه يبدو حائرا مضطربا ، بل لاشك فى انه كان حائرا مضطربا ! ولكن ربما كان ذلك ناشئا عن شىء فى مسلكه هو ـ أى ايزاكسون ـ أو هيئته ! ٠٠ ومع ان نيجل كان شديد الاندفاع وراء عواطفه ، صلب العزيمة ، الا انه لم يكن بالذى يغفل عمـا يدور فى ذهن شخص يحبه ويعجب به ٠٠ فلعله شعر بتجرد ايزاكسون من

العاطفة نحو تلك المرأة ، بل بعدائه السافر لها ٠٠ أو لعله ـ من ناحية أخرى ـ كان حائرا مرتبكا بسبب احساس من التخاذل والضعف ألم به ٠٠ فكثيرا ما يتكلم الرجال عن السمو بالآخرين ، وهم أنفسهم يوشكون على التردى ٠٠ أفكان نيجل يزمع انشاء علاقة آثمة مع هذه المرأة التى كان يشفق عليها ؟ ٠٠ وهل كان يشعر بالعار مقدما ؟

ان الزواج قد يكون جنونا صارخا ، ومع ذلك فقد كان فى نفس ايزاكسون شىء راح يرجو اذ ذاك أن يكون نيجل قد فكر فى الزواج ٠٠ ولم يكن ذلك الشىء سوى اعجابه الخفى بالفضيلة الكامنة فى صديقه ، اذ ان عملا كهذا يتلاءم مع خلق نيجل ، أما العلاقة الآثمة ٠٠ ومع ذلك فان نيجل ليس قديسا !

وفكر ايزاكسون فيما قد يقوله الناس ، فتبين فجأة حقيقة عاطفته نحو صديقه ٠٠ فلقد آلمته فكرة القيل والقال ، بل لقد روعه التفكير فى الأقاويل والحقائق المرة ! ان علاقة آثمة كهذه لن تجلب سوى الاشمئزاز أو ضحكات السخرية من العاطفة الحيوانية المسيطرة على الرجل ، اذ تتبدى سافرة فى نيجل ! ٠٠ أما الزوج ، فسيكون فى نظر الناس « مجنونا أرعن » ! ٠٠ ولم يستطع عقل ايزاكسون أن ينكر ان مثل هذا الحكم سيكون منطويا على عدل ٠٠ ومع ذلك ، فمنذا الذى لا يحب ـ فى دخيلة نفسه ـ المكافح الذى يحتضن القضايا الخاسرة ؟!

« سوف أعنى بها ! » ٠٠ ان العبارة كانت أصدق تعبيرا عن الطريقة الفجة الدنيئة لامتلاك هذه المرأة ٠٠ اذ يبدو ان الرجال قد خلقوا ليسقطوا !

وانتهى الطباق من النرجيلة ، ولكن ايزاكسون ظل جالسا فى مكانه ٠٠ انه لن ينتقد نيجل قط ، مهما يحدث ٠٠ فان الجذوة القدسية فى الرجل سوف تلتهم النقد ٠٠ وكان ايزاكسون يعرف ذلك ، بل كان يحب أن يعرف ذلك ، على نحو ما ! ٠٠ ومع ذلك ، فكم من دموع وراء ذلك ٠٠ دموع من أجل القضاء الذى لا سبيل لتفاديه ، والذى لا يجلب سوى الأسى ! ٠٠ وخيل اليه انه يسمع من جديد السيمفونية التى استمع اليها مع نيجل فى تلك الليلة ٠٠ نبض الحياة الذى لا يكف ، وجمال رتابته وبشاعتها معا ! ٠٠ خيل اليه انه يسمع خفقات الحياة الدائبة ، كأنها خفقات قلب حزين ، لا يملك أن يكف عن الوجيب !

وطرق النافذة وابل من أمطار الخريف الدافقة ، فبارح ايزاكسون مكانه وأوى الى فراشه

الفصل العاشر

• **قلما** كان ماير ايزاكسون يسمح لقلبه بأن يناضل ما كان العقل يمليه عليه ٠ وكان الاكثر من ذلك ندرة ان يعضد قلبه متعمدا فى معركة كهذه ، وهو يشرف عليها كأحد آلهة الأساطير الأقدمين ٠٠ ولكن الرجال جميعا تعترض حياتهم أوقات يخادعون فيها أنفسهم ، وقد لا يكون بعض هذه المخادعات متسما بالحذق ، ولكنه لا يخلو من النبل ٠٠ وكانت احدى هذه المخادعات هى التى قادته فى اليوم التالى الى الكتابة لمسز تشبستو يسألها موعدا للقاء ، قائلا : « هل لى ان أراك على انفراد ؟ » ٠٠ ووافاه الرد فى المساء :

« عزيزى الدكتور : لقد ظننت انك نسيتنى تماما ٠٠وانى لأحتفظ بذكرى سارة لزيارتك لى فى الصيف ، فالحق انها جعلتنى أدرك للمرة الاولى ان يوما مثل « يوم عطلة البنوك في أغسطس » يجب ان لا يكون بطبيعته يوم حزن وضغينة واكتئاب ! ٠٠ فأرجو ان تعاود مثل هذه الزيارة ٠٠ ولعلمي انك مشغول دواما فى اقناع الناس بأنهم يتمتعون بصحة كاملة ، فليكن حضورك يوم الاحد القادم لتناول الشاى فى الخامسة ٠٠ وسوف أبعد عنى جمهور الهتافين الصاخبين حتى نستطيع ان نناقش معا أى أمر ذى شأن يمكن ان يعرض لنا ــ المخلصة : روبى تشبستو »

كان ذلك فى يوم الأربعاء ٠٠ وراح ايزاكسون يقرأ الرسالة ويعيد تلاوتها مرة بعد أخرى ٠٠ وشد ما أسف على الايام التى يجب ان تنقضى قبل أن يحل يوم الاحد ، فقد خشى ان يندم على مخادعته نفسه !٠٠ ولم تقض هذه الرسالة على خوفه وخشيته ، اذ تملكه الندم أكثر من مرة ٠٠ ثم قدر له ان يلتقى بنيجل ، فتعمد ــ مرة أخرى ــ ان يؤازر قلبه فى معركته مع العقل ، فلم يقل لنيجل شيئا عن الزيارة الموعودة ، ولم يقل له نيجل شيئا عن مسز تشبستو ٠ وعجب ايزاكسون لهذا

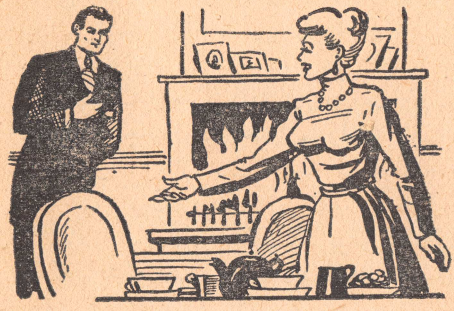
التحفظ الذى بدا له غير طبيعى فى نيجل ٠٠ وألفى نفسه ـ أكثر من مرة ـ يفكر فى أن نيجل قد ندم على ما قاله عن احتمال زيارة مسز تشبستو لمصر ٠٠ ولكنه لم يكن واثقا من ذلك !

وفى يوم الاحد ، وصل الى فندق سافوى بعد الخامسة ببضع دقائق ، فاقتيد الى حجرة مسز تشبستو ٠ وكانت ظلمة الخريف قد أطبقت على لندن ، فلما دلف الى الحجرة ـ التى كانت خالية ـ وجد الستائر مسدلة على النوافذ ، والنور يسطع باهراً ، والنار تتأجج فى المدفأة ، وقد مدت بالقرب منها مائدة الشاى ، بجانب أريكة كبيرة أقيمت بعيدا عن الجدار ، وفى زاوية متعامدة معه ٠٠ وكانت باقات من القرنفل الأبيض تملأ الزهريات المتناثرة : فوق المدفأة ، وعلى منضدة الكتابة ، وفوق البيانو الصغير ٠٠ وكان المعزف مغلقا ، ولا أثر يبدو لنوتة لحن « جيرونتيوس » !٠٠ ووقف ماير ايزاكسون لحظة ينظر حواليه ، ويتنسم جو الحجرة ، أو يحاول على الاقل أن يحس به ٠٠ **ألم تكن فى الصيف تبدو متسمة بشىء من العزلة والوحشة ؟ لقد كانت اذ ذاك حجرة يبتغى المرء الفرار منها ـ برغم مافيها من أثاث مريح وألوان جميلة ـ أما فى هذه المرة فكانت تبدو زاهية ، أنيقة ، توحى بالامل والرجاء !٠٠ نعم ، لقد اشتم فيها جوا ملؤه الامل !**

وانبعث صرير الباب ، ودخلت مسز تشبستو ٠٠ وكانت ترتدى ثوبا وردى اللون يغطى صدرها ، وله أكمام ضيقة تغطى جزءا من ساعديها ، فتزيد من رقتهما الجذابة ٠٠ وكان الثوب بسيطا ، محكما على قوامها الجميل ٠ ولم تكن ترتدى قبعة ، ولكن ايزاكسون لم يسبق له ان فطن من قبل الى طولها الفارع كما فوجىء به فى هذه المرة ٠٠ كانت ـ وهى تدخل الحجرة ـ تبدو مفرطة فى الطول ، كما كان فى هيئتها تغيير واضح ، ظل ايزاكسون برهة لايدرى ماهو ٠٠وما لبث

ان رأى انها قد مست وجنتيها مسا رفيقا بطلاء أحمر ، فبدل ذلك من هيئتها تماما ، وأظهرها أصغر سنا ، وأكثر تألقا ·· ولكنه جعلها فى الوقت نفسه تبدو أقل احتشاما !

وابتسمت فى اغتباط وهى تصافحه ، وسرعان ما غمرته بجو من البهجة والانشراح ، جعله يقف ذاهلا مشدوها · وبينما كانت تمسك بيده ، ضغطت زر الجرس ، ثم قادته الى الأريكة فأجلسته فوقها فى نوع غريب من المداعبة والألفة ··



وقالت : « هذا خير من يوم عطلة البنوك القائظ ·· وانى لأعلم انك قد أشفقت على يومذاك ، وكنت تعجب كيف أستطيع أن أحتمل ذلك الجو ·· ولكنى قد حجبت منظر النهر اليوم ، ويسرنى انك لم تحضر ثانية الا بعد أن تيسر لى أن أحصل على النار والنور ·· اننى أحب الشتاء الانجليزى ، ألست مثلى ؟ فالمرء يضطر فيه الى أن يدبر هذه الأشياء اللذيذة التى يبعد بها التفكير عنه فى الشتاء ! أما فى الأماكن الحارة فى الخارج — تلك التى يهفو الناس اليها دائما — فليس فى وسع المرء على مدار العام أن يحظى بحجرة كهذه ، وساعة كهذه ، بجوار نار متأججة ، وستائر مسدلة ·· وصديق ! »

واذ كانت تنطق بهذه الكلمة الأخيرة ، خالطت صوتها

نغمة حلوة حقا .. نغمة لا شك فى جمالها لما كانت تحتويه أو توحى به من عاطفة صادقة ! .. **وكانت هذه النبرة وحدها تنم عن قدر من الصداقة لا يستطيع مقال كامل من مقالات « ايمرسون » أن يصوره ! كانت جاذبية هذه المرأة أشبه بكتاب تقلب صفحاته - واحدة بعد الأخرى - من أجل ايزاكسون .. وكان صوتها أقوى ألوان هذه الجاذبية - المتعددة الألوان - وأشدها أثرا !**

وأتى الساقى بمعدات الشاى ، فلما انصرف ، صار فى وسع الطبيب أن يتكلم ، ولكنه لم يكن يدرى ماذا يقول ، فقلما أصابه الاضطراب وتزعزت سيطرته على نفسه بمثل ما ألم به اذ ذاك .. فلقد أحس بأنه فى موقف خاسر .. وذلك الانقباض الذى كان يجثم فوقه أخيرا - ولعله انقباض جسمانى قبل كل شىء - والذى ازدادت حدته فى الحفلة الموسيقية ، ازداد فى ذلك اليوم وطأة وبعث فى نفسه شعورا بالضآلة ، بينما كان اغتباط مسز تشبستو يبدو كالطود الشامخ بجانبه ! .. **لقد بدت مسز تشبستو للحظة من الزمن وكأنها تسمو عليه وتشرف عليه من عل ، من جميع النواحى .. حتى طول قامتها بدا أشبه بانتصار عقلى ، أو كأنه كان انتصار ارادتها على ارادته !** .. وأخيرا قال : « ولكنا لا نزال فى الخريف ! » .. فقالت : « نستطيع أن نزعم انه الشتاء ! »

وناولته قدح الشاى بنفس الحركة التى سحرت نيجل يوم زارها للمرة الأولى .. ثم قدمت اليه طبقا به بعض شرائح الليمون ، وهى تقول : « ألا ترى اننى عرفت أذواقك ؟ فأنا أعلم أنك لا تتناول اللبن قط ! » .. وكانت معاملتها ترغمه على الشعور بالشكر نحوها ، ومع ذلك فان شيئا فى أعماقه كان يتوق الى رفض شرائح الليمون .. ذلك الشىء الذى لم يكف لحظة عن اتهامها واساءة الظن بها ! .. ولكنه نطق بما جرى العرف به ، فقال : « ما أرق شعورك اذ تتجشمين هذا العناء

من أجلي » ٠٠ فقالت : « أو لم تتجشم أنت الآخر العناء من أجلي ، وفي يوم راحتك ؟ ٠٠ ألا تعتقد انني شاكرة لك هذا الصنيع ؟ » ٠٠ ولم يكن في صوتها شائبة من التهكم أو السخرية ، فقد كانت سخريتها في ذلك اليوم خافية مكبوتة ، ولكنه كان يعلم علم اليقين انها مستعرة كالنار التي تستر ألسنتها بعناية ٠ وكان استتارها هذا يثير حنقه ٠٠ كان ساخطا على هذه المهزلة التي كانا يلعبانها ، وهذا النفاق الذي كانت تقوده اليه وهي تبتسم ٠٠ كانت أذكى من أن تتصور انها وفقت في خداعه ، بل انها أكثر دهاء من أن تفكر على هذا النحو ٠٠ اذن فما جدوى ذلك كله ؟ ما جدوى أن تدفعه ـ وتستبقيه ـ في موقف لا يلائمه ؟!

وقدمت اليه الكعك ، فاذا هي تكرمه وكأنها تدلله ! ٠٠ **ومن جديد عاد يحس بالامتنان٠فالرجال مسوقون الى الشعور بما في المرأة من فتنة حقيقية ، حتى في أشد حالات كراهيتهم لها ! ٠٠ ولم يكن ايزاكسون يعرف كيف يتعامى عن الجمال في أي شيء ٠٠ ولو أن الشيطان هو الذي أتاه ملاطفا ، لوجب أن يقول في نفسه : « ما ألطف الشيطان وما أرق شمائله ! »** ٠٠ ومن ثم فقد فتنته هذه المرأة برعايتها اياه ! ومع ذلك كله ، فانه كان رجلا حديدي الارادة وشديد الاخلاص ـ بوجه خاص ـ لذلك استجمع شتات عزيمته الصلبة ، وقال : « لا ، ما أحسبك شاكرة لي ٠٠ فلست أظنك تلك المرأة التي تعرف الشكر لأحد ، لغير داع أو علة » ٠٠ وأردف في سريرته : « بل ولو وجد الداعي والعلة ! » ٠٠ فقالت : « ولكن ها هي ذي العلة !؟ » ٠٠ ولمست طرف كمه ، واذ ذاك تلاشى فجأة ـ وبسبب هذه اللمسة ـ كل ما كان نها عليه من سحر ٠٠ بل لقد غضب منها عندما رآها تتجرأ على معاملته كما تعامل أولئك الغلمان الذين كانوا يحيطون بها ، وتتجرأ على التفكير في التلاعب بأسوأ ما فيه من حواس ! ٠٠ وقال :

« أخشى أن تكونى مخطئة ، فلست أصلح علة لشكرانك ! »
وبدت طبيعية ، ودودا أكثر من ذى قبل ، وهى تقول : « بل أعتقد انك جدير بعرفانى حقا ، لأنك فى الواقع لا تميل الى ، ومع ذلك تأتى لزيارتى ٠٠ وهذه غاية الايثار ! » ٠٠ فقال : « هذا اذا افترضنا صدق ما تقولين ، وكنت أنت تميلين لى »

ـ واننى لأميل اليك بالفعل !

قالت ذلك فى بساطة تامة ، دون تلاعب بألفاظها ٠٠ ومن ثم فقد بدت الكلمات صادقة ٠٠ بدت له ، هو بالذات ! ٠٠ ومضت المرأة فى حديثها قائلة : « قد تعرف ذلك يوما من الأيام » ٠٠ فهتف : « ولكن ٠٠ ولكنى لا أصدق ما تقولين »

وكان قد أفاق من الطعنة التى تلقاها من أخطر أسلحتها وأمضاها : صوتها ! ٠٠ بينما كانت هى تقول : « هذا لا يهم ٠٠ انما المهم هو الواقع ، وليس ما يفكر امرؤ ما فى وجوده أو عدم وجوده » ٠٠ فقال : « أجل ٠٠ ان الواقع هو المهم حقا ! ولقد حضرت الى هنا ، لا فى زيارة رسمية ، ولا فى زيارة ودية ، وانما ٠٠ لعلنى حضرت لأرتكب سفاهة ! » ٠٠ فحركت رأسها مبتسمة ، وأجابت وهى تقدم له علبة سجائرها : « لا ٠٠ انك لا تقدم قط على شىء من هذا القبيل ! »

وتردد قليلا قبل أن يتناول اللفافة ، ولكن عينيها المتألقتين كانتا تسخران منه جهارا ، وكأنهما تقولان : « ان سيجارة واحدة لن ترغمك على شىء أو تحول بينك وبين شىء » ٠٠ وقد استطاعت أن تعرف حقا كيف تجعله يشعر كأنه غلام غرير أبله ! ٠٠ أم ان شعوره بالارهاق فى العمل والانقباض الجسمانى هو الذى كان يجرده من أسلحته اليوم ؟ ٠٠ وتناول السيجارة وغمغم يقول : « شكرا » ٠٠ ثم أشعلها ، فأشعلت

هى الأخرى سيجارة وهى محتفظة ببشرها وسعادتها ! ••
ومضى يقول : « من أين لك هذا اليقين ؟ » •• فأجابت : « اننى ألمسه »

وضحكت ضحكة خفيفة ذكرته بما سبق ان قاله عن النساء، فقال : « انك مخطئة •• فانى عازم على ارتكاب تلك السفاهة » •• وكان ردها : « ولكن •• هل تظن حقا انها سفاهة منك ؟ » •• وطغى عليه نفوره من التدخل فى شئون الناس ، ولكنه سرعان ما تغلب عليه بما يشبه الغضب وقال : « لست أدرى ، ولكنك ربما كنت تدرين ! مسز تشبستو ، لقد كنت للتو تشيدين بمباهج الشتاء الانجليزى ! » •• فقاطعته قائلة : « بل بالاعتكاف عن الناس »

ـ لماذا ترغبين اذن فى الفرار من هذه المباهج ؟

ـ من الذى قال انى فاعلة ؟

ـ ألست ذاهبة الى مصر ؟

فاعتدلت فى جلستها واستقرت فى ركن الأريكة ، قائلة : « هل ترى ان الجو غير ملائم لصحتى هناك يا دكتور ايزاكسون ؟ » •• وضغطت على كلمة « دكتور » ، فقال : « لست أتكلم كطبيب » •• فتساءلت : « كصديق اذن •• أم كعدو ؟ » • فأجاب : « **كصديق •• له** » •• فهتفت : « **لمن ؟** » •• وكان جوابه : « **لنيجل ارماين** »

ـ ألأنه يعمل فى الفيوم ، لا ينبغى لى أن أذهب الى أعالى النيل ؟

ـ اذا ذهبت الى النيل فلن يبقى ارماين فى الفيوم !

ـ أتراك قلقا على عمله فى استصلاح أراضى الصحراء ؟ •• ترى هل استثمرت شيئا من أموالك فى مشروعه هذا ؟!

فاستبد به الغيظ حين لمح رنة المعرفة فى صوتها ، وقال : « أفتحسبيننى لا أعنى الا بالمال فحسب ؟ ما الذى تعرفينه

عنى ؟ » . فتساءلت : « وأنت .. عنى ؟ » . وكانت لا تزال تتكلم فى خفة وابتسام ، ولكنه تذكر تلك الخفقات التى لا تكف .. نبض الحياة .. الحياة والعزيمة والاصرار على البقاء كما شاءت فلسفتها !

ـ لست أريد أن أتكلم عن أية معرفة يمكن أن تكون لدى عنك ، ولكن .. دعى نيجل فى الفيوم !

ـ هل قال اننى ذاهبة الى مصر ؟

ـ لقد تحدث عن ذلك مرة واحدة فقط .. قال انك قد تذهبين !

فتساءلت : « وهل قال شيئا آخر ؟ » . وأجاب : « لقد قال انه سيعنى بك اذا ذهبت » .. وأصغت اليه فى صمت .. فلما كف عن الكلام ، قالت أخيرا : « ولم لا ؟ »

ـ لقد عنى الكثيرون قبله .. بأمرك !

ولم تتبدل قسمات وجهها ، بل قالت : « أو لا يعرف ذلك ؟ » .. فقال : « ولكنه لا يشبه الآخرين » .. وردت قائلة : « اننى أعرف نوعه » .. وأحس ايزاكسون حين قالت ذلك بأنه يمقتها .. يمقتها لما كان فيها من سلطان المرأة وقدرتها على الفهم ، وسيطرتها ـ عن طريق هذا الفهم ـ على الرجال ! .. وقال :

ـ ما الذى يقصده من « العناية بأمرك » ؟

وكان يتكلم فى عبوس ، وهو يكاد لا يحس بذلك ، وقد فاض وجهه بالازدراء .. فقالت بدورها : « وما الذى كنت تقصده عندما قلت ان «الكثيرين» قد فعلوا ذلك ؟ » ، فهتف : « اذن فالأمر كذلك ! » . ولم يكن ايزاكسون يرمى الى النطق بهذه الكلمات ، ولكنها انطلقت من بين شفتيه انطلاق الأسير عند فكاك أسره .. ولم تلح فى عينيها بارقة من الفهم للمعنى الذى كان يكمن وراء هذه العبارة .. فقد كان عقله يقول : « يا للرجال ! يا للرجال ! حتى ارماين ؟! »

ـ أتراك خائفا على الفيوم ؟!

فقال : « أوه ! يا مسز تشبستو ! » ٠٠ وأمسك عن الكلام وقد تملكته سورة نمت عن افلات زمام أعصابه ٠٠ وكان وراء هذا الصمت فيض جارف من الكلمات : **كلمات تشرح طبائعها وطبائع ارماين ٠٠ طريقتها في الحياة ، وطريقة ارماين ٠٠ ما تستحقه هي ، وما يستحقه هو ٠٠ كلمات كانت خليقة بأن ترسم لمسز تشبستو الخير الكامن في نفس صديق ايزاكسون٠٠ ليس هذا فحسب ، بل انها كانت كفيلة بأن تبين لها الخير الكامن في نفس ايزاكسون كذلك ، والذى بدت معالمه في حبه لخير صديقه ، وحرصه على أن يقيه الأوحال ! وهذه الطيبة الكامنة في ايزاكسون هي ذاتها التي منعته من متابعة حديثه ٠٠ اذ انه لم يطق اظهار طيبته لهذه المرأة ! وما من ريب في انها كانت تعرف بغريزتها ، وتقدر ، ما قد يكون في فطرته من سذاجة ٠٠ فليدعها اذن قانعة بتلك المعرفة ٠٠ انه لن يهبها الخير الذى في نفسه ، وحتى لو انه فعل ، لما كانت لذلك أية جدوى !**

وكانت تجلس على الأريكة منتصبة الظهر ، وقد بدا عليها فضول ودهشة عجيبان ، فقالت تستحثه : « نعم ؟ » ٠ واذ ذاك قال : « اذا كنت راحلة حقا الى النيل ، فانى أرجو لك شتاء سعيدا ! » ٠٠ كان قد أصبح مرة ثانية ذلك الطبيب المسيطر على حواسه ، والذى تميل اليه نساء كثيرات ! ٠٠ وأجابت المرأة وهي تردد صدى لهجته الباردة ، على الرغم مما كان يبدو في كلماتها من قلق ولهفة : « لسوف أعرف كيف أسعده ، اذا أنا ذهبت ! »

ونهض عن مجلسه ، فقد كره فيها معرفتها الحقة بالرجال ٠٠ كان يكرهها الى الحد الذى يتوق معه الى الابتعاد عنها والفرار من صحبتها ٠٠ لماذا يمكن ان يسمح لها بأن تأخذ حياة شخص مثل ارماين بين يديها القذرتين ، حتى اذا كان

في وسعها أن تسعده فترة من الزمن ، بمقدرتها الفائقة كأستاذة في فن الخداع ؟!

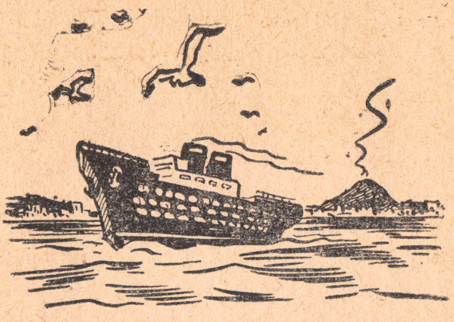
ومس أناملها مسا خفيفا وهو يقول : «وداعا» ٠٠ فقالت : « وداعا ٠٠ انني جد شاكرة ، وانك لتعرف السبب »

وأرسلت اليه ثانية تلك الابتسامة الودود ، فلما فارقها كانت تقف بجوار المدفأة ، والوهج المنبعث من النار يرسم أطيافا على ثوبها الوردى ٠٠ وكانت تتجه برأسها الجميل نحو الباب لترقب انصرافه ، وقد أمسكت بيدها السيجارة التى كانت تدخنها ، بينما كانت حلقات الدخان تطوف حولها ، رقيقة خفيفة ، ثم تدور حول نفسها وتنتهى فى خيوط تصعد حتى سقف الحجرة الدافئة المتلألئة بالأنوار ٠٠ وكان قوامها ، ورأسها ،و عيناها ، تبدو كلها جميلة محببة ٠٠ كانت لا تزال « بيللا دونا » ٠٠ « ست الحسن » التى طالما تحدث الناس عنها ! ولكنه اذ كان يمضى خارجا ، لمح الغضون الرقيقة بالقرب من عينيها ، والخشونة الخفيفة عند عظام وجنتيها ، والارتخاء السافر عند ركنى فمها ٠٠ **ولكن ارماين لم ير كل هذه العيوب ، لا ولم يكن فى وسع ايزاكسون أن يجعله يراها ، فما كان ارماين يرى فيها سوى محاسنها ومفاتنها ٠ وكان تهالكه على التفكير فى هذه المحاسن والمفاتن يعمى عينيه سريعا عن غيرها ! ٠٠ ومع ذلك فحتى ارماين له ناحيته البشعة ٠٠ فقد غدا ايزاكسون يعتقد فى وجود علاقة آثمة بين صديقه وبين مسز تشبستو !**

ولم يعلم الا بعد ثمانية أيام ، وبعد ان أبحر نيجل ومسز تشبستو الى الاسكندرية ، انهما قد تزوجا !

الفصل الحادى عشر

◆ ما ان تمت مراسم الزواج فى مكتب التوثيق حتى رحل نيجل وزوجته



مباشرة الى نابولى ، ومعهما وصيفة للسيدة ، وقدر كبير من الحقائب المختلفة الأشكال والأحجام . ومن هناك ابحرت بهم الباخـرة « هوهنزلرن » الى مصر ، حيث كان نيجل قد استأجر « فيلا اندروود » ، عـلى شاطىء النيل - بالقرب من الاقصر - لقضاء الشتاء

وكان نيجل سعيدا ، ومع ذلك فانه لم يكن خاليا من القلق تماما ، ولو انه حرص على اخفاء هذا القلق عن زوجته .. بل لقد كان يود احيانا لو أنكر وجوده لنفسه .. ذلك لأنه عندما ابرم هذا الزواج انما كان يستجيب لصوتين راحا يهتفان فى أعماقه : صوت الجسد ، وصوت الروح .. وما كان يدرى - على وجه التحقيق - ايهما كان أوضح رنينا .. بل انه لم يكن يدرى أى الرغبتين كانت أقوى سيطرة عليه : الحنين الى المتعة الشخصية ، ام الرغبة الملحة فى أن يسبغ السعادة والدعة على حياة سودتها الأيام ولطختها بالوحل ! .. قد يكشف له المستقبل عن الحقيقة ، أما فى الآونة الراهنة ، فقد وضع نيجل نصب عينيه هدفا واحدا عظيم القيمة : أن يكون مثال الزوج الكامل !

ومع ان الوقت كان فى شهر نوفمبر ، ولم يبدأ بعد اندفاع الناس نحو (النيل) ، الا أن الباخرة كانت مكتظة بالمسـافرين ، حتى انه عندما ذهب ارماين وزوجته الى قاعة الطعام لتناول الغداء - والباخرة تتحرك من نابولى - كانت الأماكن فيها مشغولة كلها .. وقال نيجل لرئيس السقاة وهو يدس شيئا فى يده : « أعد لنا مائدة وحدنا على السطح العلوى ، فاننا نفضل ذلك كثيرا » .. ذلك لانه لمح عـددا من الوجوه الانجليزية كانت تحملق فيهمـا وقد بدا على بعضها أكثر من مجرد تعرفها على مسز ارماين ..

وأجاب الساقى البروسى المتورد الوجه - وهو يدس « الشىء » فى جيبـه

بحركة آلية - فى لكنة المانية ظاهرة : « ساعد لكما مائدة عند قمة الدرج يا سيدى • ولكنى لا أستطيع أن أعدك بأن تظلا وحدكما ، فلن يكون هناك مفر من السماح لأى قادمين آخرين بالجلوس معكما » • فقال ارماين : « ليكن •• قدنا الى هناك ! » •• وان هى الا لحظة ، حتى كانا يجلسان جنبا الى جنب على أريكة بيضاء ملاصقة للباب المفتوح المفضى الى سطح الباخرة ، عند قمة الدرج الرئيسى •• وقال نيجل لزوجته : « ادعى الله أن يكون لنا هذا المكان وحدنا طوال الرحلة يا روبى ! »

على انه لم يكد يتم كلامه ، حتى ظهر احد الخدم مسرعا ، وهو يقود الى مائدتهما شابا طويل القامة عريض المنكبين ، انحنى لهما فى تحية تقليدية ، ثم جلس تجاههما فى هدوء وتؤدة •• وكان جميل الهندام الى درجة ملحوظة ، فى ثياب لا بد أنها كانت من صنع ترزى انجليزى ! وكان يرتديها فى غير اعتناء - يكاد يكون انجليزيا أيضا - ولكن فى رشاقة غير متكلفة لا يعرفها سوى الأجانب ! •• وكان نحيلا ، له كتفان قويتان ، وصدر مقوس ، مما ينم عن قوة بدنية جبارة •• وكانت رقبته تبدو قوية كرقبة الثور ، وقد استقر فوقها رأسه الصغير نوعا فى جراة وزهو •• وكان شعره اسود مجعدا ، وجبينه عريضا ، وأنفه قصيرا مستقيما محدد المعالم ، ذا فتحتين كبيرتين واسعتين •• وبدت شفتاه - تحت شاربين صغيرين كثيفين - غليظتين ، وكأنه يقلبهما ازدراء ! وكانت ذقنه بارزة قليلا الى الأمام كأنها خلقت للهجوم ، وعليها آثار شعر حديث الحلاقة • وكان لون بشرته صافيا رغم سمرته ، كما كانت فى بشرته نعومة واضحة •• أما يداه السمراوان العريضتان المكتنزتان ، فكانتا تحويان أصابع قوية تنتهى الى أنامل مدببة قليلا ، وكانت عيناه واسعتين سوداوين ، قد حلتا فى رأسه متقاربتين الى حد يكاد يكون فريدا ، يعلوهما حاجبان ينحدر طرفاهما نحو الانف وترتفع نهايتاهما حتى الصدغين •• وكان هذان الحاجبان يسبغان على العينين الجاثمتين تحتهما - بل على الوجه كله - مظهرا مميزا عجيبا ، ينم عن عزم صريح يستوقف النظر ، ويبدو جذابا أو منفرا حسبما يكون عليه مزاج صاحبه !

وتناول المسافر قائمة الطعام وراح يدرسها من أولها لآخرها فى عناية واضحة ، وما لبث أن أصدر أوامره فى فرنسية رائعة الى الساقى ، الذى انصرف مسرعا لتنفيذها ، واذ ذاك أخذ الشاب يسوى شاربيه ، وراح يتطلع الى رفيقيه فى هدوء •• لا فى فضول ، وانما فى أدب تخالطه قلة اكتراث ، وكأنه لم يكن ينظر اليهما الا لمجرد انهما قريبان منه ! وكانت مسز ارماين تبدو غافلة عن نظراته المتفحصة ، بينما بادر نيجل الى التحدث اليه ، مبديا بعض الملاحظات - بالانجليزية - عن السفينة ، فأجاب الغريب باللغة ذاتها ،

ولكن فى لكنة أجنبية صارخة .. وبدا انه شديد الرغبة فى تبادل الحديث ، اذ أقبل يعتذر عن اقتحامه خلوتهما ، وقال انه لم يكن مخيرا فى الأمر ، اذ كانت قاعة المائدة ممتلئة بأكملها .. فقال الاثنان انهما كانا على تمام الاستعداد لاشراك أى امرىء فى مائدتهما : نيجل فى انعطافه المرح العـادى ، ومسز ارماين فى تلطف تقليدى كان يخفى وراءه ـ أو هكذا خيل لزوجها ـ ظلا خفيفا من النفور .. وحدس نيجل انها كانت تفضل كثيرا لو انهما انفـردا بمائدة خاصة ، ولكنه حين قال لها ذلك ـ أثناء تناولهما القهوة على سطح السفينة وحدهما بعد ذلك ـ أجابت : « كلا ، اذ أية قيمة لذلك ؟ لن نلبث حتى نكون فى منزلنا .. حدثنى عن « الفيلا » يا نيجل ، وعن الاقصر ، فأنت تعلم اننى لم أرها قط ! »

وهكذا استطاعت ، بكلمات قلائل ، وفى حذق باهر ، أن تطوح بالاجنبى خارج دائرة حياتهما ، وكأنها قد ركزت تفكيرها كله فى نيجل ، فأحس بأن قوتها كانت كتيار مائى قوى غزير ، يتدفق فى المجرى الجديد .. المجرى الذى حفره لها .. ومن ثم تمشى معها ، فراح يحدثها عن مصر .. واذ كان يتكلم ويرقب اصغاءها اليه ، بدأ يحس للمرة الاولى بالتغيير الحيوى الذى طرأ على حياته ، وبشىء فى أعماقه يتراقص طربا ، كأنما ترتل رجولته اناشيد الحب !

وانقضت الرحلة خفيفة سريعة ، يلفها طقس جميل ، هادىء ، بهى الاشراق، أزرق الأفق .. جو من شأنه أن يطلق الانسانية من عقال الكآبة والانقباض ، الى عالم مرح .. غير ان الرحلة ، بالنسبة لأسرة أرماين ، لم تخل من حادث مكدر . فقد كان بين المسافرين زوجان ـ همـا اللورد والليـدى هايمان ـ كان نيجل ارماين يعرفهما ، كما كانت مسز ارماين تعرفهما عنـدما كانت لندن تحبها وتهش فى وجهها .. وكان من المستحيل ألا يلتقيا بهما ، ومن المستحيل كذلك ألا يلحظا الارتباك والفتور اللذين كانا يشوبان كل لقاء ، وتتبدى مظاهرهما فى تشاغل اللورد وزوجته بالتحديق فى الأمواج المتدفقة ، والآفاق الخاوية .. كان سوء فهمهما للموقف من الجلاء بحيث وجد نيجل نفسه مضطرا الى مواجهة اللورد هايمان ذات يوم فى قاعة التدخين ، والى أن يطلعه على الحقيقة .. فغمغم النبيل ، وقد استحالت عيناه الكستنائيتان الى بثرين مترعتين بالعجب الساخر : « اننى أهنئك .. أهنئك بالتأكيد .. اخبر زوجتى للتو ، فما كنا نعرف شيئا عن ذلك قط » .. ثم انصرف مسرعا ، وبين أسنانه سيجار يحتضر .. ولا ريب فى انه اطلع الليدى هايمان على النبأ .. فقد كانت بعد ذلك تحنى رأسها تحية لنيجل ، ولكن فى حركة قوية تنم عن النفور ، وتعبر بما فيه الكفاية عن استنكارها المزوج بالازدراء .. أما مسز ارماين ، فكانت تبدو غير حافلة البتة بهذه المظاهر ، وكان تعليقهـا

الوحيد بشأن الليدى انه من العجيب حقا « فى هذه الأيام » ان يوجد انسان يرتدى اللونين الاحمر القانى والقرمزى معا ، لا سيما اذا كان لبشرته لون بشرة الليدى هايمان !٠٠ وكانت دهشتها لاجتماع هذه الالوان الثلاثة من البساطة والصراحة بحيث توحى بأنها صادرة عن مجرد ذوق فنى !

والأرجح ان أسرة هايمان قد أذاعت نبأ زواج نيجل بين الانجليز المسافرين على ظهر الباخرة ، اذ ان الوجوه التى كانت تحملق فيهما من حول موائد الطعام ، ظلت تتعقبهما بالحملقة على سطح السفينة ، ولكن مع اختلاف طفيف فى التعبير المرتسم على أساريرها ٠٠ فقد انقلب من مجرد فضول متبلد الى ذلك الاهتمام المشوب بالسخرية ، الذى يبديه الشخص العادى ممن يجرى فى عروقهم الدم الانجليزى نحو زوجين حديثى عهد بالزواج !٠٠ ولقد اثارت هذه النظرات المتفرسة غضبا فى اعماق نيجل ، وأيقظت فيه قدرا عظيما من الحنان العجيب نحو زوجته ، مبعثه ازدياد تقديره فجأة للقسوة التى عانتها فى الأعوام الأخيرة من اضطهاد المجتمع وتجنبه لها ونشره اقاويل السوء عنها !٠٠ لقد أصبح لها ـ بعد طول العناء ـ من يحميها ويدفع عنها الأذى ، ويحيطها قلبه بأجنحة عريضة !٠٠ على ان نيجل غدا يصبو الى التحرر من الناس الذين لم يكن ثمة مهرب منهم على سفينة تمخر البحار ٠٠ واصبح وزوجته لا يخاطبان أحدا أثناء رحلتهما سوى ذلك الشاب الذى اعتاد ان يشاطرهما مائدتهما ٠٠ اذ سرعان ما توطدت بينهما وبينه اواصر الصلات التى تربط زملاء السفر ٠٠ الصلات التى لا تورط المرء فى شىء فى المستقبل ، بعد بلوغ البر !٠٠ ومع انه كان يشبه الرجل الانجليزى فى ثيابه ، ويضع على رأسه قبعة من القش نقش بداخلها اسم «سكوت» ، الا انه لم يلبث ان انبأهما بأن اسمه «محمودبارودى»، وان مسقط رأسه فى الاسكندرية ، وانه مزيج من العنصرين اليونانىوالمصرى، وأنه رجل وافر الحمية والنشاط ، قوى العزيمة ، يهتم بمشاريع عديدة ، ويدير الكثير من المؤسسات

وكان يتكلم دائما فى شىء من عدم المبالاة ، والجرأة المهذبة ، وكأنه لا يعنى اقل العناية بما يحدثه حديثه من اثر فى نفوس الغير ٠٠ كما كان يلقى بالمعلومات التى يذكرها عن نفسه ، فى لهجة فاترة ، وبغير اكتراث ، ممـا كان ينم عن شخصيته وخلقه !٠٠ فأشار الى رفعة مركز والده ، والى ثرائه الفاحش ، تلميحا لا تصريحا ٠٠ على انه كان ـ اذا تحدث عن المراكز التى يضطلع بأعبائها ـ يتخذ لهجة أكثر تحديدا ، واقوى تبيانا عن شخصه ٠٠ وأدرك نيجل أنه ولا بد من رجال الأعمال المجدين ، اذ لم يكن فيه شىء من طباع الشرقى الكسول ، الذى يحب أن يجلس فى الشمس ، وينتظـر مشيئة الله ، وان يملأ الأعوام بالأحلام والأمانى ! ٠٠ كما ادرك انه هادىء الطبع ، ثاقب الفكر ، مفعم بتلك الكفاية التجارية الملحوظة التى تميز اليونانى الحديث!

ولكن نيجل لم يعلم ان كانت هذه المقدرة يخالطها شيء من الدهاء الملتوى الذى يتميز به الشرقيون .. وما كان بوسعه ان يتبينه حقا ، فكل ماقاله بارودى، انما قيل فى جلاء ، وفى تحديد دقيق ، سواء أكان حديثه عن مشكلة الأراضى، أم عن مشروعات الرى على النيل ، أم عن التضخم المالى العظيم الذى حدث فى عام ١٩٠٦ والذى تجمعت فيه ثروات هائلة ، أم عن صناعات السكروالقطن التى كان مساهما فيها . وكان الطابع الذى أحدثه فى نفس نيجل يتمثل فى انه رجل خلق لينجح فى كل ما يضطلع به ، وانه فى اية صورة من صور النشاط يستطيع أن يكون حليفا بارعا أو خصما بارعا كذلك ! .. وسرعان ما ظهر أنه كان مولعا بالرياضة ، فقد راح يتحدث فى حماس - كان يختلط دائما بشيء من الرصانة غير المتكلفة - عن الخيول التى كان يربيها والسباقات التى فاز بها فى (الاسكندرية) و (القاهرة) ، وعن رياضة اليخوت ، وعن صيد الوحوش بأعالى النيــــل - جنوبى الخرطوم ، فى بلاد الشلوك - وعن صـــيد البط والحمام والأوز والثعالب فى الفيوم وعلى بحيرة قارون المقدسة !

ووجد فيه نيجل شخصا ممتازا .. كان اوفر من التقى بهم - من الرجال ذوى الدم الشرقى - حمية ونشاطا ولطفا .. أما مسز ارماين فكانت أكثر اعتدالا فى حديثها عنه ، كأنه لم يثر فيها أى اهتمام ، فوجد نيجل فى انعدام اعجابها به ما يؤيد فكرة كانت قد خطرت له عنه .. اذ خالجه الظن بأن بارودى كان رجلا لا يحفل بالنساء الا كملهاة عابرة ذليلة لساعة خالية من المشاغل تقضى فى « الحريم » !.. وكان الشاب جم الأدب مع مسز ارماين ، ولكنه كان اذا ما تحدث تحول - فى حركة غريزية - موجها الحديث الى نيجل .. وفى مرة أو اثنتين كانت مسز ارماين تتركهما وحدهما مع قهوتهما وسيجاراتهما ،فكان يخيل لنيجل - اذ ذاك - أن صاحبه انقلب رجلا آخر ، اذ يتبسط فى مرح ، ولا يصر على الامعان فى سيطرته على نفسه ، وان لم يكن يتخلى عن هذه السيطرة، وانما يغدو أكثر حبورا ، وأكثر ودا ، وأكثر استعدادا للألفة .. ولعله كان متأثرا بالفكرة الشرقية عن المرأة كجنس أقل شأنا من الرجل ، وكان عاجزا عن مسايرة المساواة التامة والبساطة المألوفتين فى علاقة الرجل الانجليزى بالمرأة ..

* * *

◆ وعندما أشرفت الباخرة على ميناء الاسكندرية ، نزل بارودى الى حجرته ، ثم عاد يرتدى الطربوش !.. وتبادلوا جميعا تحية الوداع فى الميناء ، مع ذلك الرجاء المبهم المألوف ، فى لقاء قادم ، مما يوحى به الواجب فى مثل هذه المناسبات ، وينتهى عادة الى هباء !.. وبدت مسز ارماين جذلة للخلاص من ذلك الرجل ، والانفراد بزوجها ، فقالت لهذا : « لا تستبقنا فى الاسكندرية أو

القاهرة ، فاني أريد أن أذهب الى أعالى النهر ٠٠ أريد أن أكون فى فيـــلا اندروود » ٠

وبعد ليلة قضياها فى فندق «شبرد» ، سافرا نحو (الاقصر) ٠٠ أو بالأحرى الى (قنا) ، حيث خرجا فى الصباح المبكر لزيارة معبد (دندرة) ، ثم استأنفا السفر فى قطار تال ، فبلغ بهما (الاقصر) قبيل المساء ، فى اللحظات التى كانت فيها أشعة الغروب الذهبية تسترق الخطى الى السماء ، وتضفى على النهر رواء وجلالا

وكانت مسز ارماين متعبة من الرحلة ، ومن اليوم الطويل الذى أمضياه فى (دندرة) ، والذى كانت تخفى ضيقها منه وبرمها به ٠٠ وراحت تتطلع من نافذة مقصورتهما بالقطار الى سهول الذرة الخضراء ، والى الرجال السمر أشباه العراة وهم ينحنون فى حركات توقيعية على الشواديف ، والى الأطفال راكبى الحمير ، والى النساء وقد وقفن مشدوهات يحملقن فى القطار ، ويضعن أطراف ثيابهن القذرة بين أسنانهن ! وخيل لمسز ارماين انها لا تزال ترى الساحات المعتمة فى بيت «هاتور» ـ بدندرة ـ ولا تزال تسمع صيحات الخفافيش الضخمة التى تسكنه !٠٠ وعندما وقف القطار أخيرا ، نهضت من مكانها فى تثاقل ، وتركت نيجل يساعدها فى الهبوط الى الرصيف ٠٠ وبينما كانت تنظر الى الحشد من المصريين ذوى العيون المحملقة ، قالت : « هل الفيلا بعيدة عن هنا ؟» ٠٠ فقال : « لا ٠٠ اننى أحب أن تمشى اليها ، فهل يضايقك ذلك ؟ »

وكانت عيناه تناشدانها كلمة «لا» ، فأعطته اياها فى لطف بالغ كان ينبغى ان يدون لحسابها بقلم الملاك المسجل للحسنات والسيئات !٠٠ وانطلقا يمشيان الى الفيلا ٠٠ وفيما كانا يخترقان البلدة الصغيرة راح نيجل يشير الى «المعالم» المتباينة : حوانيت العاديات ، حيث يمكن أن تشترى الخواتم والعقود والأحجبة و «خدم الموتى» الخضراء والزرقاء ، والجعارين ، والأقراص المجنحة ، وتوابيت المومياء ٠٠ ثم المسجد ، وكنيسة قبطية ، والمقاهى ، وحديقة فندق الأقصر ٠٠ وكان نيجل يحيى ـ فى طريقه ـ عددا من الأصدقاء المتواضعى المكانة ، كالحلاق الزنجى الذى كان يسمى نفسه «مستر هوايت» !٠٠ و«أهرى احمد» ـ مهرج الاقصر ـ الذى كان يرقص ويتمتم بين يدى مسز ارماين ويصيح مرحبا بها فى عدة لغات ٠٠ و«حسن» عازف الناى الأعور ٠٠ و«حمزة» المكارى المصلى ،الذى كان فى الشتاء «يسرق» أصحاب الملايين جميعا من زملائه ، رغم احتجاجهم ، ويجلس فى الصيف مع الدراويش فى ظلال المسجد الوارفة !

وقالت مسز ارماين فى صوت يشوبه الغموض نوعا ما : « انك تبدو هنا «فى بيتك» ووطنك كما تكون فى لندن !»٠ فقال فى حرارة : « بل اكثر من ذلك بعشر مرات ياروبى ، وهكذا ستكونين انت عما قريب ٠٠ اننى احب المكان الصغير » ٠٠ فهتفت : « احقا؟!» ٠٠ وبعد أن تمهلت قليلا أضافت : « هل توجد فيلات كثيرة هنا ؟ » ٠ فأجاب : « اثنتان فقط على شاطىء النيل ٠٠

رايتها سحرا »
ولمست خمارها وهي تتكلم ، ثم وضعت يدها على شعرها القابع تحته ٠٠ وسمعت اثنين من الفرنسيين يتحدثان بنبرات عالية وهما يمران بهما ٠ وكان احدهما يقول فى تلك اللحظة : « ما رأيت الغروب فى أى مكان بمثل هذه الروعة ! » ٠٠ وكانت لا تزال تتحسس شعرها ، وهى تشعر كما لو كانت ترتدى ثيابا من التراب ٠٠ وفى لهفة المرأة المتأنقة التى لم تدخل حجرة زينتها منذ أربع وعشرين ساعة ، راحت تهفو الى التخلص من الغروب ومن الرجل معا ، فتساءلت : « أين الفيلا يا نيجل ؟ » ، فقال : « انها لا تبعد أكثر من عشر دقائق » ٠٠ وتاوهت روحها فى أعماقها ٠٠ ولكنها مضت تمشى الى الأمام فى عزم أكيد ، حتى مرت امام فندق «ونتر بالاس » فهتفت : « ياله من فندق ضخم ! ولكنه ليس مفتوحا ! » ، فقال : « سيفتح عما قريب ٠٠ فلنعرج الآن يمينا ! »
وكانت بعض الفيران الكبيرة الحجم تلعب على الأحجار الوعرة الملاصقةللنهر ، بينما كان ينبعث من كوخ قريب خوار لاهث كليل ، صادر عن احدى الآلات ، فهتفت : « الى أين نحن ذاهبان بحق السماء يا نيجل ؟ ماهذا الا درب لسير الحمير ! » ، ولكنه قال : « لا بأس ٠٠ اصبرى دقيقة واحدة فقط ٠ هاهو ذا قصر الألمانى ، ودارنا تليه مباشرة ٠٠ أتريننى أسير بسرعة لا تلائمك ياروبى ؟ » ٠٠ فقالت : « كلا ، كلا ! » ٠ وراحت تسرع فى سيرها ، على حين كان جسدها كله يصيح شوقا الى حمام ساخن - أذيب فيه عطر خاص - وبديل لجوربيها وحذاءيها ، وثوب منزلى للشاى ، وأريكة بجانبها مائدة الشاى ، ومائة وواحد من الأشياء التى لاتحلم بها رجولته ! ٠٠ ومالبث ان قال : « هانحن أولاء قد وصلنا أخيرا ! »

★ ★ ★

◆ وظهر أمامها فجأة غلام طويل القامة ، مليح ، فى ثوب فضفاض ذهبى اللون ، وقد أمسك ببوابة خشبية مفتوحة اجتازاها الى حديقة ٠٠ وصاح نيجل : « أهلا يا ابراهيم ! » ، فرد الغلام التحية ، وهو ينحنى بجسمه نحو مسز ارماين ، لامسا طربوشه بيده : « اهلا بك ياسيدى ٠٠ اننى ياسيدتى ابراهيم أحمد ، الخادم الخاص - الذى يسمونه ترجمانا - لسيدى ارماينيجل ! ٠٠ اننى استطيع قراءة الهيروغليفية ، وأعيش دائما فى شباب ومرح » ٠ وتناول يد نيجل فقبلها ووضعها على جبهته بسرعة ثلاث مرات متعاقبة ، وابتسم وهو يشيح بنظراته جانبا نحو الأرض ٠٠ وعاد يردد فى صوت حالم رقيق : «وأعيش دائما فى شباب ومرح ! »
وقطف وردة حمراء من احدى الشجيرات ، فوضعها بين اسنانه الناصعة

احداهما يملكها رجل ألماني .. وفيلتنا هي الثانية »

فقالت لنفسها : « اثنتان فقط ! واحداهما يملكها رجل الماني ! » .. ثم تساءلت كيف يقضيان الشتاء ، فأجاب نيجل : « سيكون على - اذا ما فرغت من تهيئة وسائل الراحة والاستقرار لك هنا - أن أسرع الى الفيوم لأرى كيف يسير العمل ، ولأدبر لك شيئا يروق لك ، اذ انني أود ان آخذك الى هناك عاجلا .. ولكن المكان موحش حقا ، فلم أشأ ان آخذك اليه مباشرة .. وفضلا عن ذلك فقد خشيت ان تشعرى بالسأم والشقاء اذا لم تتوفر وسائل الراحة اللازمة لك ، وانا أحب أن تكونى سعيدة حقا! » .. وكان في صوته قلق يخالطه التمنى . واستطرد يقول كفلام متلهف : « لكم أود ان تحبى مصر ! » ، فقالت : « انني واثقة من انني سوف احبها يانيجل .. أظن انه لا يوجد كازينو هنا ؟ »

- يا اله السموات ! كلا ، وما حاجة المرء الى كازينو هنا ؟

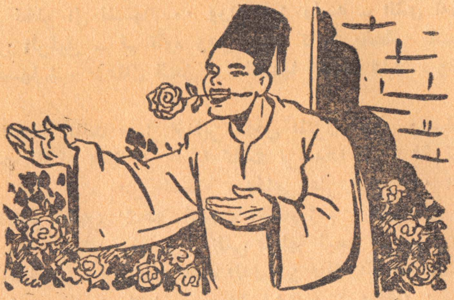
- آه ! انهم يقيمون واحدا أحيانا ، حتى فى مثل هذه الأماكن .. وقد اخبرنى صديق لى ذهب الى (بسكرا) بأنه وجد كازينو هناك !

- انظرى الى هذا ياروبى !.. انه خير من اى كازينو .. ألا تظنين ذلك ؟

وكانا قد عرجا - فى طريقهما - الى اليسار ، وبلغا شاطىء النهر

كان النيل كله قد اكتسى غلالة من الذهب ، تتخللها دوامات صغيرة ذات لون بنفسجى فاقع ، وتتراءى فيها من بعد تموجات متتابعة ذات حمرة شبيهة بالحمرة التى توشى جناح طير العشروس .. وكانت السماء الصافية البهية تشرق بضياء ذهبى باهر خفاق ، وكأنها كائن حى ينبض بانفعال رقيق .. وكانت أشجار النخيل تتمايل على البعد ، والشواطىء العالية تحف بمجرى النيل فى ترامیه نحو الجنوب ، والطيور تمرق فى الفضاء متجهة جنوبا هى الأخرى ، وفقا لاتجاه النسيم ، والخفافيش تدور وتدور كالعجلات حول أعمدة المعبد العظيمة ، والقوارب ذات الأشرعة المثلثة تنتشر سابحة نحو الجنوب مع الطيور ، كأنما هى أحجار كريمة سوداء ، ساكنة ومتحركة ، على الصفحة الذهبية المهتزة .. وكانت جبال ليبيا المحصنة ، فيما وراء (طيبة) ومقابر الملوك ، تقف كديدبانات من الأشباح ترابط فى مراكزها حتى ينتهى هذا الموكب البهيج !

وهتف نيجل : « أليس هذا رائعا ياروبى ؟ » ، فأجابت : « بل .. غاية فى الروعة ! » .وألفت المنظر رائعا بالفعل ، ولكن الغبار الذى تخلل شعرها وثيابها ، والاعياء الذى لاح مخيما على البدن الذى احتضن روحها الكليلة - كما يخيم نسيج العنكبوت على الأشجار - أثقلا تحمسها عن أن يجارى تحمسه .. ولعلها أدركت ذلك ، وأرادت أن ترضيه ، اذ أردفت وهى تشيع نبرة حارة فى صوتها : « يا له من منظر شائق ! .. بل انه اعظم الأشياء التى



البياض ، ثم تحول يقودهما صوب المنزل الأبيض القائم وسط الحديقة ، على بعد نحو مائة ياردة منهما ٠٠ فقالت مسز أرماين : « ياله من فتى لطيف ! » ٠٠ فعقب نيجل : « لقد كان ترجمانى من قبل ٠٠ هاهى ذى مملكتنا الصغيرة! »

ورأت مسز ارماين رقعة فسيحة من الطين الأسمر الذى شققته الشمس ، مجردة تماما من الحشائش ، ومقسمة فى بداوة الى أحواض منخفضة ضمت بعض شجيرات البرتقال و «الست المستحية» ، والورد ، والجيرانيوم (الخبيزة الافرنجية) والبونسيتياس ٠٠ وكانت تحيط بها من ثلاثة جوانب جدران من الطين ، ويحدها النيل من الناحية الرابعة ٠ وقال ابراهيم : « أليس هذا مكانا جميلا يامس ؟ » ٠ فشرعت مسز ارماين تضحك قائلة : « انه يعدنى من العوانس ! ترى هل هذا اطراء لى ؟! » ٠٠ ثم مست ثوب الفتى ، وقالت : «هلا أعطيتنى هذه الوردة يا ابراهيم » ٠٠ فصاح : « سيدتى ! لسوف أعطيك كل ماتريدين ! »

كانت قد خلبت لبه ٠٠ فلما تناولت الوردة التى قدمها اليها مع «السلام» التقليدى ، بدأ المرح يسرى فى أعطافها ٠٠ واستطرد ابراهيم يقول فى رصانة: « لا بد لك من كل ماتبتغين » ٠ فقال نيجل : « انه يقرأ أفكارى ككل شرقى أصيل ! » ٠٠ وهنا قالت مسز ارماين وهى تتشمم الوردة : « ان ما ابتغيه الآن هو ٠٠ الحمام ! » ٠٠ فقال نيجل : « نعم ، بمجرد ان نلقى نظرة اخرى على النيل من حديقتنا ! » ٠٠ ولكنها وقفت امام المنزل وقالت : « ليس بوسعى أن استحم فى النيل ٠٠ الى اللقاء يا نيجل ! »

وقبل ان يقول كلمة واحدة ، عبرت شرفة صغيرة ، وتوارت خلف أبوابها العريضة ، حيث اختفت داخل الفيلا ٠٠ فابتسم ابراهيم ورفع رأسه ثم غمغم: « ان زوجة سيدى ارماينيجل لم تعد تريد ابراهيم ٠٠ ولا تريد النيل ٠٠ كل

ماتريده هو ان تخلو الى نفسها »٠٠ وراح يهز راسه ـ الذى تدلى فوق عنقه الأسمر الطويل الرقيق ـ ثم تاوه وهو يردد كانما يخاطب نفسه : « تريد ان تخلو الى نفسها ! » ٠ فقال نيجل : « لندعها وحدها قليلا ، ونذهب فنشاهد الذهب ! »

وفى تلك اللحظة كانت مسز أرماين داخل المنزل تنادى وصيفتها فى صبر نافد ٠ وهرعت الفتاة اليها ٠ وفيما كانت ترشدها الى غرفة نوم فسيحة ، راحت السيدة تقول : « بحق السماء ، اخلعى عنى ثيابى ٠٠ اننى كتلة من الغبار ، وما ابشع مظهرى ! هل أعددت الحمام ؟ » ٠ ولم تكن الوصيفة هى تلك الوصيفة ذات العينين الحمراوين التى قابلها نيجل فى سافوى ٠٠ وهزت الفتاة كتفيها الصغيرتين ، وبسطت يديها الدقيقتين قائلة : « انه معد يا سيدتى٠٠ ولكن الماء ٠٠ أوه ، لا ٠٠ لا ! » ٠٠ فتساءلت مسز ارماين : « ماذا هناك ؟ ما الذى تعنينه ؟ » ٠ فقالت الفتاة : « ان الماء فى لون شيكولاتة الصباح التى تشربها سيدتى ! » ٠ واذ ذاك هتفت مسز ارماين فيما يشبه اليأس : «اوه !»

والقت بنفسها على احد المقاعد ، ، وهى تستوعب بنظرة واحدة كل صغيرة وكبيرة فى الحجرة التى كانت مؤثثة ومنظمة بمعرفة رجل فرنسى غنى اصيب بالسل ، وكان يعيش هناك مع خليلته ، ثم مات فى القاهرة منذ عهد قريب ٠٠ وقالت السيدة أخيرا : « احضرى الى المرآة من حقيبة الزينة ، وانزعى عنى هذا الثوب ! » ، فأسرعت مارى لاحضار المرآة ٠٠ وراحت مسز ارماين تنظر فيها طويلا ، وفى لهفة بالغة ، بعد ان نزعت الدبابيس الطويلة والقبعة والخمار عن راسها ٠٠ وقالت الوصيفة : « لا يوجد هنا خدم من النساء يا سيدتى !» ٠٠ ولم تنبس مسز ارماين ببنت شفة ، فاستطردت مارى : « كل الخدم هنا من الرجال ياسيدتى ٠٠ وكلهم سود فى لون الجلد الأسود ! » ٠٠ فقالت السيدة : « اغلقى الباب المؤدى الى حجرة السيد ، ولا تثرثرى كثيرا ٠٠ فان رأسى يكاد ينشق !»

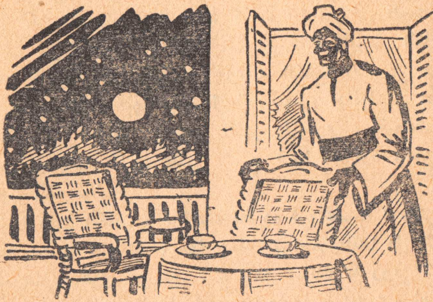
. . . .

ـ ماهذا الذى تفعلينه ؟ ان المرء ليظن انك لم ترى مشدا (كورسيه) فى حياتك من قبل ! لا تتسكعى هكذا ، واذا تسكعت بعد ذلك فسوف «أشحنك» الى باريس بأول قطار فى صباح الغد ! والآن ٠٠ أين الحمام ؟

فغضت مارى أنفها الذى كان يبدو كعلامة الاستفهام ، ثم سارت أمام سيدتها تقودها الى الحمام حيث أشارت الى الماء ، قائلة فى تجهم : « هاهوذا ياسيدتى»٠ فهتفت مسز أرماين : « يا الهى ! » ٠ وراحت تردد هتافها وهى تحملق فى الماء ، فقالت الوصيفة : « مما يثير الحزن ان يفكر المرء فى أن السيدة ٠٠٠ » ، ولكن مسز ارماين قطعت عليها حديثها متسائلة : « هل وضعت فيه عطر ماء النعيم ؟ » ، فأجابت الفتاة : « يقينا ياسيدتى » ٠ فهتفت السيدة وهى تغوص

فى الحوض : « بديع جدا .. ولكن .. اف ! » .. وارتعدت فى اشمئزاز عندما بلغ ماء النيل الأسمر - الغنى بالطمى - صدرها ثم ذقنها ، وغمغمت تقول : « منذا الذى يصدق انه كان يبدو ذهبيا عندما كنا نقف على الشاطىء ! »

الفصل الثانى عشر



ما ان حانت الساعة الثامنة والنصف من ذلك المساء ، وخيمت الظلمة على النيل وعلى حديقة «الفيللا» الصغيرة ، حتى انهمك خادم نوبى طويل القامة يرتدى قفطانا أبيض وحزاما قرمزى اللون فى بسط سجادتين صغيرتين على أرض الشرفة ، تجاه البابين المؤديين الى حجرة الجلوس ، ووضع فوقهما منضدة صغيرة للقهوة ومقعدين كبيرين من نوع «الفوتيل» .. وكان قد وضع المقعدين متباعدين فى بادىء الأمر ، ثم أخذ ينظر اليهما فى تفكير ، وما لبث انوضعهما متلاصقين ، وعندئذ لانت أساريره فى ابتسام .. وقبل ان تختفى الابتسامة من وجهه ، سمع خلفه - فوق «الباركيه» - حفيفا خفيفا لثوب نسائى ، فاستدار الخادم النوبى وراح يحدق فى مسز ارماين ، التى وقفت تجيل بصرها فى حجرة الجلوس .. وكانت حجرة يسودها اللونان الأبيض والأصفر ، ذات أثاث أنيق بسيط ، ينسجم تماما مع ذلك الجمال الناصع البياض الذى بهر الرجل الأسود واستهواه !

كان يراها بارعة الحسن ! وكان شحوب وجهها ، والبريق الهادىء المنعكس من شعرها قد سيطرا على حواسه .. فلما لمحته ، ابتسمت له ، وهى تتأمل - بنظرات صريحة الاعجاب - التناقض بين عمامته التى كانت فى بياض الثلج ، وحزامه وخفيه القرمزيين ، وبشرته السوداء اللامعة .. بينما راح هو يقارن سرا بينها وبين الهلال الذى كان يضىء ليل الشرق ! وما لبث ان خرج الفتى

فى خفة ليحضر القهوة ، بينما خطت هى الى الشرفة ٠٠ ووقفت فى بادىء الأمر ساكنة بلا حراك ، تتفرس فى ذلك الجزء من الحديقة الذى تكشف لها فى الظلام ، وفى التربة الجافة ، وفى شجيرات الورد التى لم تهذب فروعها فبدت برية موحشة ، وفى اشجار « الست المستحية » الصغيرة التى لاحت غير واضحة المعالم وكأنها أطياف جميلة ! وانسل من جوف الليل كلب نحيل داكن اللون ، ذو عينين تتألقان فى صفرة فاقعة ، فوقف بالقرب منها وهو يرتعد ويرقبها خلسة ٠٠ ولم تكن قد رأته بعد ، اذ كانت تحملق فى السماء التى ازدحمت بعشرات الألوف من النجوم ٠٠ تلك النجوم ذات البريق الثاقب التى تشرف على الأرض من السماء الافريقية ٠ ووقف الكلب الأسمر يرتعد ويطرف باجفانه ، وعيناه متعلقتان بها ، ثم أشاح ببصره جانبا الى أسفل ، وما لبث ان عاد ينظر اليها من جديد ٠٠ ومن النهر المتوارى ، انبعثت اصوات الملاحين من بعد باحدى اغنيات النيل التى تشيع فيها الحرارة والحزن معا ، والتى يعشقها الملاحون النوبيون !

ولمحت مسز ارماين الكلب ، فراحت تطرده فى غضب : «اش٠٠اش٠٠اش!»، وهى تشير اليه بيديها متوعدة ، مما جعله يتراجع عائدا الى الظلمات ثانية ٠٠ واذ ذاك هتف صوت قوى من عل : « ماذا هنالك يا روبى ؟ » ٠ فأجفلت ، وقالت : « أوه ! أهذا انت يانيجل ؟ » ٠ وجاءها جوابه : « نعم ، ماذا هنالك؟»

ـ انما هو كلب بشع الشكل ! ماذا تفعل هناك فوق الفيللا ؟

ـ كنت أتأمل النجوم ٠٠ أليست عجيبة الليلة ؟

وكانت فى صوته نبرة من حماس حار يكاد يكون صبيانيا ـ بدات تألفه ـ فقالت : « أجل ، رائعة ! آه ! ها هو ذا الكلب ثانية ! اش ٠٠ اش ! » ٠٠ فصاح نيجل : « سوف أحضر اليك وأطرده » ٠٠ وان هى الا لحظة حتى كان معها ، وهو يقول : « اين هذا الوحش الصغير ؟ » ٠٠ فقالت : « لقد ذهب ثانية ، اذ انك أخفته ٠٠ آه ! هل أحضرت لى معطفا أيها الانسان الواسع الفكر ! » ، واستدارت ليطرح المعطف على جسدها ، فلما شرع يحكمه حولها ، ومست يداه ذراعيها وكتفيها ، اومضت عيناه وتوردت وجنتاه السمراوان ٠٠ ومالبث بعدئذ ان تبدلت تعبيرات وجهه ، ولاح انه كان يكبح شيئا فى نفسه ويصده ! ثم جذبها فاجلسها فى أحد المقعدين ، واتخذ مجلسه بجانبها فى سكون ٠٠

وأحضر النوبى القهوة ، ثم انصرف مبتعدا فى خفة والابتسامة على شفتيه ، فصبت مسز ارماين القهوة بينما أشعل نيجل سيجارا ٠٠ ودفعت قدح القهوة صوبه وهى تقول : « قهوة تركية لمولاى وسيدى ! » ٠٠ ثم أردفت : « أحسب اننى ينبغى ان أتعلم كيف أصنعها » ٠٠ فأخذ يتأملها وهو يمد يده ليتناول القهوة ، ثم سألها : « هل بدات تألفين المكان ؟ » ٠ فاجابته : « لم ينقض

بعد سوى وقت قصير جدا ايها الملهوف العزيز !٠٠ تذكر اننى لم اغمض بعد جفنا هنا ، ولكنى واثقة من انى سوف آلف المكان ٠ وانت ؟ ما هو الشان معك ؟ » ، فأجاب : « اننى لا أكاد أعرف ما أشعر به ! »

وراح يرتشف قهوته فى بطء ، ثم استطرد يقول : « انه تحول عظيم ، فقد مكثت وحدى طويلا ٠٠ ان لى بطبيعة الحال كثيرا من الأصدقاء ، ولكنى مع ذلك كنت كثيرا ما أشعر بالوحدة ، كما كنت انت تشعرين ياروبى ٠٠ أليس كذلك ؟» ٠٠ فكان جوابها : « اننى قلما شعرت بغير ذلك » ٠٠ فهتف : «والليلة ؟» ٠٠ فقالت فى تؤدة : « آه ، الليلة ! ان كل شيء جد مختلف الليلة ٠٠ وانى لأعجب ٠٠ » ، وتريثت دون أن تتم عبارتها ٠ وكانت تسند ظهرها الى المقعد وتتكىء برأسها على احدى الوسائد ، وهى تنظر اليه وفى عينيها ، وعند زاويتى فمها ، ابتسامة خفيفة شبه ساخرة ٠٠ ثم أردفت : «ترى ما الذى سوف يخامر ماير ايزاكسون ؟ » ٠٠ فتساءل : « بصدد زواجنا ؟ »

– نعم ٠ هل تعتقد انه سيدهش له ؟

– أنا ؟! كلا ٠٠ لست أعتقد ذلك البتة !

– انك لم تشر اليه فى أحاديثك معه ٠٠ أليس كذلك ؟

– لم أقل شيئا عن أى زواج ، ولكنه كان يعرف شيئا عن شعورى نحوك !

– مهما يكن من أمر فانى أعتقد انه سوف يدهش للأمر ٠ متى يصل الينا أول بريد من انجلترا ليحدثنا عن رأى الدنيا العزيزة الشفوق الطيبة القلب ؟

– ومن الذى يهتم لما يفكر فيه أى امرىء أو يقوله ؟

– ان الرجال كثيرا ما يأبون ان يعترفوا لنا بهذه الميزة ، ولكننا معشر النساء ، كقاعدة عامة ، شديدات الحساسية الى حد مروع ٠٠ أشد حساسية مما قد تتصور ٠٠ لكم أود أن يأتى يوم يحاول فيه قومك أن يحبونى !

فتناول يدها بين راحتيه ، ومضى يقول : « ولماذا لا يفعلون ؟ لماذا لا يفعلون؟ ولكننا سوف نعتكف فى هذا الشتاء لنفسينا ، فنتعلم كيف يتعرف كل منا الى الآخر ، ونتعلم كيف يثق كل منا فى الآخر ، ونتعلم كيف ٠٠ كيف يحب كل منا الآخر بأطيب وأجمل صور الحب !٠٠ لقد اشتريت هذه الفيلا ياروبى لأننى فكرت فى انك قد تحبينها ، وانها لا باس بها كأول منزل لنا ٠٠ ولكننى عما قريب أود أن تأتى معى الى (سنورس) ٠٠ وعندما تنقضى الخمسة عشر يوما التى خصصتها لشهر العسل هنا ، فسوف أتغيب عنك بضع ليال ، لأرى كيف يجرى العمل هناك ، ولأدبر ما يلائمك ٠٠ سوف أشترى افخم خيمة اجدها فى القاهرة ، فانى أريدك فى المعسكر معى ، حيث الموقع اشد عزلة من هنا ، واكثر وحشة ، واقل تحضرا ٠٠ ان الانسان يتجه هناك نحو الطبيعة الخالصة ! وعندما كنت فى لندن – قبل أن أسالك الزواج منى – كنت

اتصورك فى (سنورس) .. لقد اعتدت أن أقيم معسكرى بالقرب من الماء . وفى الليل ـ عندما ينام الرجال ملتفين فى البطاطين وقطع الخيش ، وحيث تجثم الجمال صفا واحدا ووجوهها متجهة نحو خيمة الرجال ، وهى لا تكف عن المضغ ـ اعتدت أن أخرج وحدى وأصغى الى نقيق الضفادع .. انه أشبه بأنغام مزمار تظل اللعينة تعزف عليه طول الليل !.. سوف تخرجين الى جانب ذلك الماء ، وتستمعين اليها معى .. انه لأمر عجيب حقا ان يثير شىء صغير كهذا خيـــال المرء ! .. آه ! ان مجرد التفكير فى تقاســـيم الناى المصرى أثناء الليل .. » . ثم أمسك عن حديثه ، مطلقا صوتا لم يكن ضحكا خالصا ، وانما كان ضحكا يخالطه شىء آخر ! ثم استطرد : « أمامنا ـ والحمد لله ـ شتاء عظيم ياروبى ، نقضيه معا بعيدا عن العالم »

فرددت كلماته فى بطء : « بعيدا .. بعيدا عن العالم ! » . ثم أردفت وقد تغيرت نبراتها : « اننى فى حاجة الى المزيد من القهوة » .. فقال : « حذار ، والا عز عليك النوم ! » .. فهتفت فى لهجة حافلة بالمعانى : « نيجل .. هل تريدنى أن أنام الليلة ؟ » .. فرمقها دون ان يجيب ، بينما استطردت قائلة : « وحتى اذا كنت لن أستطيع النوم بسبب القهوة ، فلا بد لى من مزيد منها .. وفضلا عن ذلك فانى عادة أسهر الى وقت متأخر » .. فقال مشفقا : « ولكنك الليلة متعبة » ، فقالت باصرار : « لا بأس .. سوف أشرب القهوة ! »

وصبتها فى قدحها ، ثم شربتها .. بينما كان يقول : « أعتقد انك تعيشين كثيرا فى الحاضر » .. فقالت : « وأنت .. انك تعيش كثيرا فى المستقبل ! »

ـ أنا ؟ ما الذى يجعلك تظنين ذلك ؟

ـ ان غريزتى تنبئنى بهذه الحقيقة .. وبحقائق أخرى عنك !

ـ اذا لم تخففى من غلوائك فستجعليننى أشعر وكأننى صنعت من زجاج !

ـ عش قليلا فى الحاضر .. عش فى الحاضر الليلة !

وكانت فى صوتها رنة من الالحاح ، وفى عينيها الزرقاوين الوضـــاءتين ـ اللتين راحتا تتألقان خلال الظلال المرسومة التى كانت تحيط بهما ـ لمحة من الالحاح كذلك .. بل لقد كان هذا الالحاح واضحا فى يدها البيضاء النحيلة الدافئة وهى تضعها فوق يده وتردف قائلة : « ولا تشغل بالك بالمستقبل » .. فابتسم قائلا : « اننى لم أكن مشغولا به .. ولكنى كنت أتطلع اليه ! »

ـ لماذا ؟ اننا هنا الليلة يا نيجل كى نعيش وكأننا لن نعيش الا الليلة ! .. انك تتحدث عن (سنورس) ، ولكن من الذى يدرى ما اذا كنا سنرى (سنورس) قط ، او نسمع الارغول المصرى بجانب الماء يوما ؟ أنا لا أدرى ، وأنت لا تدرى .. ولكننا معا نعلم اننا هنا الليلة ، الى جانب النيل !

وكانت تحاول بكل قواها ـ ولكن فى استتار ـ ان تدمر فيه ذلك الطموح

الروحى الذى كان عنصرا من عناصر طبيعته ، والذى استطاعت - عن طريقه - ان تكسبه زوجا لها .. فقد بدأت تشعر بأن ذلك الطموح بعينه أصبح لا يجد لذاته شاغلا سوى ان يثيرها ويضايقها ويقف فى طريق رغباتها ، فيسد المسالك فى وجهها .. وقال نيجل وهو يتنهد فى عمق : « أجل .. اننا هنا الليلة الى جانب النيل ، نسمع الملاحين وهم ينشدون ... »

وكان المنشدون البعيدون قد أخلدوا الى الصمت منذ دقائق ، ثم لم تلبث اصواتهم ان سمعت من جديد ، وهى تقترب من الحديقة ، كما لو كانوا فوق عائمة تنحدر مع النهر تحت النجوم اللامعة .. وكانت الموسيقى من القرب والدنو بحيث استطاعت مسز أرماين ان تسمع كلمة واحدة ، يصيح بها صوت منفرد : « الله ! الله ! الله ! » .. وكانت تصاحب الصوت همهمة عميقة رتيبة، كما كان المغنى يدق على « دربكة » يضعها بين ركبتيه ، وقد صاحبه (كورس) من الأصوات المنبعثة من الانوف ، فى حرارة بدائية خالية من الفن .. حرارة كان فيها شىء من الحزن والأسى ، وكان فيها شىء آخر ينبض بين الحين والآخر - رغم قسوته وصلابته - بالحنين .. أشبه بقسوة العالم ، التى يخالطها ذلك الحنين الأبدى الى شفاء ما احدثته من جراح !

وعاد نيجل الى حديثه مرددا عبارته الأخيرة : « .. نسمع الملاحين وهم ينشدون ويتغنون بالله ، وبالله دائما .. الله ، اله النيل ، والهنا .. نحن الاثنان الجالسان على ضفاف النيل ! » .. فهتفت : « اش ، اش ، هاهو ذا الكلب قد عاد ! انني أريد حتما .. » ، وكان صوتها قد بدأ يرتفع فى هياج عصبى ، واندفاع فجائى يكاد يكون وحشيا ، ولكنها استعادت سيطرتها على نفسها للتو، واستطردت تتابع فى هدوء : « ألا يستطيع البستانى ان يمنعه من الدخول ؟ .. » ، فقال نيجل : « لعله كلب البستانى .. سأذهب لأرى ما فى الأمر .. لن أغيب أكثر من دقيقة ! » .. واندفع قائما يتبع الكلب الذى كان يزحف على بطنه مبتعدا الى داخل الحديقة ، وهو يتلفت حواليه بعينيه الصفراوين فى وجل ، ليرى ما اذا كان الخطر يقترب منه .

★ ★ ★

◆ الله ! الله ! الله ! .. فىأعماق الليل البهيم !.. ما درت مسزارماين ان هذه الأنشودة التى راح يرددها ملاحو النوبة ، ستصبح - فى ايام مقبلة لم تكن تحلم بها - جزءا لا يتجزأ من وجودها على ضفاف النيل .. لا ، ولكنها رغم ذلك اخذت تصغى فى انتباه توترت له اعصابها حتى غدا مؤلما !

« الله .. الله ! » .. وقالت مسز ارماين لنفسها : « ومع ذلك فمن المحتمل الا يكون هناك اله ! بل كيف يمكن ان يكون ؟ انني واثقة من انه

لا يوجد ! » .. واذ ذاك خيل اليها فجاة أن ماير ايزاكسون قد مثل أمامها في الظلام ، وراح يتفرس في عينيها كما كان يفعل في حجرة الاستشارة بعيادته ، عندما نزعت خمارها واستدارت بوجهها نحو الضوء وأغمضت عينيها ! ما الذي دعاها الى أن تفكر فيه الآن ؟ ولماذا تمثلته أمامها ؟.. وترامى الى سمعها حفيف خافت انبعث من جوارها ، فاجفلت ، وفتحت عينيها .. وعند احد أبواب الشرفة ، كان « ابراهيم » الترجمان يقف ساكنا بلا حراك ، وهو ينظر اليها في امعان ، وقد وضع زهرة بين اسنانه .. فلما تبين أنها قد رأته ، راح يتقدم الى الامام في رشاقة وهو يبتسم ، مطاطئا رأسه وكأنه يستغفر عن وجوده في ذلك المكان .. فسألته : « ما اسمك الذي ذكرته لي ؟ »

فتناول الزهرة من بين أسنانه ، وقدمها اليها ، ثم أخذ يدها فقبلها وأحنى رأسه حتى مس جبينه ظهر راحتها ، وقال : « ابراهيم أحمد يا مولاتي » ..



فنظرت الى ثوبه القصبي اللون ، والى سترته الأوروبية ، ثم الى ذلك المنديل الاخضر - ذي الحواف المذهبة - الذي كان يعقده حول طربوشه ، والذي غطى عنقه وتهدل على صدره .. ثم قالت في استحسان :« شكلك بديع جدا ، ولكني لا أحب هذه السترة ، فانها تبدو انجليزية الى حد بعيد ! » .. فقال : « انها هدية من لندن يا مولاتي ».

« الله ! » .. كان غناء الملاحين يزداد قوة باطراد ، ويبدو أكثر حرارة ، واكثر الحاحا ، وكأنه ابتهالات دينية غريبة تطرد ارتفاعا في الليل البهيم .. فقالت مسز ارماين : « أين هؤلاء الناس الذين يغنون يا ابراهيم ؟ » . وثبتت الزهرة في صدر ثوبها ، بعد أن فتحت معطفها لتفعل ذلك ، ثم استطردت قائلة : « لكأني بهم يقتربون شيئا فشيئا .. أقادمون هم من جنوب النهر الى الشمال ؟ »

فقال : « اعتقد أنهم في « فلوكة » يا سيدتي ٠٠ انهم نوبيون ، وهم دائما ينشدون هذه الانشودة ٠٠ انها أنشودة جميلة ! »

وراح يحرك رأسه في رفق ، متتبعا ايقاع الموسيقى ٠٠ ومن خلال أطراف منديله الحريري ، الخضراء والمذهبة ، كانت عيناه السمراوان الرقيقتان لا تكفان عن التفرس في مسز ارماين التي قالت : « نوبيون ؟! ولكن الاقصر ليست من بلاد النوبة » ٠٠ فرد قائلا : « ان بلاد النوبة تقع جنوبي أسوان ٠٠ والمسلات تأتي من هناك ٠٠ سأريك المسلات غدا يا مولاتي ، فما من ترجمان يفهم كل شيء عن المسلات مثل ابراهيم ! »

فقالت : « انني واثقة من أنه لا يوجد مثلك ٠ ولكن ٠٠ » ٠ وكانت أصوات البحارة المنشدين هذه قد بدأت تسيطر على تفكيرها ، فقالت : « وهل كل البحارة نوبيون اذن ؟ » ٠٠ فأجاب في لهجة لندنية مباغتة : « كلا ! »

ـ ولكن هؤلاء الذين يغنون ؟

ـ لقد قلت انهم نوبيون يا سيدتي ٠٠ انهم رجال محمود بارودي النوبيون !

فاعتدلت مسز ارماين في مقعدها وهي تقول : « بحارة بارودي ! » ٠٠ وأردفت بعد لحظة : « ولكن محمود بارودي ليس هنا في الاقصر ؟٠٠» ٠٠فاذا عينا ابراهيم اللطيفتان تكتسبان حدة وبريقا فجائيين ، وقال : « وهل تعرفين محمود بارودي يا سيدتي ؟ »

ـ لقد قابلناه على الباخرة قادما من نابولي ٠

ـ انه كبير جدا ٠٠ كبير كرمسيس الثاني ٠٠ كتمثال الملك نفسه الذي ترينه أمامك في معبد الرامسيوم !٠٠ وعيناه واسعتان كعيني ، والشعر الكث يحف بهما هكذا !

ورفع يديه السمراوين الى أعلى ، مقلدا حاجبي « بارودي » العجيبي الشكل ٠٠ فأومأت مسز ارماين برأسها ، بينما مد ابراهيم يديه نحو النيل قائلا : « هؤلاء هم رجاله النوبيون ، وهم قادمون من « دهبيته » التي تنتظره في الاقصر الآن ٠٠ انهم الليلة بلا عمل ، ولذلك فهم يقبلون على شيء من اللهو !»٠ فتساءلت السيدة : « وهل هو قادم الى هنا ٠٠ الى الاقصر ؟ » ٠٠ فأومأ ابراهيم برأسه في هدوء وقال : « اجل ، انه قادم الى الاقصر يا سيدتي ٠٠ وهو رجل لطيف جدا ، ورجل طيب جدا ! انه كبير كرمسيس الثاني ، وغني كالخديو ! ولديه من المال مثل هذا القدر ! » ٠٠ وطوح بذراعيه في الفضاء كأنه يرسم عالما كبيرا أو محيطا شاسعا ٠ ثم أسقط ذراعيه فجاة وهو يضيف : « ها قد جاء سيدي ! »

وبرز نيجل من ظلمات الحديقة قائلا : « أهلا يا ابراهيم ! » . فأجاب الترجمان : « أهلا بك يا سيدى ! » .. فعاد نيجل يقول متلطفا : « هل جئت تؤنس وحشة سيدتك فى غيابى ؟ أحسنت يا بنى ! » . واذ ذاك ابتسم ابراهيم ثم ابتعد متمهلا نحو شاطىء النيل ، وتلاشى ضياء ثوبه الذهبى بين جذوع أشجار البرتقال الصغيرة .. بينما قال نيجل وهو يجلس فى مقعده ويتنهد فى رضى وارتياح : « لقد تحققت من أنه كلب البستانى نفسه .. وقد ألزمته باطعام الحيوان المسكين ، اذ أوشك أن يموت جوعا ، وهذا ما كان يأتى به الينا » .. فقالت فى وهن : « فهمت ! »

وغمغم نيجل : « الله ! » .. وكان فى نطقه بها كرجل من الشرق .. ثم نظر فى عينيها ، وراح يقول : « انها الكلمة الاولى التى تسمعينها ـ فى الليل ـ من مصر يا روبى ! انها تحية ليل مصر اليك .. وكثيرا ما سمعت هذه الأنشودة فى أعالى النهر ، عند بلاد النوبة ، ولكن .. أوه ! شد ما تبدو لى الآن مختلفة ! »

وكانت مسز ارماين فى تجاربها الطويلة ـ خلال حياة معقدة وحافلة بالتقلبات ـ قد سمعت صوت الحب من أفواه الرجال ، مرات عديدة .. ولكنها لم تكن قد سمعت قط ـ حتى هذه اللحظة ـ صوت الحب من نيجل ، زاخرا مليئا .. وتبينت فيه شيئا لم تعرف كيف تتجاوب معه ، وهى التى كان لها من غريزة الغانية اللعوب ما يمكنها من التجاوب الكامل التام مع رغبات الرجل الذى دبرت بنفسها أمر ارتباطها به .. لقد كانت مدينة له بهذا ، ولكن ما أكثر ما كانت مدينة به لشىء آخر فى أعماقها ؟! .. ان ثمة جوعا كان يعوى فى أعماق نيجل ، ولم يكن لديها قوت له !.. فلماذا أظهر لها هذا الجوع ؟.. لقد طالما ضاقت نفسها بمظهر هذا الجوع ، أما الليلة فانها تحس بأنه يشحذ كل كيانها ويرهف حسه .. ومع ذلك ، فقد عقدت العزم على أن لا تدع نيجل يرى انفعالها .. ومن ثم فانها أجابت فى هدوء بالغ : « اننى أسمع هذه الأغنية للمرة الأولى معك .. لذلك فسوف تظل مقترنة بك فى نفسى ! »

فدنا منها قليلا .. وفهمت ، واستطاعت أن تجيب النداء الذى استثار هذه الحركة .. فهتف يقول : « يجب أن نشرب ماء النيل معا يا روبى .. ماء النيل بأشكاله المختلفة .. وسوف آخذك الى مقابر الملوك والى بهو الأعمدة ، بينما تكون الشمس موشكة على المغيب .. وعندما يشرق القمر ، سنذهب الى الكرنك .. وانى لواثق من أنك ستحبينها جميعا ، كما أحبها أنا .. من الطبيعى أن المرء لا يستطيع أن يعرف مدى مشاعر غيره ، ولكن .. هل تظنين انك ستحبين معى كل هذه الأماكن ؟ »

وكانت تخالط الحرارة والرغبة فى صوته نبرة تنبىء بالقلق وبذلك الشك النفسى الذى يصاحب الحب فى أنواع معينة من الطبائع البشرية ·· وقالت المرأة : « أعتقد أننى احبها جميعا ·· معك » · وتركت يدها تسقط فى يده ، فلما أطبقت راحته عليها تحركت غرائزها ·· كان فى نيجل شىء يجـذب جسدها اليه ، بشدة وقوة فى بعض لحظات معينة ، فكان عليها ـ فى حياتها المقبلة ـ أن تطرد ما قد يتعارض مع هذه الجاذبية !

واستطرد نيجل فى حديثه قائلا : « ويوما ما ·· يوما ما سآخذك لترى الليل وهو يهبط على أبى الهول ، أعجب ما فى مصر ، بل ما فى العالم بأسره ! ·· نستطيع أن نفعل ذلك عندما يكون حتما علينا أن نمر بالقاهرة ، فى ذهابنا الى الفيوم أو سفرنا منها ، بمجرد أن أعد لك أسباب الاقامة هناك ! »

ـ انك تفكر فى كل شىء يا نيجل !

ـ أولا تحبين أن تكونى موضع التفكير ؟

ـ ما من امرأة على ظهر البسيطة لا تحب ذلك !

وضغطت يده فى رفق ، ثم رفعتها فوضعتها على ركبتها ·· وعندئذ رأته يتطلع الى النجوم ، فأيقنت أنه كان يربط بينها هى وبين النجوم ·· ويفكر فيها كشىء مثالى ، أو انه ـ ان لم يكن الأمر كذلك ـ يفكر فيهـا كشىء يمكن ان يغدو مثاليا فى الوقت الملائم ! وقالت : « اننى لست نجما ! » ·· ولكنه لم يحر جوابا البتة ، فعادت تقول : « نيجل ·· لا تكن من الحمـاقة بحيث تفكر فى كنجم من النجوم ! » ·· فالتفت اليها فجأة وقال : « ماذا تقولين يا روبى ؟ » ·· فأجابت : « لا شىء ! »

ـ ولكنى سمعتك تتكلمين ؟

ـ لابد انها كانت أصوات الملاحين المنشدين ·· لقد كنت أتطلع الى النجوم ·· تالله ما أعجبها !

وفيما كانت تقول ذلك أتت بحركة خفيفة جعلت معطفها ينفرج بحيث بدا نحرها الناصع ، وهى تردف : « ما أبدع هذا الدفء الجميل ! » ·· فنظـر الى نحرها ، وتنهد ، وبدا عليه التردد لحظة ·· ثم انحنى فجأة كما لو كان يهم بتقبيله !·· ومزق السكون فى تلك اللحظة الصوت الأخن ، المنبعث من أنف الملاح الذى كان يردد الهتاف المنغوم « الله ! » وهو يتزعم المنشدين ، قادما الى الحديقة من النهر ، بينما كانت دقات « الدربكة » تدوى عاليا ·· عندئذ رفع نيجل رأسه دون أن يقبلها ، وقال : « ان هؤلاء الملاحين قريبـون من الحديقة ! » ·· فالتفت مسز ارماين فى معطفها فجأة ، بينما كان ماضيا فى حديثه قائلا : « هل تحبين ان نهبط الى النهر ونراهم ؟ » ، فأجابت : « نعم ، دعنا نذهب ·· ينبغى أن أراهم ! » ·· ونهضت من مقعدها فى حركة

سريعة رشيقة ، كانت مليئة بدافع من التحمس الملتهب ، فى حين كانت عيناها تلمعان فى ضراوة ، كأنهما تجيبان على أصوات الملاحين الضارية !

وجذب نيجل ذراعها فتابطها ، وانحدرا على الممر الرملى الصغير أمام أشجار البرتقال الساكنة ، حتى بلغا ضفة النهر .. وكان ابراهيم واقفا هناك ، يدخن سيجارة ، ويسترق النظر ساهما ، من خلال دثاره ذى الأهداب (الشراريب) .. فقال نيجل : « أين الملاحون يا ابراهيم ؟ » .. فبادر مجيبا : « ها هم أولاء قادمون يا سيدى » .. وعلى الظلمة الرجراجة المترامية التى لفت النهر ، كأنها طريق رحبة من مسالك الليل تمتد موغلة نحو أصقاع افريقية نائية ، وهى تحتضن ضفتى النهر بسياج من الأشجار المعتمة .. على هذه الظلمة أقبلت « الفلوكة » وهى تتألق بالمصابيح .. والمجاديف تضرب صفحة الماء مختلطة بأصوات الرجال ، الذين بدوا كأشباح مبهمة ، بعضها جاثم ، وبعضها منتصب ، وبعض ثالث انحنى مطلا على النهر الذى تخللته خيوط من الضوء ، أخذت تتساقط فيها قطرات متألقة من الماء العالق بالمجاديف المرفوعة . واذ تكشف هذا المنظر للمتفرجين الواقفين فى الحديقة، هتف ابراهيم : « ها هم أولاء النوبيون قادمون » .. فقال نيجل : « ترى ما الذى يفعلونه هنا ؟ ولماذا يصعدون فى النهر الليلة ؟ رجال من هؤلاء يا ترى ؟ »

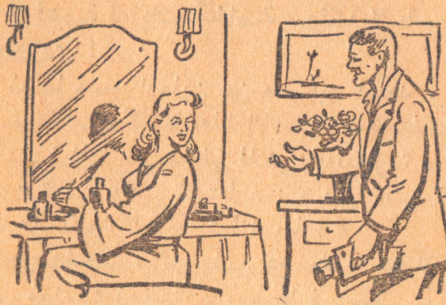
وفتح ابراهيم شفتيه ليجيب ، ولكن مسز ارماين نظرت اليه .. وعندئذ أطبقهما دون أن ينطق بكلمة واحدة ! بينما هتفت : « صه ! اننى اريد أن أسمع غناءهم » .. فقد لاح لها ذلك وكأنه حفل موسيقى ليلى (سيريناد) من الشرق ، أقيم ترحيبا بمقدمها الى مصر .. أو كأنه صوت افريقيا العظيمة السوداء يتحدث اليها وحدها من ثنايا الليل .. يخاطبها فى نداء قوى ، ويتحداها ان تستطيع الاغضاء عن الاصغاء اليه ، أو الاستجابة الى دعواته البدوية !.. وثار فى أعماقها لون من الخيال الحيوانى ، فبدأت تحس بانفعال قوى ينهشها .. ولم تعد تسمع اسم « الله » .. وحتى لو سمعته ، فانها لم تعد تربط بينه وبين الاله الذى يعرفه المسيحيون ، أو الاله الذى يعرفه نيجل ، وانما بينه وبين تلك الأصنام الغريبة القائمة فى المعابد المعتمة ، حيث تختلط الجريمة بالعبادة .. لقد ثار خيالها فجأة ، واستجمع كل نشاطه ، ثم اندفع يعدو جامحا !

وظل القارب واقفا أمام الحديقة ، فراحت تحدث نفسها : « لعلنى المقصودة بهذا .. بل اننى المقصودة به حقا ! » .. وادركت من تلك اللحظة على وجه التحقيق أن هذا القارب قد أتى الى الحديقة لأنها كانت تقيم فى هذه الحديقة ، وانه تمهل حتى تستوثق من ان الغناء كان موجها اليها ولم يكن لأحد سواها

.. انه لم يكن لها ولنيجل معا .. اذ لا شأن لنيجل به ، وما هو بالذى يفهم مغزاه ! .. وما لبث القارب أن تحرك الى الأمام ، وأخذت المجاديف المتلألئة تحت الأضواء تتأرجح فوق الماء مبتعدة ، والأصوات تحلق تحت النجوم سارية ، الى أن طواها الليل فى أحضانه .. واستحوذ غموض مصر - الذى لا يغفل ولا ينام - على الضوء والغناء !

وعندئذ قال نيجل فى تهيب ، وقد خامرت صوته رجفة : « هل نعود الى الفيلا يا روبى ؟ » .. فلم تحر جوابا لحظة . وما لبثت أن قالت : « أجل .. احسب ان الوقت قد حان للذهاب الى الفراش » .. فتأبط نيجل ذراعها ثانية .. ومضيا متجهين نحو المنزل ، بينما كان ابراهيم يرقبهما والابتسامة على شفتيه !

الفصل الثالث عشر



• **قال** نيجل بعد أسبوعين - وهو يلج مخدع زوجته عقب رياضته الصباحية التى كان يتمشى خلالها على ضفة النهر بعد استحمامه فى النيل : « روبى .. من تظنيننى قد قابلت لتوى فى الأقصر ؟ » .. وكان ممسكا فى يده بحزمة من الخطابات والصحف ، اذ كان البريد قد وصل منذ قليل .. وكانت مسز ارماين فى ثوب منزلى (روب) طويل أبيض اللون ، لا يبرز تقاطيع جسمها ، وقد تهدل شعرها اللامع خلف عنقها ، وجلست أمام منضدة الزينة .. فالتفتت من

فوق كتفها قائلة : « أهو شخص نعرفه نحن الاثنان يا نيجل ؟ » ٠ فأومأ برأسه موافقا ٠٠ واذ ذاك قالت : « ما أحسبك تعنى القرمزى والأحمر القانى ؟ » ٠٠ فقال : « آل هايمان ؟ كلا ، ولو انني أعتقد انهما هنا فى فندق ونتر بالاس » ٠٠ فغمغمت عابسة : « غفر الله لهما ! وهل الذى قابلته رجل أم امرأة ؟ » ، فأجاب : « بل رجل ! »

واستدارت دفعة واحدة ، فى حركة حادة فجائية ، وقد تشبثت يداها بمسندى المقعد وهتفت قائلة : « رجل ! ما أحسبه ماير ايزاكسون ؟ »

ــ ايزاكسون ؟ يا اله السموات ! انه لا يأخذ اجازة قط الا فى شهر اغسطس ٠ ياللصديق العزيز الحميم ! كلا ! بل هو شخص لا أهمية له بصفة خاصة ، ولكن لا بأس به ! ماهو سوى ٠٠ بارودى !

فتهاوت ذراعا مسز ارماين عن مسندى المقعد ، وهى ترتد الى المرآة ، ثم قالت وكأنما هذا الاسم لا يعنى شيئا بالنسبة لها : « بارودى ! لماذا تثير شغفى للاشىء يانيجل ؟ » ٠ وتناولت ناثرة « البودرة » ، وهى تستطرد : « هل تعنى ذلك الرجل الذى رأيناه على الباخرة ؟ ما شأنه بنا ؟ »

فعبر نيجل الحجرة ، ثم جلس على مقعد بجوار منضدة الزينة ــ فى مواجهة زوجته ــ ممسكا فى حجره بحزمة الخطابات والصحف ، وقال : « أفكنت تتوقعين شخصا آخر يا روبى ؟ » ٠٠ فقالت : « كلا ، لأننا لا نريد أحدا ! ولكنك أثرت لهفتى وترقبى ، ثم ألقيت عليه رشاشا باردا ! يا لك من شخص مزعج ! » ٠٠ وكان فى صوتها نوع من السخط المكبوت ، ولكن عينيها وشفتيها كانت تبتسم وهى تمر بناثرة المسحوق على وجهها ٠

واستند نيجل بذراعه الى منضدة الزينة وقال : « روبى ! » ، فهتفت متسائلة : « نعم ٠٠ ماذا هنالك ؟ » ٠ وتوقفت عن نثر

البودرة على وجهها ، بينما قال : « كم أود ألا تفعلى كل ذلك ! » . فسألته فى دهشة : « كل ماذا ؟ »

- كل الذى تفعلينه بوجهك ، فأنت جميلة .. وبودى لو تركت وجهك على سجيته !

- اننى أفعل ذلك فى الواقع ، ولكنى أحاول أن أقى بشرتى حرارة الشمس ! ولا ريب فى انك لا تريد منى ان أبدو كزوجة واحد ممن يسميهم ابراهيم « الفلاحين » .. أليس كذلك ؟

- انما أريد أن تظهرى طبيعية بسيطة كشأنك معى دائما ، ولست أعنى طبعا انك بسيطة العقل ، وانما أقصد أسلوبك وطريقة حياتك !

- يا عزيزى نيجل .. من ذا الذى يتصنع فى هذه الأيام ؟ ولكننى مضطرة الى أن لا أظهر كنساء الفلاحين .. ان ذلك يصدم ابراهيم ويفجعه !

ومع ذلك فقد وضعت ناثرة المسحوق جانبا ، بينما قال نيجل : « انك لاتثقين فى جمالك الحقيقى يا روبى ! » . فاضطجعت فى مقعدها وراحت تنظر اليه فى رصانة ، وكأن ملاحظته هذه قد أثرت فيها تأثيرا قويا .. ثم تطلعت الى المرآة ، وعادت تنظر اليه من جديد قائلة : « هل تظن اننى ينبغى أن أكون من الحكمة بحيث أثق فيه كما هو الآن ؟ » .. فهتف متحمسا : « لا ريب فى ذلك » .. ووضع يده فوق يدها ، ثم استطرد : **« انك تزدهرين هنا فى مصر .. ولكنك لا تكادين تمكنين المرء من ادراك ذلك عندما تضعين هذه الأشياء فوق وجهك »**

وعادت تحدق النظر الى المرآة فى صمت . وأخيرا قالت : « هل هناك خطابات لى ؟ » ، فأجاب : « اننى لم أنظر اليها بعد ، فقد كنت أتمشى مع بارودى على الشاطىء ، حيث لحق بدهبيته ، وسيذهب بها الى (أرمنت) ليشرف على أعماله فى صناعة السكر هناك » .. فغمغمت : « آه ! » ، بينما استطرد

نيجل قائلا : «وأظنه لن يبقى الا الى الغد أو الى يوم الأربعاء٠٠ وقد دعاني للذهاب الى يخته والتفرج عليه بعد الظهر ! » ٠٠ فسألته : « وهل انتويت الذهاب ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « لقد قلت له انني لن ألبث ان أخبره ٠٠ فهل أذهب ؟ » ٠٠ وأجابت متسائلة بدورها : « أو لست تريد أن تذهب ؟ »

ـ انني أحب أن أرى العائمة ، ولكن ٠٠ انت تعلمين انه نصف شرقي ، ولعله لم ير من الصواب ان ٠٠ ولكن ٠٠٠

ـ تقصد أنه لم يدعني معك ؟ ولماذا ينبغي أن يفعل ؟ اذهب يا نيجل ، فأنت في حاجة الى صحبة الرجال أحيانا ، وما ينبغي أن تجلس دائما بجانبي ! وفضلا عن ذلك فانك موشك على السفر الى (الفيوم) ، ويجب أن تتعود الوحدة بين ساعة وأخرى !

فضغط على يدها في رفق ، وقال : « لسوف أعود من الفيوم سريعا ٠٠ وسريعا سوف تذهبين معي الى هناك » ٠٠ فهتفت : « انني أحب هذا المكان ٠٠ أهناك خطابات لي ؟ » ٠٠ واذ ذاك فك الخيط الذى كان يربط رزمة الخطابات ، وراح يتصفحها ، ثم ناولها ثلاثة أو أربعة خطابات ، فقالت : « والآن اذهب واقرأ خطاباتك بعيدا عني ٠٠ فانني لاأستطيع أن أفعل شيئا عندما تكون في حجرتي ، لأنك تستحوذ على انتباهي كله ! وسوف ألحق بك تحت بعد بضع دقائق» ، فقبلها وانصرف ،ملبيا رغبتها

وعندما بلغ حجرة الجلوس الصغيرة ، ألقى بالصحف على احدى المناضد في غير اهتمام ، ودون أن يفض أغلفتها ـ اذ قلما نظر في صحيفة منذ أن قدم الى مصر ـ فقد كانت لديه أشياء أخرى لابد له من أن يفعلها ٠٠ أشياء شغلته عقلا وجسدا ٠٠ اذ كان نيجل ، ككثير من الرجال الذين خلقوا وبهم حماس حيوى عظيم، يعيش أحيانا وعلى جانبي وجهه مثل رفاريف الحصان ، التي تحجب عن ناظريه تماما كل مافي العالم عن يمينه ويساره ٠٠ كان في وسعه أن يركز حواسه في أمر واحد الى حد يدعو للدهشة ٠ وقد ركزها ـ منذ قدم الى مصر ـ في زوجته وفي حياته الخاصة من

حيث علاقته بها ٠٠ ولم تكن تزعجه شئون الأمم والدنيا كلها ٠٠ الا أنه اعتاد أن يقرأ خطاباته وبعض أشياء أخرى الى جانبها، ومن ثم فقد تناول الرسائل التى وصلته هذا الصباح ، ومضى خارجا الى الشرفة ليلقى عليها نظرة فى الشمس الساطعة ٠٠ وكانت الرسائل تتضمن فواتير ومطالبات ، ورسالة من وكيله فى (اتشنجهام) ، وحوالة من رجل الأعمال الذى يعامله فى القاهرة ٠٠ ثم ـ مرحى ! ـ خطاب من أخيه هارويتش !٠٠ ولم يوح له هذا الخطاب ببهجة كبيرة ، فقد سبق أن تلقى عدة خطابات عائلية لايلوح فيها الابتهاج بزواجه ٠٠ لكن أهله لم يضايقوه الى الحد الذى كان يخشى من قبل أن يفعلوه ٠٠ ولم يكن يتوقع أن ينظر أقرباؤه أو العالم الى الأشياء بعينيه هو ، أو أن يفكروا فى « روبى » بشىء من الرفق أو التسامح من أجل ماضيها ٠٠ كان يعرف دنياه بحيث لم يكن يتطلب منها أمرا لايقبله العقل ، ولكن « هارويتش » سبق أن عبر عن رأيه بحريته المعتادة ، ولا يبدو ان ثمة سببا معينا يجعله يعاود الكتابة اليه سريعا على هذا النحو !

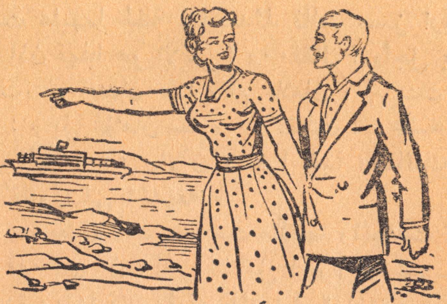
وفتح نيجل الخطاب وقرأه فى سرعة ، ثم أعاد قراءته ، وبعدئذ وضعه على ركبتيه وجذب قبعته المصنوعة من التيل فوق عينيه ، ثم مكث فترةطويلة بلاحراك ، ممعنا فى التفكير٠٠ فقد حمل اليه خطاب أخيه ان «زوى» زوجة أخيه هارويتش ، قد وضعت غلامين توأمين ، وانهما كانا « فى صحة جيدة الى حد يكاد المرء يذهل له ٠٠ مرحى ، مرحى ! » ٠٠ وكان المرح البالغ الذى أبداه هارويتش فى خطابه طبيعيا تماما ، ومن الجائز أن يؤخذ على انه منبعث من المشاعر الأبوية التى حظى بها ، غير أن ابتهاجه انطوى على بارقة من الزهو لم تغب عن فطنة نيجل ، وهى التى جعلته يمعن فى التفكير الآن ٠٠ لقد كان هارويتش مبتهجا لأن ظفره بالنسل قد حجب نيجل وزوجة نيجل عن الميراث ، ولأن مسز ارماين ـ كما أصبح فى وسع

المرء أن يرى ـ لن تكون البتة « ليدى هارويتش » !
ولم يبال نيجل بالامر قط بالنسبة لنفسه ، فمع أن هارويتش كان يكبره بعشر سنوات ، الا انه لم يفكر البتة فى ان يرثه ، ولم يتمن قط ان يرثه ! وعندما تزوج من«روبى» كان يعلم ان زوجة أخيه سوف تنجب طفلا .. كان يعلم ذلك ، ولكنه لم يخبر روبى به ! .. ولم يتعمد اخفاء الأمر ، وانما .. كل ماهنالك أنه لم يخطر بباله أن يخبرها عنه ! أما الآن فان لهجة خطاب هارويتش جعلته يسائل نفسه : هل يسوؤها الأمر ؟!
وسمعها اذ ذاك قادمة الى الحجرة خلفه ، ثم اجتازتها وانتقلت الى الشرفة ، وهى تقول : «نيجل ! هل أنت نائم ؟» ، فهتف : « نائم ؟! فى هذه الساعة ؟ » . وللمرة الأولى خالجت صوته نبرة غير طبيعية .. كان يغتصب لهجة مليئة بعدم الاكتراث . وقفز من مقعده ، فتناثرت الخطابات على الأرض .. فهتفت : « أو لم تقرأ خطاباتك فى هذا الوقت كله ؟! » .. فقال : « لا .. لم أقرأها كلها .. حتى الآن على الأقل ! »
وانحنى يلتقط الخطابات من الأرض ، وهو يستطرد : «لقد شغلت بقراءة خطاب من أخى .. من هارويتش » .. فرمقته بنظرة حادة ، وقالت : « من اللورد هارويتش ؟ أهى أنباء سيئة ؟ هل اللورد هارويتش مريض ؟ » ، فأجاب : « كلا يا روبى »
ـ ماذا فى الأمر اذن ؟
ـ الأمر ؟ لا شىء ! بل انها على العكس أنباء سارة !
وكانت عيناه ، على الرغم منه ، تحدقان النظر اليها فى تفرس شديد ، بسبب القلق الذى انتابه .. واستطرد : « لقد ظل اللورد هارويتش المسكين ينتظر طويلا..وها هو ذا أخيرا قد حصل على ما كان يتوق اليه ! » . فتساءلت : « وما هو ؟ » .. وكان جوابه : « طفل .. أعنى طفلين ، توأمين ! » ..

وران الصمت عليهما لحظة ، وبعدئذ قالت مسز ارماين ، فى ابتسام : « اذن فهذا هو الأمر ! »٠٠فقال : «أجل يا روبى !» ٠٠ وتساءلت : « أبنتان هما ، أم غلامان ، أم بنت وغلام ؟ » ٠٠ وأجابها : « بل غلامان معا » ٠٠ فقالت : « **هنئه نيابة عنى عندما تكتب اليه !** ٠٠ والآن ، اقرأ بقية رسائلك ٠ أما أنا فسأذهب لأتجول فى الحديقة »

وفيما كانت تقول ذلك ، رفعت مظلتها وانطلقت تخطر نحو النيل ، متوقفة بين آن وآخر لتتأمل زهرة أو شـــجيرة ، أو لتمسك بوردة ريثما تشمها ثم تفلتها فى تراخ وفتور٠٠وساءل نيجل نفسه : « ترى هل يسوؤها الأمر حقا ؟ يا للعنة ! هل يسوؤها الأمر ؟ » ٠٠ ولم يكن محياها قد اكفهر ، ولا صدرت عنها بادرة غضب رغم ارادتها ، ومع ذلك فقد كان فى هدوئها الظاهر نوع من التحفظ والكبت جعل بدنه يقشعر جزعا !٠٠ لقد كانت من البراعة فى قراءة أفكار الناس بحيث انها ولابد قد أحست بالقلق الذى ملأ قلبه ، والرغبة الحارة فى أن يطمئن ويهدأ جأشه ! ٠٠ **لو انها فقط قابلت الأمر فى صراحة ، ولو انها جاءت اليه ولمست يده ، وقالت : « أيها الصديق الحميم العـــزيز ٠٠ ما الذى يهمنا من الأمر ؟ ما أحسبك تظن اننى عنيت قط بأن أكون ليدى هارويتش المقبلة ؟» ـ أو شيئا من هذا القبيل ـ اذن لتلاشت شكوكه وانمحت الى غير رجعة ٠ ولكنها تلقت الأمر فى برود غـــير مألوف ، وأقصت الموضـــوع عن حديثهما فى تعجل أكثر مما ينبغى ٠ ولعل الخطأ ـ مع ذلك ـ خطأه هو ، اذ كان متحفظا معها ، ولم يقل لها كل ما كان يفكر فيه أو أى شىء كان يفكر فيه !**

وبدافع قوى ، أسرع خلفها حتى أدركها عند ضفة النيل ، وهو يصيح : « روبى٠٠روبى ! » ٠ ولكنها قالت : « انظر ! » ٠٠ فهتف : « ماذا ؟ أوه ! انهـــا ذهبية بارودى وقـــد ألقت



مرساها هناك ! نعم ، كنت أعرف ذلك ، فقد أراد الفرار من ضوضاء الاقصر ٠٠ روبى ، انك ٠٠ انك لم تبالى بالأمر ٠٠ أعنى هارويتش والغلامين ؟ »٠٠فتساءلت : « أبالى ؟! »٠ وبدا الغضب واضحا فى صوتها بغتة ، ولاح فى عينيها البراقتين وميض قاس وهى تقـــول : « أبالى ؟ ما الذى تعنيه من ذلك يا نيجل ؟ » ٠٠ فقال : « الواقع ٠٠ انك ترين ان ذلك يحدث اختلافا كبيرا فى مركزى من وجهة النظر الدنيوية » ٠٠ وكان ردها : « وهل تظننى أهتم لذلك ؟ لقد حدست ان هذا ما جال ببالك ٠٠ ولقد أدركت تماما ما الذى كنت تفكر فيه على الشرفة ! »

وكانت فى صوتها نبرة تنم عن الاستياء لما أصاب كرامتها من جرح ! وما لبثت أن أضافت فى نوع من الهدوء والمرارة البالغة : « ولكن ٠٠ أى شىء آخر كان ينتظر أن يخطر لك أو لسواك ؟ » ٠ فهتف بها : « روبى ! » ٠ وحاول أن يمسك بيدها ، ولكنها لم تدعه يفعل ، بل صاحت : « كلا يا نيجل! لا تمسنى الآن ! اننى٠٠اننى خليقة بأن أمقتك لو مسستنى الآن ! » ٠٠ وكان وجهها يتقلص فى أسى ولوعة ، والدموع تتردد فى عينيها ، وهى تستطرد : « **لست ألومك قيد شعرة ٠٠ ولابد أن أكون حمقـــاء اذا توقعت من أى شخص ـ حتى**

أنت ـ أن يثق بى ، بعد كل ذلك ٠٠ كل ذلك الذى حدث ! ٠٠ ولكن من الصعب ، بل انه من الشقاء المروع أحيانا ، أن يحتمل المرء هذا الجمود والكفر بامكان وجود أى خير أو نزعة طيبة فى نفسه ! »

واستدارت تبتعد فى عجلة ، ولكنه هتف بها فى رقة وحنان : « روبى ! » ٠ فقالت : « كلا ، كلا ، دعنى وحدى قليلا ! » ٠٠ ثم صاحت به اذ رأته يتبعها : « قلت لك اننى أريد أن أنفرد بنفسى ! » ٠٠ فظل جامدا مكانه فى ممر الحديقة ، يرقبها وهى تمضى حتى دخلت المنزل ، وراح يقول لنفسه : يا لى من حيوان ! لست الا وحشا ضاريا ! ٠٠ وشدد الضغط على قبضتيه ٠٠ كان فى تلك اللحظة يمقت نفسه ، ويتوق الى أن يصارع هذه النفس فيصرعها ويصرع الرجال جميعا معها ٠٠ **أولئك المرتابين فى وجود الخير ، المتشككين والمكذبين للفضائل ٠٠ انهم عوامل التدمير لكل ماهو طيب ونبيل !**

★ ★ ★

◆ **أما** مسز ارماين فقد مضت الى حجرتها رأسا ، وأوصدت الباب دون وصيفتها ، ثم استسلمت لعاصفة عنيفة من الحزن والأسى ، كان مبعثها تلك الرغبة العمياء التى دفعت نيجل الى أن يكون صريحا ، وجعلته يلح فى تتبع الأثر الذى خلفته أنباؤه عن هارويتش ٠٠ ذلك لأنها ـ بما أوتيت من دهاء عبقرى قل أن فارقها ـ كانت قد أخضعت طباعها لخدمة الخداع والمخاتلة ، فلما تبينت أن سيطرتها على نفسها قد فارقتها وانه ما من سبيل الى اخفاء سخطها وحنقها ، مضت تربط غضبها بسبب آخر غير السبب الحقيقى ٠٠ سبب خليق بأن يثير عطف نيجل وحنانه نحوها ٠ **اذ انها ـ فى الوقت الذى كانت تشعر**

فيه نحوه بالمقت والكراهية ـ كانت تلقنه كيف يحبها ٠٠ تلقنه ذلك عن عمد وتدبير ! ٠٠ أما عندما خلت الى نفسها ، فقد فارقها تدبيرها ، ولم تعد تبالى بما قد يحدثه الحزن والغضب من آثار فى وجهها وهيئتها ، فاستسلمت لهما ٠٠ وكان استسلامها كاملا !

ولم تهبط فى ساعة الغداء ، ولكنها قبيل موعد الشاى ظهرت ثانية في الحديقة ، وقد بدت عليها السكينة والهدوء ، وان كانت بادية الاعياء الى حد يبعث على الاشفاق ، وفى عينيها لمحة من اللطف ، والتفكير العميق ٠٠ وعندما اقترب نيجل ليستقبلها فى قلق وندم ولهفة ، سألته : « متى تذهب الى الدهبية ؟ » ، فأجاب : « ما أظنني سأذهب البتة ٠٠ فلست راغبا فى الذهاب ، بل انني سأبقى هنا وأتناول الشاى معك » ٠٠ ولكنها ردت قائلة : « لا ٠٠ ليس لك أن تفعل ذلك ، فاني أحب أن أتناول الشاى بمفردى اليوم » ٠٠ وكانت تتكلم فى رفق بالغ ، ولكن مسلكها وعينيها وكل كلمة قالتها ، كانت تأنيبا له وعتابا !! ٠٠ فأجاب : « اذن فسأذهب ٠٠ اذا كنت تفضلين ذلك ! » ٠٠ وغض بصره وهو يستطرد قائلا : « لقد حضر رجال بارودى بالفعل ليصحبونى الى هناك » ٠٠ فقالت : « لقد سمعتهم من حجرتى وهم ينشدون ٠ هيا اذهب ٠٠ ولا تجعله ينتظرك طويلا ! »

وكانت تبدو ـ وهى تنطق بكلماتها الأخيرة ـ كما لو كانت تبذل جهداً واضحا ٠٠ وكأنها كانت تحاول أن تنهج منهج الغانية اللعوب ، عندما تتلطف فى تدلل آمر الى الرجل الذى تطمئن الى انه يعبدها ٠٠ ولكنها فى الوقت نفسه جعلت شفتيها ترتجفان ، بحيث يشعر انها كانت تتصنع موقفها تصنعا !! ٠٠ على أنه لم يجرأ على القول بأنه أدرك ذلك ، وانما مضى يجتاز الحديقة الى ضفة النيل ، واستقل « الفلوكة » التى

كانت تنتظره ، وأعمل ملاحوها المجاديف متوغلين فى النهر !

وما كاد يذهب حتى نادت مسز ارماين ابراهيم وأمرته بأن يضع لها مقعدا ومنضدة فى ظل سياج الحديقة الملاصق للحاجز الحجرى الممتد الى داخل النيل ، والذى أقيم ليحول دون تآكل أرض الشاطىء عند الحديقة ٠٠ وقالت : « سأتناول الشاى هنا يا ابراهيم ، فاخبر « حسن » بأن يحضره بمجرد أن تبدأ الشمس فى الغروب » ٠ فأجاب الفتى - « الدائم الشباب والمرح » - قائلا : « سمعا وطاعة ٠ وهل يعود ابراهيم ويمكث معك ؟ » ٠٠ فهزت رأسها وهى تنظر فى رفق الى الفتى ، الذى كان قد بدأ يعبدها ، شأن جميع النوبيين الذين كانوا فى الفيلا ، وقالت : « ليس اليوم ياابراهيم ، فاننى أحب أن أخلو الى نفسى »٠٠فأحنى قوامه الطويل النحيل وأجاب فى رصانة : « لك كل ماتشائين يامولاتى » ٠ فصاحت به فى حدة مفاجئة : « لا تنادنى اليوم بلقب : مولاتى ! »

ولاح ابراهيم متحيرا ، مبهوتا ، وقد آلمته لهجتها٠٠وعندئذ لمست جبينها وهى تستطرد : « لا بأس يا ابراهيم ! ان رأسى يؤلمنى اليوم ويجعلنى أغضب دون داع ! » ٠٠ فدس احدى يديه فى ثوبه الذهبى وأخرج منه قنينة من الزجاج مليئة بنوع من العطر الأوربى الرخيص ، وقال : « لسوف يشفيك هذا يا مولا ٠٠ يا مس ٠٠ دلكى به رأسك ، فان له رائحة جميلة ٠٠ ان رائحته جميلة حقا ! » ٠٠ فتقبلت العطر فى ابتسامة شاكرة ، بينما انصرف الفتى مهموما ، ليأمر باعداد الشاى ، وقد ترك رأسه يميل نحو كتفه اليسرى ، وبدا أشبه بكلب أمين يجد نفسه فجأة - وعلى غير انتظار - غير مرغوب فيه من سيدته ! ٠٠ أما مسز ارماين فقد جلست ساكنة بلا حراك ، وقد قطبت جبينها !

وكان بوسعها أن تسمع غناء أتباع بارودى النوبيين ، وهم

ينحنون فوق مجـاديفهم القوية ، ولكنهم لم يكونوا يرددون أنشودة « الله » التى كانوا يحيونها بها عند وصولها ، والتى يحتمل أن يكونوا قد حيوها بها تنفيذا لرسالة ما أرسلها اليهم سيدهم من الاسكندرية ٠٠ كلا ، وانما كانوا يرددون – فى هذه المرة – أغنية خافتة غامضة ، تكاد تشبه همهمـة بعض الأرواح فى النيل ، وتبدو كما لو كانت تعبر تعبيرا غريبا عن حزن أصاب الشمس ! ٠٠ فكأنما كانت تكمن فى قلب ذلك البهاء الذهبى قرحة خفية ، كتلك القرحـة من التشكك التى تكمن فى لب كل فرح انسانى ! ٠٠ وما لبث النهار أن أخذ فى الاحتضار ، وتلاشت أصوات الملاحين ٠ وأحضر حسن الشاى لسيدته فى الحـديقة – تنفيذا لأمر ابراهيم – فلما فرغ من اعداد المائدة وقف بالقرب منها لحظة ينظر عبر الماء الى دهبيـة بارودى الكبيرة البيضاء ، التى كانت ترسو الى الشاطىء ، على بعد قليل من الحديقة ، عند منحدر النهر ٠٠ وكانت تنبعث من عينيه أضواء صفراء ! ٠٠ فقالت مسز ارماين : « ماذا تفعل يا حسن ؟ » ٠٠ والتفت النوبى الطويل نحـوها قائلا : « ان محمود بارودى غنى ! محمود بارودى غنى ! » ٠٠ وعاد يرمق الدهبية من جديد ، ثم تحول الى المائدة الصغيرة ، فحرك أحد الأطباق ، وسوى ثنية فى غطاء المـائدة ، ثم انصرف لشأنه متمهلا فى سيره ٠٠

وراحت مسز ارماين ترشف الشاى وما زال العبوس يعلو أساريرها ، وتتأمل النهر وقد بدأ يفقد لونه الأسمر رويدا رويدا ، فيتألق بادىء ذى بدء بلون الذهب الشاحب ، ثم بذلك الذهب الذى يومض ويلمع كوهج النار ٠٠ وكانت دوامات الماء – وراء حاجز الأمواج – ذات لون بنفسجى رقيق ، تبدو وكأنها تختلج بالحياة ! **وكان ثمة اشراق عجيب ، يجمع بين البهـاء الروحى والبهاء الحسى ، ويبدو كما لو كان مـؤلفا من عناصر**

الروح والمادة معا ٠٠ وكان هذا الاشراق يشع على الدنيا ويضفى عليها وشاحا وضاءا من الحسن ٠٠ وبينما كان لون الذهب يزداد عمقا ، أخذ ينتشر على صفحة النهر ، متجها نحو الاقصر ، زاحفا من البر الغربى للنيل حتى البر الشرقى ، ومن « دهبية » بارودى حتى قدمى مسز ارماين !

« محمود بارودى غنى ! محمود بارودى غنى ! لماذا قال حسن ذلك ؟ وما شأنها هى به ؟ ونظرت عبر النهر الى مركب بارودى العظيمة البيضاء ، التى كانت وقتئذ تتحول الى جوهرة سوداء على ذهب النهر الرجراج ، فخيل اليها أنه كان ساحرا بارعا أدرك حقيقة طبيعتها ، فحاول ان يواسيها ويطيب خاطرها ، بأن ينثر الذهب نحوها نثرا ! ٠٠ وكان ذلك وهما سخيفا بلا شك ، فما لبثت هى نفسها أن ابتسمت منه فى مرارة ! ٠٠ وكانت تكاد تمقت نيجل فى ذلك اليوم ٠ بل انها كانت تكرهه بالفعل - عندما غادرته فى الحديقة قبل الغداء - لما بدا منه من بعد عن روح رجل الدنيا ، ومن سذاجة الأطفال ومكرهم ٠٠ فما من ريب فى انه كان يعلم ، بل لابد انه كان يعلم ان زوى هارويتش كانت حاملا ٠٠ لابد انه علم بذلك عندما خرج مع أخيه للصيد فى الخريف ٠٠ ومع ذلك فانه لم يقل لها كلمة واحدة عنه ، وها هو ذا الآن قد أقصى عن الميراث ٠٠ ولعله ماكان ليرث أخاه البتة ، ولكن الفرص كانت فسيحة لأن يرثه ، ولأن يأتى اليوم الذى تتبوأ فيه المجد ، بوصفها : « ليدى هارويتش » ! ٠٠ **وكان هذا الأمل هو الذى مال بها الى ناحيته ، وهو الذى كان له أكبر الشأن فى الدور الذى لعبته فى لندن ، لتكسب نيجل زوجا لها ! ولو ان ما أصبح الآن حقيقة واقعة كان حقيقة واقعة منذ أسابيع قليلة ، فهل كان يخطر ببالها قط أن تدبر الخطط للزواج منه ؟ وهل كانت مثل هذه الصلة « تستحق منها العناء » ؟!**

الا ما أعظم فرحة الليدى هايمان وعشيرتها بأجمعها ! تلك العشيرة التى دللت واحتفت بمسز تشبستو يوما من الأيام ، وقلدتها لقب « بيللا دونا » ٠٠ (ست الحسن) ! ٠٠ أجل ما أشد فرحتهم اليوم ! انها تكاد تسمع الآن ـ وهى فى مجلسها هذا على ضفة النيل ـ ما يقولونه : «شكراً لله ان خاب فأل هذه المرأة وراح سعيها هباء » ! ٠٠ « ما أشد غيظها وسخطها الآن وقد رزق هارويتش بغلامين ! » ٠٠ « ما أشدها لطمة على وجهها بعد أن اقتنصت نيجل ارماين الأبله ! » ٠٠ لا ريب فى ان مئات من النساء يبتسمن فى هذه اللحظة لخيبة رجائها البشعة ٠٠ وربما ابتسم مئات الرجال كذلك ٠ فما كان فى وسع أى أحد أن يصدق انها تزوجت نيجل لشخصه ، ولأنها أحبته بصدق واخلاص وعاملته فى صراحة وأمانة ٠٠ كان من الطبيعى انها لم تشغف به حبا ، فالواقع انه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذى يمكن أن تهيم به امرأة فى مثل طبيعتها ومزاجها ! **صحيح انها مالت اليه قبل أن تتزوج منه ، بل وأحست نحوه بجاذبية جسمانية ، ولكن هذه الجاذبية الجسمانية ـ وهى مجرد نزوة عابرة لامرأة متقلبة الأهواء عظيمة الخبرة ! ـ سرعان ما فقدت طعمها وبهجتها ، ولسبب لو عرفه نيجل لكان طعنة نجلاء فى قلبه !**

وما كانت لتستطيع احتمال حبه للمثل العليا ، وغريزته فى البحث عن الخير المكنون فى الرجال والنساء ، ورغبته الخفية ـ فيما يتعلق بها بصفة خاصة ـ فى التقدم الخلقى والمعنوى ! ٠٠ ولقد كانت تدرك ان هذه الصفات قائمة فيه ، ومن ثم كان فى وسعها أن تبغضها ، ولكنها كانت عاجزة حقا عن فهمها رغم ذكائها ٠٠ فقد كان هذا الذكاء من نوع يفهم الرذيلة على نحو أوفى وأتم من فهمه للفضيلة ٠٠ **ومع انها كانت تستطيع أن تنتحل الفضيلة ـ كما أثبتت فى لندن بمسلكها الذى مكنها**

من اقتناص نيجل ـ الا انه لم يكن فى وسعها أن تتعلم كيف تفهم حسن هذه الفضيلة أو تنعم بدفئها ونورها ٠٠ فقد كانت ـ من الناحية الخلقية ـ عاجزة ! ٠٠ وكانت الهـــوة الواسعة التى تفصل دائما بينها وبين زو[illegible]، هى أنه لا يعترف مطلقا بوجود عجـــز خلقى ٠ ومن ثم [illegible]بد من أن يسىء فهمها الى الأبد ، لأن براعته فى قراءة الشخصية والأخلاق كانت أقل ارهافا من براعته فى الحب ! ٠٠ هذا فى الوقت الذى كانت تضم فى أعمق أغوار نفسها تلك الرغبة التى لابد من وجودها ـ نشيطة أو خاملة ـ فى كل المخلوقات الآدمية ٠٠ الرغبة فى أن تكون مفهومة لدى الغير [illegible] تكون معروفة على حقيقتها ٠ أجل ، كانت لديها هذه الرغبة [illegible]ن[illegible] كانت على استعداد لأن تمثل أى دور [illegible]من أدوار الغش والخداع [illegible]، وبرغم انها كانت نادرا ما تظهر على حقيقتها !

لقد كان نيجل على علم بأن «زوى هارويتش» كانت ترتقب مولودا ، ومع ذلك فانه لم يطلعهـــا قط على ذلك ! ٠٠ راحت هذه الحقيقة تتردد فى ذهنها مرة تلو الأخرى ، وهى جالسة تتأمل الغروب ٠٠ بل انها لم تكف عن التردد منذ الصباح ، ولم يقو غضبها العنيف على أن يخمد الصوت الملحاح الذى لم يكل عن ترديدها ٠٠ بل ان هذا الصـــوت عمد فى اللحظات الأولى لغضبها وشعورها بالمرارة الى أن يضـيـف : « وسوف يدفع لى نيجل ثمن هذا ! » ٠٠ ولكنه كف عن اضافة هـــذه العبارة الآن ، ولعل ذلك كان راجعا الى ان غضبها الضـارى خلف بها اعياء ٠٠ وفطنت الى انها كانت تدفع بهذا الاعيـاء ثمن غضبها المشبوب ، وان نيجل قد يضطر الى أن يكفر عن ذلك ! ٠٠ فلقد كان راحلا الى (الفيوم) بعد يومين أو ثلاثة ٠٠ وشد ما تمنت أن يكون رحيله الليلة ، وأن لا تضطر الى مصاحبته ، ولا تحتاج الى أن تمثل دور المرأة الطيبة أو المرأة

التى تولدت الطيبة فى نفسها ، بعد أن أنهكها الضنى وأرهقها الغضب !

وكان الشاى قد أمسى أسود اللون لطول بقائه ، فصبت لنفسها قدحا آخر شرعت ترتشفه دون أن تضيف اليه شيئا من اللبن أو السكر ، فاذا به لاذع ، قابض ، كريه المذاق فى فمها .. ولكنه أزال ما بها من كلال ، فكأنما أزاح الأستار عن شبح واضح المعالم يخطو الى الضوء عاريا .. انه نفسها على حقيقتها ، فى غير كلال أو حياء ! .. لسوف يدفع نيجل حساب ذلك كله يوما !

وكان اللون الذهبى قد ان[illegible] عن النهر فى تلك الأثناء ، فتحول لون الماء الى لو[illegible] المذابة ، ثم الى لون الفولاذ .. وانبعث من « الدهبية » – التى بدأت تبدو وكأنها تتباعد متراجعة أمام مسز ارماين – أضواء حمراء وزرقاء .. وكانت أصوات الفلاحين السمر لا تزال تنبعث حارة – غير كليلة – وهم عاكفون على الشواديف ، على امتداد النيل .. وكانت أذنا مسز ارماين قد ألفتا هذه الأصوات فى الأيام الأخيرة ، الى درجة جعلت من العسير عليها أن تصدق انها – منذ زمن قصير – لم تكن قد سمعتها قط ، ولا أحست بتأثيرها العجيب ، وقوتها الجارفة التى تمتزج بقوى أخرى من الشمس والهواء ، فتثير نفوس الرجال والنساء نحو الرغبة فى مباهج خشنة ، بل – فى بعض الأحيان – فى ملاذ قاسية وحشية ! .. **أما وقد أخذ ضوء النهار فى الذبول والتلاشى ، فان تلك الأصوات القوية البدوية الحزينة لم تعد تبدو منبعثة من حناجر المصريين الكادحين المكدودين ، وانما بدت منبعثة من حنجرة هذه الأرض التى كانت تجمع بين الخرائب والذهب ، حيث انبسطت الخضرة اليانعة الى جانب الرمال الصفراء ، وحيث كانت القنابر تصيح فى الصباح بينما يعوى ابن آوى بالليل !**

ظلت مسز ارماين تصغى طويلا ، وهى جامدة فى مقعدها بلا حراك ، ولكنها تململت فجأة ، ثم انبعثت قائمة وانفلتت مسرعة نحو المنزل ٠٠ كان نيجل عائدا أدراجه ، اذ انها سمعت أصوات ملاحى بارودى النوبيين ، مختلطة بأصوات رجال الشواديف ٠٠ وما أن بلغت المرأة المنزل ، حتى بادرت بالصعود الى مخدعها توا ، وأغلقت بابه خلفها ، ثم وقفت الى جوار نافذة مفتوحة تطل على شرفة فى مواجهة النيل٠٠وكانت أصوات رجال الشواديف قد صمتت تماما ، فقد حان وقت راحتهم مع هبوط الليل السريع ، ومن ثم أسرعوا الى ارتداء جلابيبهم التى امتزجت فيها الحمرة بالزرقة وانصرفوا يمشون الى قراهم ٠٠ بينما اقتربت الأصوات الأخرى رويدا ، وهى تردد أنشودتها الدينية فى همهمة عميقة أكثرمنها شدوا وغناء بينما قامت المجاديف بدور « ضابط الايقاع » !

وخيم الظلام ، وسكنت الأصوات ٠٠ ومالت مسز ارماين الى الأمام ، وهى تستند باحدى يديها على اطار النافذة ، وأسنانها الناصعة تتألق فوق شفتها السفلى ٠٠ فقد سمعت فى الحديقة صوتين يتحدثان وهما يسيران نحو المنزل ٠٠

وما لبثت مسز ارماين أن ارتدت عن النافذة ، وهتفت : « مارى ! مارى ! » ٠٠ فأقبلت الوصيفة تعدو ، وهى تقول : « هأنذى يا سيدتى ! ماذا تريد السيدة ؟ » ٠٠ فأجابت مسز ارماين : « أريد أن أبدل ثيابى » ٠٠ فتساءلت : « هل تود السيدة أن ترتدى ثوب السهرة ؟ » ٠٠ ولكن السيدة قالت : « لا ، فلن نتناول العشاء قبل ساعتين » ٠٠ فتبدت الحيرة على الوصيفة وقالت : « اذن ٠٠ يا سيدتى ؟ »

ـ لا تتكلمى كثيرا ٠٠ احضرى لى ثوبا أبيض٠٠ذلك الثوب من التيل الأبيض الذى اشتريته من محال (باكان) ، ولم أرتده قط ٠٠ واحضرى لى ٠٠٠

ومضت تصدر أوامرها بشأن الجوربين والحـــذاءين ، ثم ذهبت الى حجرة الزينة حيث وقفت أمام المرآة تتفحص وجهها فى عناية وامعان .. وما لبثت أن خلعت القبعـــة التى كانت تضعها على رأسها . ثم هتفت بعد لحظـــة : « أوصدى باب حجرة النوم والباب المؤدى الى حجـــرة السيد » .. فقالت الوصيفة : « حسنا ياسيدتى ! » .. وراحت توصد الأبواب ، وهى تغمغم : « رباه ! هل أصابها جنـــون ؟! ماذا دهاها ؟ لا يوجد أحد هنا ، ولن يأتى أحد ما .. ففيم كل هذه الجلبة ؟ » .. وعادت السيدة تقول : « اخرجى القبعة البيضاء ، وباقة القرنفل الأبيض الصناعية ! » .. وغمغمت الوصيفة : « آه ، يا الهى ! »

ـ هل سمعت ؟ القبعة البيضاء و ...

ـ لقد سمعت يا سيدتى ، لقد سمعت ! .. أوه ، لا .. لا!

فصاحت مسـز ارماين : « اذن فعجلى ! » .. فقـــالت الوصيفة : « سمعا يا سيدتى .. حسنا جدا ! » .. وانطلقت تعـــدو لتحضر القبعة ، بينما أشعلت مسز ارماين جميـــع الشموع ، وجلست أمام المرآة .. وتذكرت رغبة نيجل التى أبداها اليها فى صباح اليوم ذاته اذ سألها أن تكف عما «تفعله بوجهها » .. حسنا ! ستستجيب الى رغبته على هذا النحو : **ففي مهارة وعناية بالغتين ، مضت تذر «البودرة» على وجهها ، وتظلل عينيها ، وترســـم حاجبيها الرفيعين فى براعة ! ..** وأقبلت الوصيفة عند باب حجرة الزينة قائلة : « كل شيء معد يا سيدتى ! » .. واذا بها تنتفض مجفلة ، وتدور على عقبيها . فقد طرق باب حجرة النوم فجأة ، وانبعث صرير المقبض وهو يدور ..

وأسرعت مسز ارماين تقبض على ذراعها فى شدة ، وتهمس : « صه ! لا تنطقى ! » . فوقفت الفتاة فى مكانها جامدة بلا

حراك ، تحملق فيما أمامها وتعجب مما يدور حولها ، على حين ذهبت سيدتها فى هدوء الى حجرة النوم ، دون أن يند عنها أى صوت ، وجلست على الجانب الاقصى للفراش ، ثم اضطجعت الى الخلف حتى شارف رأسها الوسائد ، وهى تحرص كل الحرص على ألا يمسها ·· وانبعث صوت من خارج الباب :

« روبى ! روبى ! »

ـ ماذا جرى ؟ من هناك ؟ من هناك ؟

وكان الصوت الذى أجاب خافتا ، تنطق نبراته بالدهشة : « أنا ·· نيجل ! » · فاستوت مسز ارماين جالسة ، وقالت : « ماذا جرى يا نيجل ؟ اننى نائمة ! »

ـ آه ! اننى ·· اننى آسف اذا كنت قد أزعجتك · ولكن ·· ما أحسبك مريضة !

ـ كلا ، اننى أستريح قليلا ·· ماذا هناك يا نيجل ؟

ـ لقد أحضرت بارودى الى هنا ليراك ويرى الفيلا ، وليتعشى معنا الليلة !

فهتفت : « أوه ! حسنا » ·· وكأنما اشتم فتورا فى ردها ، فتساءل : « ما أحسبك تتضايقين يا روبى ؟ » ·· وكان صوته المتسلل من خارج الباب قد غدا شديد الخفوت ·· فهمست بدورها : « اهبط اليه ، واعن به ·· سوف آتى حالا ! » ·· وانبعث صرير المقبض من جديد وهو يتركه من يده ·· ولكن لحظة انقضت دون أن ينبعث خلالها لقدميه وقع ينم عن ابتعاده ·· وما لبث صوته أن عاد هامسا : « اسمعى يا روبى ·· اذا ·· » · ولكنها صاحت : « اذهب الى الطابق الأسفل ، وسأحضر للتو ! »

فمضت الخطوات نحو الدرج ·· واذ ذاك هتفت مسز ارماين بوصيفتها : « البسينى الثوب حالا ·· لا ، انتظرى ، ابدلى الجوارب أولا ·· » ، فركعت مارى سريعا على الأرض ، واذ أحنت رأسها ، أخذت تبتسم ·· فلقد بدأت تفهم !

الفصل الرابع عشر



◆ عندما دخلت مسز ارماين حجرة الجلوس الصغيرة وجدتها خالية ، ولكنها اشتمت رائحة السيجار ، وسمعت غمغمة الأصوات فى الخارج بالقرب من الشرفة .. وكان من الجلى ان الرجلين يمشيان ذهابا وجيئة فى الحديقة ليستمتعا بنسيم المساء الرقيق .. فلم تخرج اليهما للتو ، وانما وقفت وهى تنصت الى صوتيهما

آه ! انهما يتحدثان عن الفيوم .. فلا شك اذن أنهما يناقشان بعض شئون الزرع والغرس وفلاحة الأرض ! .. وكان يخيل اليها ان وجهها فى هذا المساء قد احتفظ فى بشرته بأثر من آثار انفجارها العاطفى فى الصباح ، كأنما تحول الجفاف والخشونة من طباعها الى بشرتها وانتشرا فوق جلدها فافقداه مرونته الطبيعية ! ومع ذلك فانها قبل ان تغادر حجرة النوم مباشرة ، صاحت بها مارى فى نوع من الاعجاب يخالطه التحفظ : « ان السيدة رائعة الليلة ! » .. وراحت تسائل نفسها : هل قالت الوصيفة الحق ! .. فما أن ازدادت الأصوات فى الخارج خفوتا وبعدا لحظة ، حتى مضت لتقف أمام احدى المرايا، وتلقى على نفسها نفس السؤال ! .. وكانت قد انتقت لملبسها ثوبا للخروج بدلا من ثوب استقبال عادى ، اذ كانت تعتقد انها تبدو فيه أصغر سنا ! كما كان قوامها الجميل لا يزال احدى مميزاتها العظيمة ! أجل ، كان قوامها ساحرا ، وكان هذا الثوب يبرزه أكثر فتنة وأشد سحرا ! .. وكان السكون الطويل الذى صاحب عيشتها الخاملة فى لندن ، عندما عرفت نيجل – وما تلا ذلك من راحتها النسبية فى جو مصر الجميل – قد أتى بالعجب العجاب فى

شكلها ومظهرها .. وما من ريب فى انها الليلة - برغم ما أحدثه استسلامها دون وعى للغضب من آثار - تبدو أصغر بأعوام كثيرة مما كانت تبدو فى حجرة الاستشارة بمنزل ايزاكسون : كانت الغضون حول عينيها لا تكاد تظهر ، أو هى لم تكن تظهر على الاطلاق .. كما كانت ناصعة البياض الى حد عجيب .. والشرقيون يستطيبون البياض الناصع ! وهم دائما يتصورون الغربيين أصغر سنا بأعوام عما هم عليه حقيقة ، اذا كان هؤلاء قد نجحوا فى الاحتفاظ بشيء من سحر الشباب ! واذن ، فلم تكن مارى قد جانبت الصواب !

واستدارت مسز ارماين وخطت مغادرة الغرفة الى الشرفة . واذ تقدم الرجلان للقائها ، قالت فى نوع من التراخى الساحر ، وعدم الاكتراث : « آه ! محمود بارودى ! اذن فقد أتيت الى الجنوب لتعنى بأمر .. ترى ما هو ؟ ذلك الشيء الذى لك .. السكر الذى تمتلكه ؟ » . فأجاب فى رصانة وهو ينحنى فوق يدها : « السكر الذى أمتلكه .. أصبت يا سيدتى ، وأرجو أن تصفحى عن تطفلى ، فقد شاءت رقة زوجك أن يصر على احضارى الآن ، وأنا فى هذا الثوب من قماش الفانلا » .. وكان اعتذاره هادئا رزينا الى أبعد الحدود ، ولكن نيجل كان يبدو منفعلا بعض الشيء ، بل قلقا ، وكان يستجدى بعينيه الصفح عما سببه من مشكلات فى الصباح ! .. ولكنها لم تكن تبدو راغبة فى أن تمنحه هذا الصفح بعد .. وهكذا كانت رقيقة معه ، تتحاشى نظراته هذه دون أن تبدو انها قد تحاشتها عن عمد !

وأخذوا يتجولون برهة ، ويتبادلون أحاديث خفيفة فى غير موضوع معين ، حتى قالت مسز ارماين موجهة الخطاب لزوجها مباشرة للمرة الأولى : «نيجل ! .. ألا ترى من المستحسن أن تذهب وتخبر حسن بأننا سوف نكون ثلاثة على مائدة العشاء ، ثم تتحدث قليلا الى الطاهى ! ان لغتك العربية قد تكون أشد تأثيرا على الخدم من انجليزيتى ! وسوف نجلس أنا ومحمود بارودى فى الشرفة حتى تعود ثانية » .. فأجاب نيجل : « أصبت ! » .. ومضى لتوه ، وتركهما معا .. فما أن انصرف حتى جلست مسز ارماين فى مقعد من الخيزران ، ومكثت برهة لا تقول شيئا .. ولكن أساريرها تبدلت فى هذه اللحظة من الصمت ، فتلاشت البساطة والسمة الطبيعية المتراخية تدريجيا ، لتكشفا عن التوثب والاغراء اللذين تحذقهما الفانية المدربة ! .. بل ان جسدها لم يخل من التغيير ، فقد غدا أشد حساسية ، وأكثر يقظة وشعورا ، تحت عينى بارودى ! واستيقظت فجأة كل أحاسيس المرأة فيها .. تلك الأحاسيس التى كانت حتى الآن - عدا القليل من دلائل الحياة العابرة الغامضة - ترقد ساكنة جامدة فيها،وراحت تشير فى جراة لتجذب أنظار هذا الرجل الذى كان يجلس غير

بعيد عنها ، يحدق النظر اليها فى صراحة ورصانة شرقيتين •• ومع انهمـا تبادلا الحديث قبل الليلة ، عندما كانا على ظهر السفينة ، الا ان هذه كانت أول مرة ينفردان فيها ••

وكانت عينا مسز ارماين ـ الليلة ـ تحدثان بارودى فى وضوح بأنها قد أعجبت به ، بل انهما كانتا تحدثانه بأكثر من هذا •• بأن صاحبتهما كانت تريده على أن يعلم ذلك ! ولقد تقبل اعجابها ، فما لبثت أن تلقت منـه ردا جريئا •• اذ سرعان ما فطن الى ان التغيير الذى أصابها كان شبيها بالتغيير الذى اصابه ، فان علائم العزم القوى الصريح التى كانت ترتسم فى وجهه ، والتى كثيرا ما استمالت نيجل اليه ، كانت تختلط الآن بشىء أكثر حـدة ـ كأنه من الدهاء والمكر ـ وبنوع من الاستهتار الذى كان فى وسعها أن تفهمه وتقدره أحسن تقدير ! •• وفيما كانت تنظر اليه فى ظلمة الليل المتجمعة ، تبينت ان فى أعماقه أكثر من رجل •• فهناك بالتأكيد قاطع طريق لا ينطوى على شىء من الخوف ، ولا على كثير من الرحمة •• فمضت تقارن قاطع الطريق هذا بنيجل •• وما لبث الرجل أن سألها : « كيف وجدت مصر يا سيدتى ؟ هل أحببت بلدى ؟ »

وانحنى قليلا الى الأمام وهو يحطم أخيرا ذلك الصمت الذى ران عليهما ، فجذبت حركته هذه ومظهره الحالى انتباهها الى كتفيه القويتين العريضتين ووضع رأسه الذى يستوقف الأنظار ، ذلك الوضع الذى لو كان أقل جرأة مما هو لكان خليقا بأن يمس النفس بشهامته !

ـ هل رأيت كل الأشياء المشرقة فى طيبة والكرنك ؟

ـ نعم ! لقد كنا سياحا بحق ، فذهبنا الى بهو الأعمدة والمقابر ، والمعابد •• وتعشينا فى ضوء القمر على قمة البوابة فى الكرنك ، وشهدنا غـروب الشمس من الدير البحرى

فسألها : « والشروق ؟ » •• فأجابت : « لم نره من أى مكان •• فانى أفضل النوم حتى الضحى » • فعاد يسألها : « وهل تهتمين بكل هذه الأشياء : المقـابر ، والمعابد ، والمومياءات ، يا سـيدتى ؟ هل استمتعت بحياتك فى مصر ؟ »

وتمهلت قبل أن تجيب على هذا السؤال •• انها كثيرا ما استمتعت برحلاتها مع نيجل فى ذلك المرح الوضاء المتدفق الذى يبعثه جو الاقصر الساحر •• رحلات الغداء فى الهواء الطلق ، أو بين جدران الخرائب العظيمة ، ونزهات على الأقدام فى الممرات السمراء المستقيمة بين الحقول الخضراء المتماوجة ، التى تصيح القنابر فوقها ، ويطير منها الحمام البرى ليؤلف السحابة الوحيدة فى موكب النصر المكون من الذهب ومن الزرقة ! ثم ذلك التسلق لمسافات طويلة

على المرتفعات – فى ممرات مرقطة كلون النمر – الى القمم العالية ، حيث اتخذت الشمس مملكتها منذ بدء الخليقة ٠٠ ثم الهبوط منها عندما يبدأ النهـار فى الاضمحلال ، وعندما يمضى الفلاحون نحو بيوتهم تحت ظلال النخيل الشبيهة بالمخمل الأسود ، والغبار الذى تثيره أقدامهم السمر الحافية ، يتصاعد فى دوامات حلزونية صوب ضوء الغسق الداكن ٠٠ وقد استمتعت مسز ارماين كذلك بالعشاء فى (الكرنك) تحت أشعة الهلال الوليد الباهتة ٠٠ فقد كانت لا تزال تملك القوة على الاستمتاع ، كما كان لديها كثيرا من ذلك النشاط الجسمانى الذى تمتاز به المرأة الانجليزية العادية ، التى تألف الهواء الطلق ، وتحس براحتها فوق صهوات الجياد ! وكانت مصر شيئا جديدا كل الجـدة بالنسبة اليها ٠٠ شيئا جديدا يجلب الصحة والشعور بالشباب ! ومع ذلك فقد تمهلت قبل أن تجيب !

لقد كانت تحس فى أعماق نفسها ، طوال تلك الأيام التى كانت تتذكرها ، بأنها كشخص يمشى فى موكب نصره ٠٠ كانت فى نشوة من الطرب «للصفقة» التى ربحتها فى الوقت الذى كانت فيه حياتها تنحدر نحو خريف العمر ٠٠ نشـوة من الطرب للطمة التى وجهتها الى مجتمع كان يحتقرها ويطردها من نطاقه ٠٠ وكانت هذه النشوة قد لونت أيامها بألوان بهيجة ، ولكنها أدركت الآن – بغتة ، وعلى غير توقع – أنها كانت تعيش فى نعيم المجـانين ، الذى قادها نيجل اليه ! ٠٠ وقد ألقى هذا الادراك ظلا كثيفا على الأيام التى مرت بها فى مصر ، ومحا اشراق تلك الأيام ، ومرحها ، وتألقها !

وأجابت أخيرا : « كل الاستمتاع ! وهل تهتم أنت بمثل هذه الأشياء ؟ » ٠٠ فهز كتفيه العريضتين ، قائلا : « سيدتى ٠٠ ما أنا بسائح ! وماذا تريننى فاعلا فى هذه المعابد بين الخفافيش ، وفى هذه المقـابر التى يكاد المرء يشم منها رائحة الموتى ؟٠٠ انك لا ينبغى ان تبحثى بيننا نحن المصريين عمن يهتم بهذه الأشـياء ، بل اذهبى الى هاته العذارى الانجليزيات العوانس – هل الأمر كذلك حقا ؟ – هاته العذارى اللواتى يرتدين قبعات عالية من الفلين على شعورهن الشيباء المرجلة بهذا الشكل ! » ٠٠ ورفع يديه السمراوين متظاهرا بانه يرتب شعره خلف رأسه ، ثم استطرد : « واللواتى يربتن على راس الترجمان الذى يجلس عند أقدامهن ويخبرهن بآلاف الأكاذيب ! أو اذهبى الى هؤلاء الأثريين ذوى الأجسام النحيلة ، والأنوف الحمراء ، والرؤوس المجردة من الشعر تماما ، الذين يقومون بحفرياتهم بحثا عن المومياءات، بينما زوجاتهم ٠٠ آه ، حسنا :٠٠ ما كان ينبغى أن أقول ذلك ، ولكننا معشر المصريين اوتينا أشياء أخرى خيرا من الذهاب الى أبى الهول والتحديق فى وجهه ! لقد كنا نراه دائما ، ونحن نعلم انه هنـاك فى موضعه ، وانه لن يركن الى الفرار !

ومن ثم فاننا نفضل أن نستمتع بحياتنا ما استطعنا ، وألا نشغل أنفسنا بهذه الاشياء .. فهل تجدين فى مسلكنا ما يستحق اللوم ؟ »

– كلا .. اننى لا ألوم أحدا البتة على الاستمتاع بحياته !

وكان فى هيئته ولهجته ، بل وفى مسلكه ، شيء ما يكاد يشبه الغطرسة المغلفة بغلالة من قلة الاكترات .. ولعلها كانت تستنكر ذلك وتغضب منه ، اذا بدر من شخص أوروبى .. أما منه هو ، فانها لم تستنكره ولم تغضب منه . وليس ذلك فحسب ، بل انه اجتذبها واستمالها ، فقد كان يبدو ان هذه الغطرسة تنبعث ، بحق ، من قوته العظيمة ، ونظراته الجريئة الصريحة التى تتواثب فى عينيه ، وفى شبابه ، وفى الدم الشرقى الذى يجرى فى عروقه .. ان مثل هذا الرجل لا بد وان يشعر بعتوه وجبروته ، وان عنى أشد العناية باخفاء ذلك !.. ولماذا لا يظهر لها شيئا من حقيقته الكامنة فى أعماقه ؟ وقبل أن تفكر فى الجواب ، استطرد الرجل يسألها : « ولا على أية طريقة يسلكها للاستمتاع بحياته يا سيدتى ؟ »

وازداد انحناء الى الأمام ، وهو يضع يده الكبيرة على خده ، ثم يهبط بها الى عنقه الجميل ، واضعا أصابعه داخل ياقته الرخوة المزدوجة ، بينما كان يحدق فى عينيها .. فقالت : « اننى لم أقل ذلك ! » . فسألها : « وهل تبالين كثيرا بما يمكن أن تكون عليه الطريقة اذا ما ادت الى الاستمتاع ؟ » . ولكنها بدلا من أن تجيب سألته : « وهل تبالى أنت ؟ » ، فأجاب : « أنا ؟! لا ، بكل تأكيد ! ولكنى .. اننى لست مثل مستر ارمين ! » .. وأخطأ قليلا فى نطق الاسم .. فقالت : « مستر أرماين ؟.. ما شأنه ؟ » .. فقال : « ألا يعتقد أن هناك بعض أشياء يجوز للمرء أن يفعلها ، وأن الكثير من الأشياء لا ينبغى له أن يفعلها ؟ ان كل الانجليز كذلك ! آه .. يا الهى ! لو ان أحدا فعل شيئا يرونه خطأ ، فيا ويله ! »

ورفع يده عن عنقه ، ثم هوى بها على ركبته ، وهو يستطرد مبتسما ، وما زالت عيناه تنقبان فى عينيها : « لعمرى ، ان ذنبه اذ ذاك ليبدو أسوأ من أكل لحم الخنزير فى نهار رمضان ، فى نظر الرجل المصرى ! » .. فسألته : « هل تبغض الانجليز ؟ » .. وكان جوابه : « ما الذى ينبغى أن أقوله ؟ » ، فأجابت : « قل الحقيقة ! » .. واذ ذاك قال : « أما السيدات الانجليزيات ، فأعتقد أنهن لطيفات ! » . فقالت : « والرجال الانجليز ؟ » . وأجاب : « آه ! انهم جميعا .. رفاق طيبون ! » .. ولفظ الكلمتين الأخيرتين بلهجة من الازدراء الساخر لا يمكن وصفها ، ثم قال : « آه ! انهم جميعا .. رفاق طيبون ! ألا تظنين ذلك ؟ »

– ولكن ما معنى هذا ؟

– فتيان ظرفاء يا سيدتى !

ثم جلس معتدلا ، ودفع صدره الى الامام وراح يطرقه قائلا : « بولبيف .. بودنج بالبرقوق .. رفاق لطاف ، وحكام ! »

– لا ينبغى أن تضحك من مواطنى !

– أضحك ؟ معاذ الله ! ولكن هل لى أن أبتسم فقط ، بركن واحد من فمى؟!

وكشف عن صفين من الاسنان الصغيرة المستقيمة الناصعة البياض ، التى كانت تبدو من القوة بحيث يمكن ان تعض قضيبا من الحديد ! ثم تابع القول : « ان الرجل الانجليزى يحكمنا فى مصر .. وهو لا يفتأ يقول اننا الحاكمون ، بينما يظل هو الحاكم الحقيقى ! وهو طالما يحكمنا فانه يحتقرنا يا سيدتى ، ويستخف بنا .. انه يظننا أطفالا بلهاء ، ولكننا أحيانا نبتسم له ، ولو أنه بطبيعة الحال – لا يبتسم لنا البتة ، خشية ان تكون الابتسامة الواحدة كافية لان تجعلنا نظن فى أنفسنا أننا لسنا دونه بكثير ! انه خطأ جسيم منا ، ولكن الله يسمح لنا ، بطريقة ما ، بأن نبتسم ، وعندئذ ... » ، وعاد ينحنى الى الأمام ، وقد انبعث صريف مقعده فى الظلام ، وهو يستتلى قائلا : « عندئذ نجد بعض النساء الانجليزيات اللواتى يحببن أن يريننا نبتسم ! بل ان البعض منهن يبتسمن معنا خلف ظهر الرجل الانجليزى ! »

كان يتكلم فى هدوء ، وفى نوع من السخرية الغامضة ، ولكن دون اية بادرة من المرارة .. غير انه خفض صوته قليلا وهو ينطق بكلماته الأخيرة : «فهل ترين ذلك خطأ جسيما منهن يا سيدتى ؟ ماذا تقولين؟ هل تحتقرينهن؟»

ولم تجب بكلمة ، ولكن شفتيها المصبوغتين المتحركتين كانتا تختلجان ، وكأنها كانت تحاول أن تكبح الابتسام ، ولكنها لم تنجح فى ذلك كل النجاح، بينما عاد الرجل يقول : « هل تحتقرينهن اذا كن يبتسمن .. اذا كن يبتسمن .. أليس ذلك مشينا يا سيدتى ؟ » . وكن يبتسم فى عينيها ، فقالت : « انه لعار عظيم ! وأنا احتقر النساء المخادعات ! » . فقال : « ومع ذلك فمن ذا الذى لا يخادع ؟ كل انسان ، عدا .. الرفاق الطيبين ! » .. ثم دفع برأسه الى الوراء وهو يضحك ، بينما كانت هى تنظر الى عنقه المكتنز .. ثم قالت : « انك ما تحدثت قط على هذا النحو ونحن على الباخرة ؟ » . وكان جوابه : « سيدتى .. اننى لم أكن وحيدا معك قط .. فكيف كان يمكن ان أتحدث على هذا النحو ؟ كنت اذ ذاك أتعرض لأن يساء فهمى ! »

ولقد كان فى مسلكه هذا ، لا فى عينيه فحسب ، وفى اتخاذه هذا النوع من الالفة نحوها – وهى ألفة استبعد منها نيجل وأمثال نيجل – قحة بالغة واضحة، تلطم مسز ارماين وتتحداها ، وكأنها قفاز القى فى وجهها !.. أتراها كانت تسخط وتحنق من ذلك لو انه حدث بالأمس فقط ؟.. ما كان بوسعها

ان تدرى ، ولكنها الليلة كانت على استعداد للترحيب بهذه القحة ، اذ كانت الليلة تمقت نيجل وتبغضه •• ومع ذلك فقد كان لبارودى ، بغض النظر عن غضبها الشخصى من زوجها ، تأثير قوى واضح عليها •• وقد أحست ــ وهى التى تدرك دائما بعينيها ــ بما كان فيه من حب السطو وقطع الطريق ! أفلم تكن هى نفسها قطعة طريق ؟ كم من رجال حق بهم الدمار ، كانوا يملكون الاجابة عن هذا السؤال ؟! ولقد كان فى هذا الرجل نبع لا ينفد من القوة والحمية والنشاط •• كان يشع حوله جوا خارقا للمألوف من القوة البدنية ، المصحوبة بقوة عقلية كأنها ذرات الغبار المتطايرة فى شعاع من النور !

ولقد كانت مسز أرماين امرأة قوية العزيمة ــ كما حدس ماير أيزاكسون لأول وهلة ــ فاذا بها تشعر بأن أمامها كائنا بشريا أصلب منها عزما ،وأشد اصرارا ، وأكثر تمسكا •• ولم يكن يقل عنها مكرا وبرودا !•• فكيف يجوز ألا يفهم كل منهما الكثير عن خلق الآخر ، بالرغم من انه كان رجلا شرقيا وهى امرأة غربية ؟! ثم انه شرقى ، والشرقيون قراء أفكار ، ان لم يكونوا قراء نفوس وأرواح !•• وهنا شعرت المرأة براحة بالغة ، وكأنما وضع فى المساء بلسم على جراح الصباح !

وفى تلك اللحظة ، سمعا نيجل يهتف : « روبى ! » •• فارتد بارودى الى الوراء فى مقعده ــ فى هدوء ــ وقد بدا ساكنا ، قويا ، عمليا !•• وفى هذه المرة ، لاحظت مسز ارماين أن مقعد الخيزران لم يصدر صريفا ما ، من جراء حركته هذه •• وقالت السيدة : « هل كل شىء على ما يرام بالنسبة للعشاء يا نيجل ؟ » ، فأجاب زوجها : « أرجو ذلك •• ولكن يجب ألا يظن بارودى ان لدينا طاهيا كطاهيه ! » • فنهضت مسز ارماين قائلة : « سأترككما برهة وجيزة ، وسيكون العشاء فى الثامنة والربع ! » •• فقال بارودى وهو يقف لها : « شكرا لك يا سيدتى •• وأرجو المعذرة للثوب المصنوع من الفانلا الذى أرتديه ! » •• فكان جوابها : « اننى أحب أن أرى الرجال فى ثياب من الفانلا •• أليس كذلك يا نيجل ؟ » •• وكانت تتكلم فى استرخاء يكاد يكون شرودا ، ثم مضت فى تمهل حتى دخلت المنزل •• وهكذا استطاعت فى دهاء ومكر ان تنشر حولها جوا رقيقا من التحفظ والنفور !

* * *

◆ وكانت الصحف التى أتت فى بريد الصباح ما تزال على المنضدة فى حجرة الجلوس ، لم تفض غلافاتها بعد ، فتناولت واحدة منها أثناء مرورها ، وحملتها معها الى الطابق العلوى ، حتى اذا ما بلغت حجرتها فتحتها وألقت نظرة سريعة على أخبار المجتمع •• آه ! ها هى ذى فقرة عن ليدى هارويتش

جاء فيها : « لقد كان لمولد غلامين توأمين للكونتس هارويتش رنة فرح وابتهاج فى الأوساط الاجتماعية ، لما يتمتع به كل من اللورد والليدى هارويتش من حب وتقدير عام . ويقال ان تعميد الطفلين سيتم فى الهيكل الملكى بكنيسة قصر سان جميس ، وان صاحب الجلالة الملك سيكون اشبينا لهما .. وقد كان الوريث التالى للقب والممتلكات الكبيرة التى تلحق به - حتى هذا الحادث السعيد - هو المحترم نيجل ارماين الذى تزوج أخيرا من مسز تشبستو المعروفة ، وهو أصغر من اللورد هارويتش بعشرة أعوام »

والآن ، وبعد ان رأت الحقيقة الواقعة منشورة فى الصحف ، ازدادت مسز ارماين فجاة - وبطريقة ما - ادراكا وشعورا بانتصار ليدى هارويتش وعصبة هارويتش - وهى تمثل المجتمع كله ! - من ناحية ، وبما يبدو انه هزيمتها الساحقة من ناحية أخرى .. الا ما أسعد الابتسامة التى ينبغى ان تكون الآن مرتسمة على شفاه المجتمع الراقى .. على شفاه نساء عديدات لسن أفضل مما كانت قلامة ظفر ؟!.. والذى أقامها هذا المقام المزرى هو نيجل ، وهو الذى جر عليها ذلك كله !.. وعندئذ زمت شفتيها فى تشاؤم ، وهى تذكر عينى ليدى هارويتش الأمريكيتين الباردتين ، اللتين طالما نظرتا اليها باحتقار المرأة الطاهرة العارفة بما هنالك .. تلك النظرة التى تحرك الشيطان فى النساء غير البريئات ، وفى اللواتى عرفن بأنهن لسن بريئات !

وأزاحت الصحيفة جانبا ، ومضت الى النافذة فراحت تتطلع الى الخارج .. وانبعث من الحديقة الى خياشيمها أريج زهرة مستترة كانت تمنح الظلام خير هباتها .. ومن بعيد - الى يمينها - كان وشى زخرفى من النار الملونة يرتسم على صفحة العتمة التى لم تكن فى حلكة السواد الذى كان يملأ العالم فى ناظريها .. كان هذا الوهج ينبعث من « دهبية » بارودى !.. وعادت أفكارها توسوس لها : ان النساء فى لندن يبتسمن ويطربن لسوء حظها ونكد طالعها ! وفيما كانت تحدق فى صفوف المصابيح ، خيل اليها انها صفوف من الأعين الشامتة ! ثم خيل اليها أنها صفوف من الأعين تراقبها وتمعن النظر اليها وتستشف حقيقة نفسها !.. وعندئذ نادت مارى ، وشرعت تبدل ثوبها من جديد .. وفى تلك الأثناء ، صعد نيجل مرة أخرى ، مصطحبا بارودى الى احدى حجرات النوم الخاصة بالضيوف ، ثم جاء يعالج الباب الموصل بين حجرتيهما ، فصاحت به فى استخفاف : « انك لن تستطيع الدخول ! » .. فقال شأن من يكذب ظنه : « ما أراك تبدلين ثوبك ؟ » .. فقالت : « ليس فى وسعى ان أتناول العشاء فى ثوب من التيل ! » .. فقال : « ولكن كلا منا .. » . فقالت مقاطعة : « انكما رجلان ، أما أنا فسيدة ، ولا أستطيع أن أتناول العشاء فى ثوب من التيل الأبيض ، اذ ان ذلك يجعلنى أحس كأننى

ملاءة سرير او كيس وسادة : امض لشأنك يا نيجل »

وسمعته يغسل يديه ، وما لبثت ان سمعته ينصرف مبتعدا ، فأدركت تماما ان لهجة الاستخفاف فى صوتها وقعت كالسياط عليه ، وانه كان يعانى الأمرين !٠٠ وما لبث ان دوى رنين جرس العشاء الصغير ، فنزلت الى الطابق الأسفل فى ثوب سهرة من اللون الأصفر الشاحب ، عالى الخصر ، وقد وضعت على صدرها باقة من الزهور القرمزية ٠ ولم تكن تتحلى بشىء من المجوهرات ، او تزين شعرها بشىء ٠٠ وفيما كانت تدخل الى الحجرة ، انتاب نيجل - للحظة وجيزة - شعور غامض بأن امرأة غريبة عنه تلج الحجرة ٠ فلماذا كان ذلك ؟ لقد راح عقله يردد السؤال ، بينما كان يحملق فيها بامعان ليستشف سبب هذا الشعور ٠٠ كانت تبدو ناصعة البياض الى حد غريب ، بل الى حد غير طبيعى ٠٠ أتراها قد عاودت - رغم حديثهما فى الصباح - وضع تلك المساحيق على وجهها ؟٠٠ وهل كان بياض لونهـا أنصع من المعتاد ، او ان شفتاها كانتا أكثر حمرة ؟٠٠ او انها فى الواقع لم تضع على وجهها شيئا على الاطلاق ٠٠ اذ انه لم يكن يدرى ما صنعته بنفسها ؟٠٠ ولكنه كان مشغول البال ، قلقا ٠٠ كان يحس بحنين الى ان ينفرد بروبى ، وان يجعلها تصفح عنه لما نالها منه ، من اهانة بالغة فى هذا الصباح ! لقد أصبح يكره هذا الحاجز الذى قام بينهما ، ويشعر بأنه هو الذى خلقه بعدم ثقته فيها وجحوده اخلاصها ٠٠ والنساء دواما اشد حساسية من الرجال ٠٠ ومن منهن يمكن ان تكون اشد حساسية من « مريم المجدلية » ، التائبة التى احاطت بهـا حلقة من الجحود والسخرية ، والدهشة والعجب ؟٠٠ لقد اصبح يشعر بانه قد تنكر فى الصباح لمبادئه الأساسية ، وكان زائفا مع نفسه ، وانه بسقطته هذه من سماء المثل الأعلى للسلوك ، قد أصاب بلطمة ثقيلة تلك الفضيلة المرتجفة التى كانت تستجمع شجاعتها لتطل برأسها وتجازف بالخروج الى النور !

وفى خلال العشاء كان كل شىء ٠٠ كل نظرة ، او نبرة ، او ايماءة ، او حركة معبرة من «روبى» ، تكاد تؤيده فى لومه لنفســه وزجره اياها ٠٠ فمن المحقق انها قد تغيرت ، وان تلك المرأة الكليلة الساهمـة المستغرقة فى التفكير ، والتى مكثت وحدها فى الحديقة عندما ذهب الى « الدهبية » ، قد اخلت مكانهـا لامرأة أصلب عزما ، وأشد تألقـا ، واعظم حيوية ٠٠ امرأة تستطيع ان تقف موقف النزال دفاعا عن نفسها ، قديرة على ان تكون جريئة الى حد يكاد يشبه التحدى ٠٠ امرأة خليقة بان تؤلمه وتوجعه ، ردا على ذلك الألم الموجع الذى أوقعه بها ! وكان الطعام بالغ الجودة ، فان طاهيهما النوبى كان قد تلقى هذا الفن فى أحد الفنـادق الكبرى ، بحيث لم يكن على مسز ارماين ان تعتذر عن شىء ٠٠ وقد امتدح بارودى الطعام فى أدب جم ، ومع

ذلك أحست ان وراء مديحه هذا تحفظا غير محدود . واذ ذاك تذكرت ذلك الزمن الذى كان فيه طاهيها أشهر وأعظم طهاة لندن على الاطلاق.. كان أعجوبة من عجائب فن الطهى ، رشاه عشيق لها من أصحاب الملايين ليترك خدمة أسرة من أرفع الأسرات النبيلة مقاما ، ويضع مواهبه فى خدمتها !.. وقد ذكرت هذه الحقيقة لبارودى ، وكان ذلك أمرا لا يفعله الا السوقة ، فى حين انها لم تكن سوقية فى جوهرها .. ولكن دفعتها الى ذلك رغبتان : فقد شعرت بأن فى ضيفها ذلك الاعجاب الغريب - الذى يكاد فى اغراقه ان يكون خياليا - نحو الثراء والرفاهية ، فأحبت أن تستجلب هذا الاعجاب الى شخصها .. وأرادت فى الوقت نفسه ان تزيد من عقابها لنيجل !

قالت : « انك تبدو أكولا ذواقة للطعام يا محمود بارودى .. وأحسبك قد سمعت عن أرمان كاريير ؟ » .. فتساءل : « أحسن طاه فى أوروبا يا سيدتى ؟ كيف لا أكون قد سمعت عنه من أصدقائى فى باريس ؟ » .. فقالت : « لقد لبث فى خدمتى خمسة أعوام » .. وساد الصمت لحظة ، وتورد وجه نيجل فجأة حتى غدا أرجوانيا ، بينما كان بارودى ينقل عينيه الواسعتين فى تثاقل من مسز ارماين اليه ، وما لبث ان قال أخيرا فى هدوء : « اننى اهنئكما معا ، فلا ريب انه كان لديكما كنز نفيس .. ولكن لماذا تخليتما عنه ؟ »

وكان يوجه السؤال لنيجل .. وعندئذ قال نيجل فى خشونة مباغتة .. خشونة انجليزية صميمة تكاد تشبه التعالى والترفع : « انه لم يكن فى خدمتى .. لقد كان ذلك قبل ان نتزوج بوقت طويل »

- آه ! لقد فهمت ! ولكن يا للخسارة ! اذن فلم يتح لك الحظ لتناول أطباقه العجيبة ؟!

- كلا .. اننى لا أبالى بمثل هذه الأشياء !

فلم يزد بارودى على ان قال : « حقا ؟ »

ثم راحوا يتحدثون فى مواضيع شتى ، ولكن نيجل كان قد فقد مرحه ، ولم يعد قادرا على استعادته .. وأبى بارودى ، كمسلم صالح ، ان يتناول شيئا من النبيذ ، حتى اذا ما قدمت الفاكهة نهضت مسز ارماين قائلة : « سأترككما برهة وجيزة ، وستجداننى فى الشرفة . ورغم أن بارودى لا يشرب شيئا ، فاننى واثقة من انه يحب أحاديث الرجال خيرا من ثرثرة النساء ! » .. وأنكر بارودى ذلك فى أدب ، وان بدا فى نبراته شىء من عدم الاكتراث ، ثم أضاف : « ولكن ماذا تقولان فى قبول ضيافتى لتناول قدح من القهوة ، وكأس من الشراب بفندق ونتر بالاس ؟ فالليلة حفلة الافتتاح لفرقة موسيقية مجرية ، أحضرتها أنا فى الشتاء الماضى الى مصر ، اذ علمت - وقد

لا أكون خبيرا فى الموسيقى الغربية ـ انها تعزف ببراعة منقطعة النظير !٠٠ ماذا تقولان ؟ ايسرك ذلك يا سيدتى ؟ » ٠٠ فأجابت : « أجل » ٠ ثم التفتت الى نيجل قائلة : « هيا بنا نذهب ! ألا نذهب ؟ » ٠ فأجاب : « طبعا ، اذا شئت ٠٠ ولكن هل يمكنك المشى فى هذا الثوب ؟ » ٠٠ فأومأت براسها ايجابا ، وهى تقول : « ان الأرض جافة تماما فى الخارج ٠٠ سوف أعود اليكما بعد دقيقة واحدة »

ولكنها غابت عشرا ٠٠ فلما عادت كانت تلتف فى معطف جميل من الفراء الابيض الفاخر ، وتضع على راسها قبعة صفراء صغيرة ، ترتفع فى جانب منها باقة من الريش ٠ وقالت : «اننى متاهبة للخروج» ٠ فقال نيجل : « يا له من معطف جميل ! » ٠٠ فانه لم يكن قد رآه من قبل ! وراح يتحسسه فى رفق بأصابعه السمراء ، وما لبث ان نظر اليها ، ثم جذب اصابعه وخطا الى الوراء بحركة تكاد تكون فجائية !

وعندما وصلوا الى الفندق الكبير ،كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعاتها فى البهو ، الذى تناثر فى أرجائه الفسيحة عدد من الناس فى جماعات صغيرة متفرقة ، وكانوا ينصتون اليها وهم يحتسون أقداح القهوة التركية ٠٠ وكان الموسم لا يزال فى بدايته ، ولم يبدأ بعد اندفاع السياح نحو النيل ٠ كما ان الموجودين منهم لم يكونوا قد وطدوا أواصر المعرفة العابرة بينهم ٠٠ ومن ثم فقد كان الناس ينظر بعضهم الى بعض فيما يشبه التساؤل والتحفظ ، أو كان بعضهم يتجاهل البعض تماما ، بينما تكاد وجوههم وظهورهم تقول لبعضها بعضا فى صراحة وجلاء : « لن يكون لنا شأن بكم حتى نعرف المزيد عنكم ! »

وأثار دخول الجماعة القادمة من « فيلا أندروود » اهتماما صرف الناس عما كانوا فيه ٠٠ وما كاد الخدم يرون بارودى حتى سرت بينهم حركة رقيقة سريعة للمبادرة الى خدمته ! وملأ الابتسام وجوه النوبيين الطوال القامة فى ثيابهم البيضاء وأحزمتهم القرمزية ، ورفعوا ايديهم الى رؤوسهم بالتحية ، وهم يبدون سرورهم ورغبتهم فى استرعاء أنظاره ٠٠ واسرع حارس الباب الالمانى فتقدم الى الامام وعلى أساريره ابتسامة ارجوانية اللون٠أما رئيس الاوركسترا ـ وكان مجريا قحا ـ فقد اخذ يقود الفرقة فى حماس وحمية كأنه يعزف من أجله ! وتقدم سيد أسود اللون مهيب الطلعة ، يرتدى ثوبا قرمزيا مقصبا ـ ويبدو كأنه أمير شرقى ، ولكنه فى الواقع كان يكسب عيشه من صلته الوثيقة بالمصعد المؤدى الى الطابق الاول ! ـ فقادهم الى احدى الموائد ٠٠ وتقبل بارودى هذه اللفتات كلها بغير اكتراث ، وفى جلال خلو من التصنع أو التكلف ٠ فلما اتخذ ثلاثتهم مجلسهم حول المائدة ، أصدر امره بطلب القهوة والشراب ، ثم أخذوا يصغون الى الموسيقى ، التى كانت بالغة الجودة ، تحوى تلك الطلاوة

الخاصة التى تجمع بين الحمية والحزن ، والتى تتميز بها الموسيقى المنبعثة من أقواس عازفى الكمان المجريين

وكان نيجل يدخن لفائفه ، ويلوح منصرفا بكل جوارحه الى الموسيقى ، وقد غض ببصره الى الارض٠٠أما مسز ارماين فكانت تلوح مستغرقة فى الاصغاء كذلك، بيد أنه لم يمض على جلوسها أكثر من خمس دقائق حتى كانت قد رأت وألمت بكل جماعة من الناس فى جوارها ، وحددت الجنسيات ، وانتقدت ثياب النساء ووجوههن ، وأعملت فكرها وانتهت الى قرار حاسم عن الرجال الذين كانوا يصاحبونهن ، وعن الروابط العائلية ، أو الغرامية ، التى كانت تربط بين بعضهن البعض أو بينهن وبين أولئك الرجال ٠٠ بل انها فعلت أكثر من ذلك ، فقد استطاعت أن تقدر وتزن مبلغ الاهتمام ، أو الفضول ، أو الاعجاب ، أو الغبطة، أو الازدراء ، التى كانت هى نفسها قد أثارتها فى نفوس هؤلاء الناس ٠٠ استطاعت أن تقدر وتزن هذه الانفعالات بتلك الموازين السديدة التى للمرأة البارعة الخبيرة ، التى عاشت سنين برمتها فى الأوساط الراقية أو المتوسطة على السواء ! ٠٠ وعن كثب منهم ، جلس اللورد والليدى هايمان ، مع اثنين آخرين من الانجليز ـ هما سير جون وليدى ميرشيسون ـ الى مائدة لم تكن فى محاذاة مائدة مسز ارماين وزميليها ، وانما كانت الى الوراء قليلا ، من الناحية اليمنى ، بحيث كان شاغلوها فى متناول انظار مسز ارماين ٠٠ كانوا ثلة من أبناء الطبقة الراقية الذين يغشون موائد القمار وحلبات السباق ، ويحبون المرح واللهو ، ويبدون فى كل مكان ، فلا يفوتهم حفل هام يذهب اليه ويظهر فيه نظراؤهم ومن على شاكلتهم ! ٠٠ كانت ليدى ميرشيسون حسناء شقراء حقودا ، من ذلك الطراز من النساء اللواتى لا يترددن فى أن يعضضنك اذا لم تدعهن ينلن ما يردن ! وكانت وقتئذ تبتسم فى شراسة ، وتغمغم ببضع كلمات لليدى هايمان ، التى كانت ضخمة الجسم بطبيعتها ـ ولكنها كانت تضغط جسمها بشدة ! ـ ذات لون قان دموى لم تفلح المساحيق فى اصلاحه اصلاحا كافيا ، وذات طبع استبدادى لم يفلح اللورد هايمان فى تقويمه بما فيه الكفاية !

كل هؤلاء الناس ـ وكانت مسز ارماين تعرف ذلك فى قرارة نفسها الى حد اليقين ـ قد قرأوا ما نشرته صحيفة « المورننج بوست » ٠ ٠وهم هنا فى مصر يمثلون (لندن) ، ومن ثم فقد كانت ترى فيهم حكم (لندن) عليها : « لقد نالت ما تستحق » ٠٠ رأته فى ابتساماتهم الباردة ، وفى لفتاتهم المباشرة اليها ـ وكانت لفتات قاسية ، وقحة ، باردة كالفولاذ ! ـ وفى نظرات الاشفاق الغريبة ، الممتزجة بلون من التشفى الحيوانى ـ بل الصبيانى ـ التى كان الرجلان يرمقان نيجل بها !

وما لبثت مسز ارماين ان نقلت أنظارها من (لندن) الى (مصر) ممثلة فى بارودى .. لقد كانت بزواجها من نيجل تتوق الى أن تضع « كعبها » على رأس لندن التى طالما احتقرتها ، وازدرتها .. وكانت ترجو ان تضع يوما « كعب » الليدى هارويتش على رأس أكثر من امرأة واحدة من اللواتى عرفتهن قبل ان يلقى بها الى خارج المجتمع .. وكانت - فى قرارة نفسها - تعتمد على ذلك ، وكأنه شيء محقق ، شيء ليس عليها الا أن تنتظره .. فقد كان اللورد هارويتش معتل الصحة منهوك القوى ، كما كان رجلا طائشا الى حد بعيد ، تتعقبه الحوادث باستمرار ، ودائما ما يتعرض لتحطيم عظامه واصابة جسمه بشتى الاصابات .. ولم يكن عليها الا ان تنتظر فقط ! .. اما الآن ، فهناك غلامان توأمان .. وهناك لندن بأسرها تضحك منها !

وعادت تنظر الى بارودى من جديد .. وكانت الموسيقى الحارة الحزينة قد بلغت ذروتها ، واستحوذت عليها ، وامسكت بها فى قبضتها القوية ، وراحت تجرفها الى الامام .. فلما انتهى اللحن ، كانت مسز ارماين تشعر بأنها قد حملت بعيدا عن لندن ، وعن تلك الامانى والاطماع القديمة ، الى الابد ! .. وكانت عينا بارودى الواسعتان تستقران عليها ، وكأنهما تقرآن أفكارها .. وأصبحت تحس - للمرة الاولى - بالقلق ينتابها من هذه النظرات المتفرسة ، المليئة بالعزم والتصميم .. وتحس بالرغبة - بل الحاجة - الى الفرار منها والنجاة من هذه الرقابة ! .. وفيما كان العازفون يرفعون ذقونهم عن آلاتهم، ويرخون أيديهم الى جوانبهم ، قالت لزوجها : « هل اكتفيت من الموسيقى يا نيجل ؟ » . فأجفل نيجل وهتف بها : « ولماذا يا روبى ؟ انهم يعزفون فى براعة وحق السماء ! »

ولاحت فى عينيه نظرة أوحت بأنه كان كشخص يعود من رحلة طويلة مظلمة تحت الارض الى ضوء النهار .. كانت الموسيقى قد حملته الى جانب تلك الفتاة التى أحبها يوما ، والتى قضت نحبها منذ عهد بعيد .. اما الآن ، فقد راح ينظر الى تلك المرأة التى تحيا بجانبه ، والتى اتجهت اليها قوته العظيمة على الحب ، وتركزت فيها .. وسألته : « هل يضايقك ان نعود الى المنزل ؟ » ، فأجابها متسائلا : « وهل اكتفيت من الموسيقى الى هذا الحد ؟» ، فقالت : « كلا ، ليس الامر كذلك ، ولكن .. ولكننى متعبة ! » . وفيما كانت تقول ذلك استطاعت ان تحول أنظاره فى براعة - ودون أن يبدو عليها تعمد ذلك - نحو الجماعة الصغيرة التى كانت تضم آل ميرشيسون وآل هايمان ، وان تحول مشاعره نحو الاشفاق عليها من نظراتهم ،فيدرك ان ذلك كان سبب رغبتها فى الانصراف .. بل ربما كان ذلك بعض السبب ، وليس السبب كله ، كما أوحت اليه .. وعندئذ قال نيجل فى حنان : « لسوف أعود

بك الى المنزل توا »
فلما غادروا الفندق ، حيا بارودى الزوجين مودعا ، ودعاهما الى تناول الشاى على ظهر « اللولية » أو اللؤلؤة - وهو الاسم الذى كان يطلق على دهبيته - فى اليوم التالى ، وأضاف : « سأرحل الى أرمنت فى المساء ، فهل يضايقك الحضور يا سيدتى ؟ » .. وكان يتكلم بادب جم ، ولكن فى غير اكتراث . وأجابته مسز ارماين باللهجة نفسها : « شكرا ، لسوف يسرنى ذلك ! ».. فقال : « طاب ليلكما .. لقد كانت الموسيقى رائعة ! » .. واختفى شبحه الطويل فى الظلام . فلما فارقهما ، كان الصمت يخيم فوقهما .. وأتى نيجل بحركة وكأنه يهم بأن يمسك بيدها ويضع ذراعها تحت ذراعه ، ولكنه لم يفعل! وهكذا راح الاثنان يمشيان جنبا الى جنب بجوار النهر دون أن يلمس أحدهما الآخر أو يتبادلا كلمة واحدة .. وعلى هذا النحو وصلا الى الفيلا ، ثم الى الشرفة الممتدة أمام حجرة الجلوس . وعندئذ تكلم نيجل اخيرا فقــــال : « هل .. هل ستصعدين للتو يا روبى ؟ » .. فأجابت : « أجل » . واذ ذاك قال : « اننى .. هلا ناديتنى من نافذتك بعد قليل؟» .. وكان جوابها أن تساءلت : « ولماذا ؟ »

- عندما تجدين الوقت مناسبا لصعودى اليك .. اذ يجب بعد الذى حدث هذا الصباح أن اتحدث اليك قبل أن ننام .

فنظرت اليه ، ثم نكست بصرها الى الارض ، وهى تريح ذقنها البيضاء على الفراء الأبيض الدافىء ، وأخيرا قالت : «سأناديك» . واذ مضت مبتعدة ، راح يتبعها ببصره وهو يفكر فى مبلغ ماتبدو عليه من الطول الفارع - الى درجة غريبة - فى هذا المعطف الا بيض الطويل ، وراح يذرع المكان ذهابا وجيئة اثناء انتظاره ، مصغيا مترقبا أن يسمع صوتها .. وبعد فترة خالهـــا دهرا طويلا سمعها أخيرا تقول : «نيجل .. لك أن تصعد الآن .. اذا شئت !» .. فاسرع من فوره يرقى الدرج نحو حجرتها ، حيث وجدها جالسة فى مقعد كبير بالقرب من النافذة المؤدية الى الشرفة العليا ، التى كانت مفتوحة على مصراعيها تحتضن ظلمة الليل..وكانت ترتدى ثوبا أبيض هفهافا واسعا من ثياب النوم ، ذا أكمام كبيرة تنسدل حول ذراعيها كالجناحين .. وكان شعرها معقوصا خلف عنقها !

وكانت الحجرة مضاءة بشمعتين صغيرتين تحترقان فوق مكتب صغير ، وبضوء القمر الشاحب الرقيق الذى كان يسترق الخطى الى داخل الحجرة فى حــذر واصرار معا ، زاحفا اليهما من مصر التى كانت تنام دون أن تنبعث لأنفاسها صوت ما ، والتى كانا يأويان اليوم الى احضانها الدافئة ! .. ووقف نيجل امامها برهة ، ثم جلس فوق أريكة صغيرة لم تكن ملاصقة لها ، وانما كانت قريبة منها .. وهتف يقول : « روبى ! » .. فأجابت : «حسنا يا نيجل!».

قال : « لقد كان هذا أول يوم تعس مر بى منذ زواجنا ! » •• فتساءلت : « تعس ؟! »

— نعم ••بسبب هذه السحابة التى نشأت بيننا !

فلم تقل شيئا • وعندئذ استطرد يقول : « على أنه علمنى شيئا ياروبى••لقد جعلنى أدرك مقدار حبى ، وشغفى بك » •• ومال نحوها • وفيما كان يفعل ذلك سرح فكرها الى بارودى فذكرت تماما كيف كانت تبدو كتفاه وعنقه عندما كان يميل نحوها ! بينما كان نيجل يتابع كلامه :«ولاأحسبنى كنت أدرك ذلك حق الادراك من قبل • بل اننى واثق تماما من أننى لم أكن أدركه •• ولكن الذى جعلنى أفهم حقيقة شعورى هو ماأحسست به عندما وجدت اننى آذيتك وأسأت اليك لحظة واحدة •• روبى !•• لقد تولى ضميرى ومشاعرى عقابى الى حد لاأظن معه انك يمكن أن تودى عقابى باكثر من ذلك ! »

— أنا أعاقبك ؟ ولكن أى جرم أتيته حيالى ، وكيف يمكن لى أن أعاقبك ؟

— لقد أسأت اليك هذا الصباح عند ماظننت لحظة •••

وكف عن الكلام •• فقد وجد أنه لايستطيع أن يصوغ أفكاره فى كلمات واضحة • وما لبث أن اختتم عبارته قائلا : « بشأن هارويتش والغلامين••»، فقاطعته صائحة : « آه !أهو ذلك ؟ •• ولكن الأمر لم يكن بذى بال ! » •• وكانت تتكلم فى برود شديد ، ولكنها كانت تحس بنفسها أكثر انفعالا ، وأحر عاطفة مما كانت منذ عهد بعيد ، بل أكثر مما كانت تعلم أنها قادرة على ان تحسه ! وعاد يقول : « لا •• لقد كان ذا شأن خطير ! ولكنى لا أحسبنى كنت أعنيه حقا » • فقالت محتدة : « بل انك كنت تعنيه ! » •• فاعتدل فى جلسته، كما يفعل رجل فوجىء بما أزعجه •بينما أردفت هى : « لقد كنت تعنيه وتعتقده •• لاتحاول ان تتملص من ذلك يانيجل !»

— اننى لاأحاول ياروبى •• لماذا ؟ ألم أقل •• ؟

— لقد كنت تعتقد مايعتقده كل امرىء •• تعتقد اننى امرأة جشعة ، لا روح لى ولا ضمير ،واننى تزوجت منك مدفوعة بمطامعى الشريرة الخبيثة فى أنأصبح يوما من الأيام ليدى هارويتش •• لقد كنت تعتقد ذلك يا نيجل •• كنت تعتقده حقا !

— اننى فى لحظة واحدة فقط ••

ونهض من مجلسه فوق الأريكة ، فوقف بجوار النافذة •• كان يشعر بما يشعر به رجل يجتاز أزمة نفسية أدبية •• يشعر بأن مايقوله فى تلكاللحظة ، والطريقة التى يقوله بها ، ومبلغ مايضع فيه من اخلاص عميق ، ومرارة قلبية ، ربما كان له —بل لابد ان يكون له — أثر واضح يحدد مجرى المستقبل ••

واستطرد يقول : « اننى فى لحظة واحدة فقط تساءلت عما اذا كنت قد

فكرت عند ماتزوجت منى فى اننى قد أصبح يوما من الايام لورد هارويتش ! » .. فقالت : « طبعا »

★★★

◆ « الله » .. ومن خلال النافذة المفتوحة تسلل ذلك الصوت الأخن ، المنبعث من الملاح النوبى ، وهو يبدأ أنشودة النيل على السطح الأسفل من «اللولية» . وتسلل معه الى الحجرة ذلك الوجيب الخافت لدقات « الدربكة » وكأنه الصوت المنبعث من بعض الأمواج الطويلة الخفية الأبدية .. أمواج الليل !.. ذلك الفيض الغامر من الأسرار الغامضة والحسن المكنون الذى يغرقهما ويغرق العالم كله ! وزادت هذه الموسيقى البعيدة من انفعالها ومن انفعاله معا !

ـ روبى .. حاولى أن تفهمى.أحسب أنه كان ، الى حد ما ، شعورا وضيعا، ذلك الذى دفعنى الى التساؤل .. لقد كان عسيرا على أن أصدق انك تهتمين بى كثيرا

ـ ولماذا ينبغى لك ، أو لأى امرىء غيرك ، ان تعتقد اننى خليقة بأن أهتم وأحب ؟!

ـ لقد اعتقدت ذلك فى لندن ، واعتقدت ذلك هنا ، وقد كنت دائما أعتقد ذلك .. دائما ! واذا كان بعض الآخرين قد .. قد كفروا بك وكذبوك ، فاننى لم أكن مثلهم البتة .. أو ترتابين فى ذلك ؟

وتقدم خطوة الى الامام،ووقف ينظر اليها ، مستطردا : « ان بوسعى أن أثبته لك » . فتساءلت : « آه ! كيف » ؟.. فاجاب : «ان هاير ايزاكسون يعلم ذلك» .. ولم يشر الى زواجه منها كدليل سبق أن قدمه ، لان ذلك قد يعنى شيئا آخر غير ايمانه فى زهدها الدفين ، وفى رغبتها الخفية فى كل ما هو طيب وجميل .. وأردف يقول: «وانت ، الا تعلمين ذلك ؟.. حتى بعد هذا الصباح؟»

ـ بعد هذا الصباح .. اننى لاأحب أن أوزى شعورك ، ولكن عليك ، بعد الذى حدث هذا الصباح ان تثبته لى .. تثبته بما لا يدع سبيلا الى الشك ، والا فاننى لن أصدقه !

وضاع صوت الملاح النوبى المنفرد وسط اصوات رفقائه ـ وهم ينشدون معا ـ وقد حومت فوق النيل .. بينما استطردت قائلة : لست احب ان أكون باردة الشعور .. ولست أود أن أكون قاسية ، ولكن المرء لايملك ان يمنع أشياء معينة من أن تخالجه .. لقد كنت مسوقة ، مجبرة ، على الشك والريبة فى كل مايتصل بالرجال..ولست أود أن أجوس ثانية خلال حياتى الماضية ، لا ولا أود أن أعيد على مسامعك ذلك «الكليشيه» القديم « من كان منكم بلا خطيئة» ، وليس فى

ثيتى أن ألعب دور المرأة الشاكية الباكية ، فمـا فعلت ذلك قط من قبل ، وأحسبنى على قدر ضئيل من الشجاعة يحول بينى وبين اتيان ذلك البتة !.. ولكن شيئا كالذى حدث فى هذا الصباح ينبغى أن ينمى الشـكوك والريب والشبهات فى امرأة مر بها من التجارب ما مر بى !.. ولقد كان من أيسر الأمور لدى أن أرتمى بين ذراعيك ، وأقول اننى قد نسيت كل شىء ، واننى لن أفكر فيما حدث ثانية ، وما الى ذلك .. كان من أيسر الامور لدى أن أمثل لك دورا فىمسرحية ، ولكنك كنت طيبا معى عندما هجرنى الجميع ، وقد اهتممت بى الى الحد الذى جعلك تتزوج منى ، ومن ثم ، حسنا ، اننى لن أفعل شيئا من ذلك ، وانما سوف أخبرك بالحقيقة .. هاهى ذى : اننى لا أستطيع أن أحول دون ادراكى انك ترتاب فىمقاصدى ، ولست فى الواقع أدهشلذلك قيد أنملة.. لست أعرف ان كانلى حق فى أن أشعربانى قد أوذيتفى شعورى ، أو أهنت.. ولكن ، سواء أكان لى هذا الحق أم لم يكن ، فاننى قد أهنت وأوذيت فعلا ، ولا بد أن ينقضى بعض الوقت قبل أن أشعر بالأمن والسلامة الكاملين معك .. الأمن والسلامة ! فليس فى وسع المرء أن يشعر بهما الا اذا وجـد ان ذلك الشطر الضئيل من الاخلاص الكامن فيه ، يقابل بالتصديق والايمان والثقة !»

وكانت تتكلم فى هدوء ، ولكنه أحس بالانفعال المضطرم خلف هذا الهـدوء الظاهرى .. وكانت فى صوتها نبرة من الصلابة أنبأتهـ بوضوح ـ بانها تعنى كل ماتنطق به !.. وكان صوت الملاحين النوبيين يعبر النيلاليهما بغير انقطاع.. وقال نيجل : «لست أدهش البتة ان يخالجك مثل هذا الشعور » .. ثم وقف برهة ممعنا فى التفكير ، متأملا .. وما لبث أن جلس ثانية وبدأ يتكلم فى عزم تستحثه العاطفة : «روبى ! أحسبنى اليوم كنت كاذبا مع نفسى ، لاننى اليوم كنت خائنا لايمانى الحقيقى العميق بك .. ففى لندن ، كنت أعتقد أنك اهتممت بى كرجل .. لا لأننى قد فتنتك بصفة خاصة بشخصيتى ، بل لاننى استطعت أن أحس كيف يسىء الاخرون فهمك وتقديرك .. وكان يخيل الى ـ بل ويخيل الى الآن ـ ان فى وسعى أن ألبى رغبة فى نفسك لم يحاول أحد قط غيرى ، بل لميشأ قط ، أن يلبيها ! كان الآخرون ، فيما يخيل الى ، ينظرون اليكعلى أنك لم يعد لك مطمع البتة الا فى تلك الأشياء التافهة التى لايقام لها فىالواقع أى وزن : المال الوفير والترف والحلى والثياب .. وانت تعلمين ما اعنيه ! .. ولكنى شعرت بأن رغبتك الحقة ـ حسنا .. لابد لى من أن أقولها فىصراحة ـ هى أن تكونى محبوبة ، لا مشتهاة فحسب .. أن يستوهبك الناس شيئا ، لاأن يهبوك أشياء فحسب .. لقد شعرت بذلك ، وخيل الى أننى أدركته .. أفلم أكن على حق ؟»

فقالت : « لست أدرى .. الليلة ؟! » .. وكانت أذناها قد امتلأتا بتلك

الموسيقى وذلك الغناء الذى كان ينوح ويختلج فى احضان الليل ٠٠ وعاد يقول: « أليس فى وسعك أن تغفرى لى تلك المرة الواحدة التى تخليت فيها عن نفسى، بعد كل هذه الأيام و ٠٠ والليالى معا ؟ ٠٠ ألم أقم الدليل على شىء ماخلالها ؟» ٠٠ فقالت : « لقد كنت تلوح كذلك،ولكن الرجال غالبا مايبدون هكذا،دون أن يكونوا حقا ٠٠ وقد ظننتك تعرف لماذا تزوجت منك» ٠٠ فقال : «خبرينى لماذا تزوجت منى ؟ » ٠ فقالت : «ليس الليلة ! » ٠ فشرع يقول ، وقد تباطأ فى كلامه واكتسبت لهجته جدا واهتماما عميقين ، وسرعان مااستحوذت لهجته على انتباهها كله :

ـ لقد كنت باروبى منذ عهد بعيد أحب فتاة صغيرة ٠٠ كانت فى مستهل شبابها الباكر ، لا تعرف الا النزر الضئيل عن الدنيا ، ولا تعلم شيئا البتة عن مفاسدها وشرورها ٠٠ واحسبنى احببتها لأنها كانت ، من ناحية ، على هذا النحو من قلة المعرفة ، والى هذا الحد من الطهر والنقاء ، وان المرء ليستطيع أن يرى ٠٠ يرى فى عينيها انهما مانظرتا قط ـ ولو عن بعد ـ الى الوحل والاقذار أو اى شىء دنس أغبر ! ٠٠ كانت تحبنى الحب كله ٠ ثم ماتت ٠٠ وبعد ذلك أصبحت مثلى الأعلى !

ونظر اليها وهو يرفع رأسه قليلا فى بطء ٠٠ وكان فى عينيه ضياء ساطع أخافها وسحرها فى الوقت نفسه ٠٠ ضياء خالص نقى لاتشوبه شائبة ، فكأنه لهب ترتفع ألسنته فى مكان خلو من الريح ٠٠ وأردف يتابع القول : « ولقد ظللت احتفظ بها دائما فى ذاكرتى بمعزل عن النســاء الأخريات ٠٠ دائما ، وعاما بعد عام ٠٠ حتى جاءت ليلة ، وانا فى لندن ، بعد ان عرفتك ! ففى تلك الليلة ـ ولست أدرى كيف حدث ذلك ، او لماذا حدث ـ خيل الى اننى أراها وأراك ، واقفتين معا ، تنظر كل منكما الى الأخرى ٠٠ وخيل الى اننى تبينت فى كل منكما ٠٠لست أدرى كيف أعبر عن ذلك تماما٠٠»

وتوقف عن الكلام وهو ينكس بصره كشخص استغرق فى تفكير عميق ، او شخص استبدت به الأفكار ٠ وما لبث ان استطرد قائلا : «لقد كان فى كل منكما ـ مع الكثير من الأشياء الأخرى المتباينة ـ شىء واحد ٠٠ شىء جميل ، اجتمع فيكما معا ٠٠وخيل الى انها كانت تقول فى تلك الليلة انك تنطوين على شىء طالما احببته فيها ٠٠ شىء مستتر لاتراه العيون ٠٠ وانك تخافين اظهاره ، لان أحدا لايصدق انك تنطوين على هذا الشىء فى اعماق جوانبك ! خيل الى انها تطلب منى ، فى تلك الليلة ، ان اجعلك تثقين بى ، فتطلعينى على هــذا الشىء ٠٠ وفى تلك الليلة كانت بداية حبى لك ! وما خطر لى البتة اننى سوف أطلع أحدا ـ حتى انت ـ على ذلك ٠ افتحسبين اذن اننى كنت خليقا بأن اطلعك عليه ، اذا كنت لا أثق بك كما يبدو انك تظنين ؟ »

ـ هل لك ان تناولنى كوبا من الأبوليناريس(١) يانيجل ؟ انه هناك بجوار السرير !

وهتف وهو شارد البال : «أبوليناريس ؟!» ·· وكان يحملق فيها وهو سارح البال ، كأنما أصيب بالارتباك لهذا التحول الفجائى ·· فقالت : «انه هناك»·· واشارت بيدها ، وعندئذ انحسر كمها الطويل ، الشبيه بالجناح ، حتى كشف عن ذراعها البضة الناصعة ·· وغمغم نيجل : « آه ·· حسنا ! » · ثم مضى ليحضر ماطلبت ، بينما جلست هى فى مكانها بلا حراك ، تنظر خلال النافذة المفتوحة الى ضوء القمر المترامى على بلاط الشرفة الأبيض ·· وسمعت صليل الزجاج ، وقرقرة السائل وهو يصب فى الكوب ·· ثم عاد نيجل ثانية ووقف بجانبها وهو يقول : «هاهو ذا ياروبى !»

وكان الحماس قد تلاشى من صوته ، والضياء الغريب قد خبا من عينيه · · وقالت : «شكرا» ، ثم تناولت الكوب ، فأدنته من شفتيها ، وراحت ترشف منه· وما لبثت أن وضعته على المكتب الصغير ، وقالت : « اننا مازلنا فى بداية الأمور يانيجل ·· هذه هى الحقيقة ·· فليس فى وسعنا أن نقفز فى وثبة واحدة الى الكمال المتبادل فى علاقتنا معا ! وان لدى القليل من الأوهام ، كما أجرؤ على القول باننى شديدة الحساسية حيال بعض الأشياء الى حد السخف ·· أكثر حساسية مما تتصور ! والحقيقة هى اننى وطئت بالاقدام ردحا طويلا ، وما من رجل يستطيع أن يدرك ماتشعر به المرأة ـ السيدة ـ التى تكون فى ذروة نجاحها ، ثم تجد نفسها منبوذة ، مقصية عن المجتمع ، واخيرا تداس بالاقدام!·· ان ذلك يجعلها تهرع الى الشيطان فتطوق عنقه بذراعيها ! وربما كان ذلك أمرا شائنا ، فظيعا ، ولكنه الحقيقة الواقعة ·· وعندما تحاول أن تهجر الشيطان ، فانها تكون كتلة من الاعصاب المتوترة ، تجفل وتفزع لأى شبح ·· ولقد رأيت اليوم شبحا فى الحديقة ! » · فتمتم : « أعرف ذلك ·· اعرف ذلك ! »

ـ هل تذكر تلك الليلة التى تناولنا فيها العشاء فوق بوابة معبد الكرنك ؟ لقد اردت بعد العشاء ان ترينى الخرائب فى ضوء القمر ، فكنا اينما ذهبنا ، يتبعنا رقيب ذو ثوب اسود ·· أو يفاجئنا ذلك الرقيب ذو الثوب الأسود متسللا من خلف عمود ، أو مسلة ، أو جدار منهار ، فيواجهنا ، ويتفرس فى وجوهنا ، حتى اضطررنا الى أن نلجأ الى الفرار !·· حسنا ، هذه هى الحياة بالنسبة لبعض النساء ·· وهذا ما كانت عليه الحياة بالنسبة لى زمنا طويلا · كلما حاولت أن اتطلع فى هدوء وسكينة نحو شىء جميل ، الفيت نفسى وقد

---

(١) الأبوليناريس ماء معدنى قلوى مهضم ، يستخرج من نبع «أبوليناريس» بمقاطعة الراين

تبعنى رقيب يرتدى السواد ، أو واجهنى وراح يتفرس فى وجهى فى شك وارتياب ! واليوم كنت أنت واحدا من هؤلاء الرقباء السود ، عندما سألتنى ما سألتنيه بشأن هارويتش !

وتناولت الكوب فرشفت منه بضع جرعات أخرى . وما أن أعادته الى مكانه حتى كان نيجل راكعا بجانبها ، يطوقها بذراعيه ، هامسا : « لن أكون كذلك ثانية ! » .. وتسلل اليه عطر رقيق أخذ ينبعث من شعرها بعد أن أصبح قريبا منها الى هذا الحد ، فاستطرد يهمس من جديد : « ولست أريد أن أكون كذلك يوما ما ! » . وشدها اليه ثم احتواها بين ذراعيه .. وفيما كان يفعل ، كان ينصت الى الملاحين النوبيين ، والى الكلمة الواحدة التى كانت دائمة الترداد على شفاههم التى لم يكن ينالها التعب البتة : الله .. الله .. الله !

كان الله هناك فى غمرة الليل ، بجوار النيل العظيم الغامض الذى يفيض من منابع ممعنة فى البعد ، وسط القفار الموحشة فى الأرض .. كان الله هناك يرعاهما : هو ، وروبى ! .. وكان لديه ذلك الايمان الساذج - الذى يكاد يشبه ايمان طفل صغير ! - بأن هنـاك ربا يعرف كل خاطـرة تهجس فى نفسه ، وكل حركة يأتيها ! .. وهناك آلاف من الناس يؤمنون هذا الايمان ، ولكن آلافا من الناس يكنونه فى أعماق نفوسهم كما يمكن أن يخفوا خطيئة ارتكبوها .. فهم يخشون اظهار سذاجتهم وبساطتهم !

والغرض المنشود من الله .. ألم يكن واضحا امامه كل الوضوح ؟ انه يراه كذلك الآن .. فان ما ينبغى عليه أن يعمله ، هو ان يعيد الى تلك المرأة ثقتها فى وجود الخير ، بأن يؤمن ايمانا ثابتا بوجود الخير فى نفسـها ، والا يدع هذا الايمان يتزعزع كما تركه يتزعزع فى ذلك اليوم ! .. وكان حانقا على نفسه لأنه آذاها وجرح شعورها ، وكلما اشتد حنقه على نفسه اشتد ضغط ذراعيه حولها ، كأنما كان يحاول ان ينقل من جسده الى جسدها ذلك العـزم الذى استقر عليه !

ومضى الملاحون النوبيون فى غنائهم الجميل : كانوا بالنسبة اليه فى تلك الليلة يتغنـون بالله .. وكانوا بالنسـبة اليها يتغنون بـ .. محمـــود بارودى !

الفصل الخامس عشر

- ما معنى هذه الكتابة بالعربية يا محمود بارودى ؟

ألقت مسز ارماين هذا السؤال عصر اليوم التالى ، بينمـا كانت تقف مع بارودى ومع زوجها فوق السطح الأسفل من



« اللولية » ، عند قمة الدرجتين اللتين كانتا تؤديان الى الباب الكبير الذى يفصل بين صفى حجرات الجلوس ، وجناح البحارة النوبيين .. وكان ذلك الباب ناصع البياض ، تزينه نقوش بارزة مموهة بالذهب ، كما كانت الكتابة المنقوشة فوقه بحروف بارزة مذهبة . واستطردت تقول : « يبدو انها ذات مغزى ، ولا بد أن أعرف ما تعنيه » .. فأجاب : « انها آية مقتبسة من القرآن يا سيدتى » .. فسألته : « وتعنى ؟ ».واذ ذاك ثبت نظرات عينيه الواسعتين عليها ، وهو يجيب : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، فأخذت تردد معنى الآية فى بطء : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ، ثم أردفت : « اذن فهذا هو شعار اللولية ؟ »

وكانت تقف فى مكانها جامدة ، وهى تحدق فى تلك الكتابة السحرية التى كانت تهم بالمرور تحتها .. فقال بارودى : « أو لم تعجبك هذه العبارة يا سيدتى ؟ » .. فأجابت : « لا ، فانها بالغة القوة .. ولكن ، حسنا.. انها لا تدع منفذا للفرار أو النجاة ، كما انها تكاد توحى بمعنى السجن » .. فقال فى خشوع : « اننا فى الواقع فى سجن من حياتنا .. واننا لفى

سجن من نفوسنا » .. فأرخت نظراتها عن الكلمات المنقوشة، وغمغمت وهى تتطلع اليه كشخص يرغب فى المزيد : «أحقا ؟» .. وعندئذ انبرى نيجل من خلفها قائلا : « **سجن ؟ اننى أمقت هذه الكلمة ، وانك لمخطىء يا بارودى..فالحياة حرية رفيعة ، اذا اخترنا لها أن تكون كذلك ، وفى وسعنا ان نعمل فيها بمحض ارادتنا الحرة .. ان القدر ليس مغلولا الى أعناقنا ، وانما نحن وحدنا الذين نستطيع أن نضعه هناك !** »

فقال بارودى فى اصرار : « هـذا لا يتفق مع عقيدتى فى شىء » . وتحول عن الموضوع قائلا : « ها هى ذى قمرات الخدم» .. وكان قد قادهما الى ممر طويل وهو يشـير الى الأبواب الصغيرة على اليمين وعلى اليسار ، ثم استطرد قائلا : « وها هى ذى الحجرة التى أخصصها للعمل وتدبير كل ما يجب على عمله .. وأحسبكم معشر الانجليز تسمونها .. الوكر ! »

وفتح « بارودى » بابا كان فى مواجهتهم فى نهاية الممر ، ثم سبقهم الى دخول « وكره » .. وكان الأثر الذى يقع فى النفس من هذه الحجرة ـ لأول وهلة ـ انها « حجرة مزدوجة » ، اذ كان يقسمها الى غرفتين حاجز نفيس من « المشربية » (١) ، فى وسطه باب على شكل قبو صـغير ، اقيم الى جانبيه ـ فى مواجهة باب الدخول ـ عدد من الأرائك غطيت بالوشى المطرز، وتكدست عليها وسائد كبيرة .. وكانت الأرض مكسوة بعدد من سجاجيد الصلاة .. سجاجيد صغيرة تحمل مختلف الرسوم والألوان ، وقـد تمازجت عليها الألوان الصـفراء والخضراء والبنفسجية والقرمزية والحمراء والأرجوانية والسمراء ، فى اتساق وانسجام كاملين ، وتزاملت فوقها أوانى الزهور مـع الأشجار ، والمصابيح مع الأزهار ، والمبانى الغريبة مع السفن

---

(١) يطلق هذا الاسم على التحف المصنوعة من الخشب المفرغ ، التى يفخر بها الفن العربى

ومع السلاسل ، ومع قواعد التماثيل ، ومع سلال الفاكهة ، فكانت تبدو وقد اختلطت جميعا حسبما اتفق ، ولكنها فى الواقع كانت تؤلف مزيجا ترتاح اليه النفس ٠٠ وكانت على النوافذ مصاريع من « المشربية » يمكن فتحها وغلقها وفقا لما يشاء المرء ، وقد كانت اذ ذاك مفتوحة٠٠وقامت تحتها خزانات للكتب ، كانت تضم صفوفا منها ـ بالانجليزية والفرنسية ـ يتناول معظمها الزراعة ، والبناء ، والتعدين ، وصناعة القطن وصناعة السكر ، فى مختلف أنحاء العالم ٠٠ كذلك كان بالحجرة مكتب كبير من « اللاكيه » عليه مصباح كهربائى متحرك خلو من حاجب الضـوء (أباجـورة) ، وسط خليط من أكداس الأوراق والنشرات ٠٠ وعلى مقربة من المكتب ، قامت منضدة صغيرة ومقعدان منخفضان من المقاعد ذات المسندين ٠٠ وكان يتـدلى من السقف ـ الذى قسـم الى أشكال عديدة طليت باللونين الأحمر الغامق والأزرق ـ مصباح ضـخم معلق فى سلسلة من الفضة المذهبة٠٠بينما أخذ عود من البخور يحترق فى حامل مموه بالذهب !

وكانت حجرة المائدة ، فى الجانب الآخر من الحاجز ، مؤثثة بعدد من الارائك تمتد حول جدرانها ، وتضم مائدة كبـيرة وعددا من المقاعد ذات الظهور المقوسة٠٠وغطيت المائدة بمفرش هندى طويل رائع الوشى ، كان اللون السائد فيه هو الأحمر البرتقالى اللامع ، الذى كان يتألق تحت الضوء فيبعث بريقا كأنه ألسنة النيران ٠ وقامت فى وسط المائدة زهرية يابانية ازدانت بألوان صارخة غير متناسقة ، لعلها لم تكن تسـاوى أكثر من خمسة أو ستة شلنات ! ٠٠ وكان مثبتا بأحد الجدران حامل جميل من الخشب المنحوت ، عليه ساعة رخيصـة من سويسرا تمثل عش طائر

وراحت مسز ارماين تجيل أنظارها حـواليها فى صمت ،

دون أن تفوت عينيها صغيرة أو كبيرة مما كانت الحجرة تحتويه • وعلى حين غرة ، انبعث من الساعة السويسرية ازيز خافت ، ثم انفتح فيها باب صغير خرج منه طائر خشبى جميل الصنع ، أطلق صيحتين رقيقتين كانتا كلما بعث به «الزمبلك» الانجليزى ـ الذى جهزت به الساعة ـ الى النيل ! • ثم اختفى الطائر ثانية ، وأغلق الباب الصغير خلفه دفعة واحدة •• فابتسمت مسز ارماين وقالت : « أأنت الذى اشتريت هذه ؟ » •• فأجاب بارودى : « أجل يا سيدتى •• كل شيء هنا اشتريته بنفسي ورتبته وفقا لذوقى المتواضع» •• ثم فتح بابا وقاد ضيفيه الى ممر طويل ، رصفت أرضيته بالباركيه اللامع ، وقال : « وهذه هى حجرات النوم يا سيدتى »

ثم دفع بابين أو ثلاثة ، كاشفا عن قمرات صغيرة جميلة ، بدا واضحا انها كلها باريسية الأثاث • وكانت تحوى أسرة أنيقة ، وكللا رقيقة (ناموسيات) ، ومرايا طويلة ، ومقاعد صغيرة •• كل ذلك فى لون أبيض وأخضر ووردى • أما الجدران فكانت في لون العاج الأبيض • وكانت تملأ الحجرات ستائر مختلفة الأحجام ، بعضها للكوات المستديرة التى تؤلف نوافذ الحجرات ، وكلها رقيقة جميلة زاهية الألوان ، ملأى برسوم أزهار ربطت باقاتها بالأشرطة ، الى جانب رسوم الطيور الجاثمة والطائرة •• وكانت جميع وسائل الزينة كاملة ، كما كان لكل حجرة حمام خاص به مغسل مطلى بالميناء (بانيو)

وأشار بارودى الى أحد الأبواب دون ان يفتحه ، وهو يقول : « وهذه هى حجرة نومى الخاصة ، يا سيدتى •• انها أكبر حجرة فى العائمة ، أما هذه فهى الحجرة المخصصة لخلواتى •• فكلما أردت أن أخلو الى نفسى دون ان يزعجنى أحد ، وكلما رغبت فى أن أدخن « الكيف » أو آكل « الحشيش » •• أو كلما

أحببت أن أجلس منفردا لأنسى مشاغلى وأستغرق فى التفكير برهة ، فاننى أعتكف بداخلها ! »

وكانت تواجههم فى نهاية الدهليز ستارة مطرزة ، برتقالية اللون ، تغطيها وشائج من الحـــرير من مختلف الألوان ٠٠ فجذب بارودى الستارة جانبا ، ثم دفع بابا منزلقا من الخشب يكاد يكون أســود اللـــون ، وقال : « هل لك أن تتقدمى يا سـيدتى ؟ » ٠ فخطت مســز ارماين الى الداخل فى بطء وحذر ، واذا بها فى قاعة فسيحة تشغل كل مؤخرة «الدهبية» ٠٠ وكان الجانب الأقصى لهذه القاعة متسعا ، هلالى الشكل ، به مصطبة منخفضــة ذات أرائك مقوسة ، يشــطرها بابان منزلقان ــ كانا اذ ذاك مدفوعين فى الفجوات الخاصــة بهما ــ يؤديان الى شرفة كبيرة تطل على النيل وتغطيها مظلة واسعة من وهج الشمس ، وكان السقف الخشبى لهذه القاعة مقسما الى مربعات سوداء وذهبية ، وقد زخرفت اطاراتهـــا بنقوش دقيقة ــ تمثل آيات من القرآن ــ بحروف من الذهب فوق رقاع سوداء ، وكانت جميع النوافذ من الخشب المفرغ (المشربية)، وقد كانت اذ ذاك مغلقة كلها ٠ وكان يتخلل الجدران ــ وهى ذات لون « جوزى » داكن كلون المشربيات ــ عدد من الفجوات المنحوتة ، وقد صفت عليها أشياء متنوعة تافهة القيمة : من زهريات زاهية الألوان رخيصة الثمن من نابولى وباريس ، الى ساعتين صداحتين أخريين ، ثم ساعة ثالثة ذات ميناء من الخزف الأزرق والأبيض ، وظهر يبدو أنه صنع من النحاس الاصفر، ثم صندوق موسيقى ، ثم تمثال وحش فظيع ــ يشبه التنين ولكن له رأس كلب ــ من الخزف الأزرق والأصفر٠٠ولم تكن بالغرفة أية مقاعد ، ولو أن الشرفة كانت تحوى بعض المقاعد المصنوعة من القش والخيزران ، كما كانت المصطبة المنخفضة مزدحمة بالارائك العريضـــة ٠٠ وكان فى منتصف أرضـية

الحجرة حوض غائر من الرخام ، غرست فيه بعض أشجار النخيل من نوع القزم ، وانبثقت من وسطه نافورة تقذف رشاشا دقيقا من الماء ، تتراقص فوقه ، صاعدة هابطة ، كرة مذهبة صغيرة فى حجم حبة البازلاء ! ·· وكانت أرضية الحجرة مغطاة بأكداس من الطنافس الثمينة ، بينما كان يسرى فى جوها أريج خفيف لرائحة عطرية ثقيلة ، يترك فى الحواس أثرا يشبه أثر المخدر !

وغمغمت مسز ارماين قائلة : « يا لها من حجرة غريبة ! » ·· وكانت قد لبثت واقفة مكانها بالقرب من الباب بغير حراك· وما عتمت أن تقدمت ـ والرجلان فى أثرها ـ حتى جاوزت « الفسقية » ، وبلغت حافة « المصطبة » ، فدارت على عقبيها ، وأولت ظهرها للضوء الذى كان يتسلل خلال الباب الضيق المؤدى الى الشرفة ·· وكان بارودى قد أغلق الباب الذى دخلوا منه ، ثم جذب فوقه ستارا ثقيلا برتقالى اللون ، رأته مسز ارماين وقتئذ ، للمرة الأولى ، فاذا هو بالرغم من انه كان جميلا فى حد ذاته ، سواء فى لونه أو فى قماشه ·· بل بالرغم من انه كان ضاريا فى جماله كجلود بعض الحيوانات الوحشية ، الا أنه لم يكن منسجما مع سائر رياش الحجرة ، ولا متناسقا مع الألوان الغامقة للوشى الفاخر الذى كان يملأ المكان ويزين سجاجيد الصلاة الثمينة ، ولا مع الخشب الداكن لمشربيات النوافذ ! ·· **كان هذا الستار ـ مثله مثل تلك الساعات الصداحة الرخيصة فوق الحوامل الفاخرة ، أو ذلك الخزف السوقى المجلوب من نابولى وباريس ـ يكشف عن ناحية صبيانية فى هذا الرجل ، وعن ذوق فاسد ساذج فى فجاجته ، وان كان لجوجا جريئا فى حرصه على ان ينال الاعجاب ! ·· كان هذا الستار ، وهذه الساعات والزهريات ، تكشف فى غرابة صارخة عنيفة ، عن شطر من الرجل يختلف**

كل الاختلاف عن شطره الآخـر الذى انتقى تلك الطنافس الجميلة الى درجة الاعجاز ، وذلك الوشى النفيس المسجى فوق الأرائك .. كان الـذوق الرفيـع مقترنا بذوق عامى باد للعيان !

وتمنت مسز ارماين لو استطاعت أن ترى حجرة نومه .. فبدأت تقول : « شد ما أود .. » ، ثم أمسكت فجأة ، فقال بارودى : « نعم يا سيدتى ؟! » .. وتسـاءل نيجل : « ماذا تودين يا روبى ؟ » .. فقالت : « ستضحكان منى ، ولكنى أود لو خرجتما الى الشرفة ، وأغلقتما الأبواب ، وتركتمانى وحدى فى هذه الحجرة الموصدة برهة .. اذ أحسبنى سأشعر كما لو كنت فى صميم دار شرقية » .. فقال نيجل : « تعنين فى .. حريم ؟ » . فأجابت : « لعله كذلك .. هيا اخرجا ؟ » .. فابتسم بارودى ، كاشفا عن صفين من الأسنان الدقيقة الجميلة ، وقال : « تعال يا مستر ارماين ! » .. وانتقل الى الشرفة وهو ينطق الاسم بطريقته المخطئة ، فتبعه نيجل . ثم جذب بارودى أحد البابين المنزلقين ، والتفت الى مسز ارماين متسائلا : « أتودين حقا أن أغلق الآخر أيضـا ؟ انك بذلك تصبحين فى ظلام دامس ! » .. فأجابت فى صـوت خافت : « اغلقه ! » .. وعندئذ جذب الباب الثانى ، فانزلق فى رفق حاجبا ذلك المستطيل من ضـوء الشمس وشبح الرجلين عن ناظريها !

لقد قال لها بارودى انها سوف تصبح فى ظلمة حالكة ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا كل الصحة .. فقد كان هنـاك بصيص خافت من الضوء ـ لم يكن فى الواقع أكثر من ذلك ـ يختلس الخطى من حيث لا تدرى ولا ترى ، ليجلو لها ظلمـة المكان .. ومضت الى الأريكة ، فى الجانب الأيمن من السفينة ، وتحسست باحثـة عن بعض الوسائد ، فكومتها معـا ، ثم



اضطجعت فى حذر ، خشية ان تفسد من وضـــع قبعتها ٠٠ **وكانت الأريكة رخوة لينة ، تستجيب لأية حركة ، فضمت جسدها وعانقته ، كأنها كائن حى عاشق يدرك الرغبة التى كانت تختلج فى نفسها اذ ذاك !** ٠٠ وكانت الوسائد تسند ذراعها ، وهى مضطجعة على جنبها ، مرهفة السمع ، ساكنة بغير حراك ٠٠ وكانت مسز ارماين على قدر من الخيال ، ولو انها لم تكن من النساء ذوات الخيال الدافق الشديد الحساسية ٠٠ ومن ثم تركت العنان لهذا القدر من الخيال ، فحملها معه الى دار شرقية يقتنيها سـيد من الشرق ٠٠ أين كانت تلك الدار ؟ وفى أية بلاد غريبة تحت الشمس المشرقة ؟ لم تكن تدرى ولم تبال بأن تدرى ، فقـد كان ذلك ـ فى الواقع ـ لا يعنيها الا قليلا ، كأية امرأة شرقية اعتادت ان تعيش وقد ارتبطت حياتها بأسوار من الحديد !

ذلك انها خالت نفسها امرأة شرقية خاضعة لما لهذا الشرق ـ الذى لا يتغير ـ من قوانين وعادات جامدة ، وانها فى حريم رجل من الشرقيين الأثرياء ، يمتلكها جسدا وروحا ، ويحبها الى درجة العبادة ، ولكن كما يعبد رجل من الشرق المرأة التى يعدها عشيقته وجاريته معا ! ٠٠ **لقد لبثت سنين طويلة تحكم**

الرجال ، وتسيطر عليهم ، وتدوسهم تحت قدميها .. كانت تعيش لهذا الغرض : السيطرة على الرجال بجمالها وبراعة تدبيرها ! .. أما الآن فقد أصبحت ترى انها لم تعد مالكة ، وانما مملوكة بكليتها .. لم تعد آمرة متحكمة ، وانما مطيعة طاعة عمياء .. تالله ما أروعها من تجربة جديدة ! ..
وأحست بأن كل ما فيها من تقلب أهواء الأنوثة ، ومن حب التغيير ، قد نهض متحفزا ، وتدفقت فيه الدماء الحارة لمجرد التفكير فى تلك التجربة .. فى ان تكون هى نفسها جارية مملوكة ، بدلا من اقتنائها للعبيد !

وتحركت قليلا فوق الأريكة .. وكان العطر الثقيل الذى ساد الحجرة يبدو كما لو كان يزحف حولها عن عمد واصرار ، ليخضعها لتأثيره ونفوذه ! .. وسمعت الغمغمة الخافتة .. الوسوسة المنبعثة من الفسقية ، حيث كانت الكرة المذهبة الصغيرة تعلو وتستقر وتهبط وفقا لما يفعله بها الماء الذى كان يندفع ثم يتراجع متناثرا .. كانت هى الأخرى أمة .. جارية فى دار بارودى الشرقية ! .. وأغمضت عينيها فى بطء .. فى دار بارودى الشرقية ! .. هنا اعتاد بارودى أن يضطجع كما تضطجع هى الآن ، فيدخن «الكيف» ويأكل «الحشيش» ، ويسبح فى بحار من الأفكار المتلاطمة ! .. وهو لن يكون عبدا لامرأة أبدا .. كانت موقنة من ذلك كل اليقين .. ولكنه يستطيع ان يجعل من المرأة جارية له ! .. كانت عيناه تبدوان - عندما كان ينظر اليها فى بعض الأحيان - كعينى مالك الرقيق ، ولكنه ، فى قسوته ، قد يستطيع أن يعبد احدى الجوارى ، ويعشقها ! .. **لقد شعرت بما فيه من قسوة ، وكانت هذه القسوة تروق لها وتجتذبها وتغريها ، وتطابق شيئا فى طبيعتها يقدر القسوة ويحترمها ، وفى الوقت ذاته يحتقر اللطف والكياسة ! .. ان بارودى سوف يكون قاسيا**

فى غرامه ، ولن يضع نفسه قط عند قدمى امرأة ٠٠ لقد قالت لها عيناه ذلك ٠٠ قالتاه لها فى قحة وتبجح وغطرسة !

كانت الكرة المذهبة فى الفسقية ، والجارية المغطاة بالحلى والجواهر فى الحريم ، سواء بسواء فى نظره !

ومدت ذراعها على الوسائد٠٠وبسطت أطرافها على الأريكة ٠٠ أطرافها الطويلة التى ما زالت رخصة لينة فاتنة ٠٠ واستحضرت بارودى فى خيالها !

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى فى منتصف مايو القادم

تابع على صفحاته أحداث هذه القصة العالمية التحليلية الشائقة ، لترى كيف تطورت الأمور بين هذا الثالوث من أبطال القصة ، ومن هو الشخص غير المتوقع الذى ظهر فجأة على مسرح الحوادث ليمسك بخيوط الموقف المعقد الذى اكتنفته عناصر الخديعة والغدر ، بل الموقف الذى قاد احدى شخصيات القصة الى حد الاقدام على الجريمة !

هذه الأسماء الضخمة من روائع القصص
والكتب العالمية ، هي بعض ما صدر من أعداد سلسلة

مطبوعات كتابي

التي تؤدي رسالة مكملة لرسالة كتابي

فرسالة « كتابي » الذي يصدر في أول كل شهر ، هي نشر ملخصات ٨ أو أكثر من الكتب العالمية – الحديثة والقديمة – في كل عدد ، لاعطاء فكرة كافية عنها لمن لا يتسع وقته لقراءة نصها الكامل .

أما رسالة « مطبوعات كتابي » ، التي تصدر في منتصف كل شهر ، فهي نشر الترجمة الكاملة الأمينة لكتاب واحد ، في كل عدد ، من شوامخ الكتب العالمية التي لا غنى لأي مثقف عن قراءتها واقتنائها .

فاستكمل مجموعتك منها من الإدارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)
وترقب أعدادها الجديدة في منتصف كل شهر







هـذه القصـة..

إنها أشهر قصة كتبت عن مصر..

ومع ذلك، قرأها العالم كله.. ماعدا مصر..

.. فمنذ أن ظهرت بالانجليزية - عام ١٩٠٩ - ترجمت إلى جميع اللغات الحية.. ماعدا العربية!.. فحرم من قراءتها أبناء البلد الذى تدور فيه حوادثها الشائقة.. حتى آن لـ "مطبوعات كتابى" أن تزيح عنها اليوم ستار النسيان فتقدمها لقراء مصر والبلاد العربية جمعاء..

إنها القصة التى جلبت على مصر عقب صدورها "طوفانا" من السائحين، جذبهم ماتضمنته من وصف خلاب للبلاد الساحرة التى عشقت فيها البطلة الشقراء إبنة "التيمز" فتاها الأسمر، ابن القاهرة والاقصر وأسوان!



يصدرها

حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية